جبل النار [1]

جبل النّار يا أعزّ الجبالِ أنتَ لا زلت، معقد الآمالِ

تُنبت المجدَ فوق سفحكَ فينان وتسقيه من دم الأبطال

يُـفصح الصّخـر عـن شـمائـل أبنائك فوق اللّظى وعند النّزال

ما ذكرنا حماك إلا انتسبنا وانتشت نخوةً رؤوس الجبال

***

أيّها الثائرون في جبل النّار سلاماً يا زينة الأبطال

لكم الله يا حماة فلسطين زحمتم مصارع الآجال

تحملون الأرواح فوق أكفٍ وتبيعونها ولكنْ غوالي

ورصاصاتكم تمرُّ على الأيّام حُمراً مضيئةً في اللّيالي

تصرع الطائرات مثل طيور الجوّ تهوي ما فوق تلك التلال

([1])مجلة الرسالة القاهرية – العدد 161، في 3/8/1936م.

يسمعُ الجند في صداها لُغى الموت فلا يثبتون يوم القتال

***

أيهّا الثائرون قولوا، فإنّ الكو ن يصغي إلى لهيب المقال

والمعوا في غياهب الظلم تجلوها فإن الجهاد رحب المجال

إنّما الحقّ من بنادقكم يسطع والعدل من وراء العوالي

انظروا اليوم كيف يلتفت التا ريخ حتى يرى بريق النّصال

***

جبل النّار زأرةً تجعل الدهر يُحيّي مُحطِّمَ الأغلال

جبل النّار لم تخلّدك إلاّ ثورة في سبيل الإستقلال

جبل النّار ! إقذف النّار حتى نبصر النّورَ يا أعزّ الجبال

الشاعر عبد الكريم الكرمي

خارطة فلسطين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على قائد المجاهدين سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذا هو الكتاب الثاني من سلسلة "المعارك التاريخية على أرض الشام". . وهو عن تاريخ "جبل النار" وهزيمة نابليون في معارك هذا الجبل..

إن الذين كتبوا عن حملة نابليون قد ركزوا في كتاباتهم على حصار عكا، واعتبروا أن ثباتها هو السبب في هزيمة نابليون.. ولقد تبنت عكا، وكان لثباتها دور كبير في الهزيمة.. ولكن ما العوامل الحقيقية في ثباتها؟ وما هي الأحداث الرئيسية التي كانت تدور على الساحة الفلسطينية؟ والتي أنهكت جيش نابليون وحطمت آماله، وأفقدته أعصابه.. فانسل من أسوار عكا يحمل الذل، والخزي والعار...

لقد قام أبناء "جبل النار" بدور بارز في حرب نابليون.. بل قاموا بالدور الرئيسي الذي أدى إلى هزيمته وانسحابه...

إنّ الفترة التي سبقت حملة نابليون والتي لحقتها - من منتصف القرن السابع عشر وحتى منتصف القرن الثامن عشر- كانت من أفضل

الفترات في "تاريخ جبل نابلس"، فقد كان أهل الجبل في تلك الفترة " حكاماً ورعاياً أشد تماسكاً وتعاملاً بمعايير الحق والعدل، وأرسخ إيمانا وتمسكاً بتعاليم الإسلام.. وهذا مما ساعدهم على الثبات في جبلهم والوقوف في وجه الغزاة.

إن أرض فلسطين أرض رباط وجهاد.. ولا بد أن تعتمد على أبنائها في الدفاع عنها ضد الغزاة.. وقد فطن إلى هذه الحقيقة السلطان صلاح الدين الأيوبي والسلطان الناصر قلاوون، حينما غرسوا جبالها الشُّمّ بالنبات الصالح، واختاروا غراسهم من خيرة القبائل العربية، وأشدها أصالة وقوة، وثباتاً وإيمانا.. وأسكنوهم جبال فلسطين ليرابطوا في كل شبر منها، وليكونوا الحماة الأباة لأرض الإسراء والمعراج..

وقد أدرك المسلمون حكمة صلاح الدين وخلفائه من بعده.. حين وقفت هذه القبائل بجميع أبنائها، وكل قوة متاحة لها ـ في ذلك الوقت ـ في وجه نابليون الذي هزم أوروبا، واحتل مصر، وارتد عن أسوار عكا!!

وزاد إدراكهم، حين وقف أبناء هذه القبائل العربية المسلمة في وجه بريطانيا الغاصبة المستعمرة.. وتجلت هذه الوقفة في ثورة القسام عام 1935م، وثورة فلسطين الكبرى التي تبعتها عام 1936-1939م.. فكان إقدام القسام وجرأة عبد القادر الحسيني، واستشهاد المجاهدين الأبطال من أبناء فلسطين وشباب الحركة الإسلامية.. كانوا المنار الهادي والقدوة العملية التي مهدت الطريق لجيل الانتفاضة وقيام " ثورة المساجد " ضد اليهود.

خطة البحث:

اعتمدت في كتابة هذا البحث على مجموعة من المصادر والمراجع.. وفي مقدمتها:

- كتب المؤرخين الذين عاصروا تلك الفترة التاريخية {1700-1900} وكتبوا الكثير من وقائع وتاريخ جبل نابلس، وكذلك المؤرخين الذين جاءوا بعدهم وتتبعوا أخبار جبل نابلس ودونوها في كتبهم.. وفي مقدمتهم:

المؤرخ الأمير حيدر الشهابي، والشيخ عبد الرزاق البيطار، ورستم باز وإبراهيم العورا، وأسد رستم، والصباغ، والدمشقي، وأبو شقرا، والشدياق، ومشاقة والحويك.

-كتب المؤرخين الأوربيين ـ من فرنسيين وغيرهم ـ الذين عاصروا تلك الفترة، والرحالة الذين زاروا جبل نابلس ودونوا مشاهداتهم.. وفي مقدمتهم:

هيرولد، لوكروا، بيركهارت، بكنجهام، كنغليك، كربيتس، سوبلان.

- كتب المؤرخين المعاصرين الذين كتبوا عن جبل نابلس.. وفي مقدمتهم:

إحسان النمر، محمد عزة دروزة، مصطفى الدباغ، عمر صالح البرغوثي، أكرم الراميني، محمود العابدي، عادل مناع.

- مجموعة أخرى من الكتب العربية والتاريخية.
- مجموعة من الصحف والمجلات العربية.
- مقابلات شخصية أجريتها مع عدد من كبار السن العارفين.. وفي مقدمتهم:

الشيخ عبد الله باشا الشريدة، والشيخ فريز جرار، وسلطي الصايغ...

وقسمت البحث إلى خمسة فصول، هي:

الفصل الاول:

تناولت فيه الأحوال العامة لجبل نابلس.. الإدارية، والثقافية والاجتماعية والاقتصادية.

الفصل الثاني:

تحدثت فيه عن الحكم الوطني في جبل نابلس.. فتناولت حكام جبل نابلس في القرن الثامن عشر والتاسع عشر، وسياستهم الداخلية والخارجية، وعلاقتهم بالولاة العثمانيين، ووقوفهم في وجه الطامعين، ثم تحدثت عن ثمار الحكم الوطني التي استفاد منها أبناء الجبل.

الفصل الثالث:

تحدثت فيه عن الإمارة في جبل نابلس، ومظاهر هذه الإمارة، وتقاليد الأمراء وصفاتهم النبيلة، ثم تحدثت عن مكانتهم الشعبية.

الفصل الرابع:

تحدثت فيه عن مشيخة جبل نابلس في تلك الفترة.. وخصصت الكلام في هذا الفصل عن شيخ الجبل، وعن قلعة الجبل وشيوخها.

الفصل الخامس:

تناولت فيه دور جبل نابلس في مواجهة الحملة الفرنسية، واستعداد الجبل لقتال الأعداء، وتقديم النجدة لعكا ويافا.. كما تحدثت عن المعارك التي خاضها

أبناء الجبل ضد الغزاة في عزون وقاقون ومرج ابن عامر، ثم تحدثت عن هزيمة نابليون ورحيله عن فلسطين.

وفي ختام هذه المقدمة فإني أتقدم بالشكر والثناء إلى كل من ساهم برأي أو قدم معلومة ساعدت في انجاز هذا الكتاب.. كما أقدم شكري سلفاً لكل من يضيف أو يصحح معلومة بعد صدور الكتاب.. والحمد لله رب العالمين.

المؤلف

نبذة تاريخية:

دخل جبل نابلس في حوزة المسلمين على أثر الفتوحات الإسلامية لبلاد الشام، وكان سكانه خليطاً من النصارى العرب والسامريين وبقايا الرومان واليونان، وكان العداء مستحكماً بينهم، فوضع المسلمون في نابلس حامية بسيطة، وسكنت جمهرة العشائر العربية المسلمة في قرى ومدن جبل نابلس الكثيرة، فنزلت لخم وقبائل من كنانة ما حول الرملة ثم إلى نابلس، ونزل فخذ من "جذام " مما يلي طبرية إلى اللجون واليامون وإلى ناحية عكا، وفي مسالك الأبصار أن بنابلس من بلاد الشام بقية من مضر، وفي صبح الأعشى إن من بكر أقواما بجنين وبلادها، وأن جماعة في بني عدي بجوار جماعين، وما زالت أسماء بعض البقاع والأمكنة في هذه الديار تحمل أسماء القبائل العربية التي نزلتها، كوادي الحوارث نسبة إلى بني حارثة، وغور المساعيد نسبة إلى المساعيد، ومرج ابن عامر نسبة إلى ابن عامر.. وغيرها كثير[1].

وظهرت في قرى ومدن جبل نابلس مراكز علمية مزدهرة، وبقيت هذه المراكز الإسلامية تؤدي دورها العلمي والحضاري حتى دخل الصليبيون جبل نابلس فعاملوا السكان بقسوة واضطروهم على الجلاء إلى مصر ومدن الشام الأخرى، ومن بقي منهم ظل معرضاً للغارات الخارجية والاضطهاد، فقد هجم "بزواش" حاكم دمشق على نابلس وذبح سكانها

([1])الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج2- ق 2، ص 58 .

وحصنها الصليبيون وجعلوها مقراً
لبعض أمرائهم الأقوياء، ولما استولى عليها السلطان صلاح الدين الأيوبي دمرها وهو يستعد لمعركة حطين.. وبعد أن انتصر صلاح الدين في معركة حطين عام 1187م، رأى أن يحيط الإمارات الصليبية التي كانت منتشرة في
أجزاء متفرقة من بلاد الشام بقبائل عربية وإسلامية فتية تهدد أمنها وتعرقل مواصلاتها وتنتزع أطرافها وثغورها، لذا فقد اقطع عدداً من العشائر العربية والتركمانية الأقاليم والنواحي المجاورة لتلك الإمارات الصليبية، فأقام آل شهاب في إقليم المتن في أواسط لبنان، وأنزل آل معين عند منحدرات جبال العلويين لتعيق أي توسع تقوم به إمارة أنطاكية أو إمارة طرابلس. ومنح بعض القبائل التركمانية أجزاء من السهل الساحلي الممتد بين حيفا ويافا.
وأعطى بعض بطون قبيلة هذيل المضرية وقبيلة الأزد القحطانية بعض نواحي الأردن الشرقية، وذلك صداً لكل توسع صليبي تقوم به إمارة الكرك وقلعة الشوبك...

لقد نزلت بطون هذيل في المنطقة الممتدة من قلعة الكرك إلى بلدة الطفيلة، ونزل " الشقران " ـ وهم بطن من الأزد ـ في منطقة اليرموك وبصرى الشام، وفي أواخر القرن الثالث عشر الميلادي منح السلطان الظاهر بيبرس شيخ الشقران " قلعة القسطل"، وكانت بقايا قلعة قديمة فحصنها واتخذها قاعدة له.. وقد برهنت الأحداث التي تعاقبت في بلاد الشام طيلة القرن الثالث عشر الميلادي على حكمة صلاح الدين وبعد نظره.

وبعد موت صلاح الدين بنصف قرن استولى الصليبيون على نابلس مرة أخرى وأحرقوها وقتلوا جميع من فيها من المسلمين، وبقيت أحوال جبل نابلس مضطربة، تتعرض لهجمات الصليبين والتتار، إلى أن قام الظاهر بيبرس بهزيمتهم وتخليص البلاد من شرهم، وتوافدت الأسر والعشائر العربية واستوطنت جبل نابلس جميعه.

وبعد الظاهر بيبرس جاء الناصر قلاوون في أواخر القرن السابع

الهجري وقام بتقسيم أراضي جبل نابلس - من مدن وقرى - بين هذه الأسر والعشائر، وأسكنهم فيها حسب قبائلهم وعشائرهم ونصب عليهم شيوخاً منهم، وأصبحت الأكثرية الساحقة في جبل نابلس عربية إسلامية، وكانوا جميعهم من العشائر القوية، وفيهم أسر الإمارة والمشيخة المطاعة[1].

وبقيت هذه الأسر والعشائر تحكم جبل نابلس خلال الحكم العثماني بأمر من والي الشام أو بفرمان من الخليفة نفسه، وترابط في هذا الجبل للدفاع عن أرض الإسلام، ومنذئذ ظهرت شخصية جبل نابلس وأصبح قوة لا يستهان بها، وتولدت فيه نهضة علمية نبغ فيها عدد من مشاهير العلماء والأمراء.

ظل أمر جبل نابلس مستقراً حتى زحف نابليون من مصر إلى فلسطين قاصداً احتلال بلاد الشام كلها، وذلك على رأس جيش بلغ عدده خمسة عشر ألف محارب، فاستولى على العريش وغزة ويافا واتجه نحو عكا.

وشعر أحمد باشا الجزار - والي عكا - بخطورة الموقف، وأنه لا يستطيع أن يقابل جيش نابليون بمفرده، فأرسل إلى شيخ جبل نابلس - في ذلك الوقت - الشيخ يوسف الجرار، قصيدة يستنجده فيها ويهيب بشيخ الجبل للإسراع في إمداده بالرجال والعتاد لدحر الفرنسيين الذين جاءوا لهدم الدين واحتلال بلاد المسلمين..

وهب الشيخ يوسف الجرار يستنهض الهمم ويحث أمراء الجبل وشيوخه للاستعداد لنجدة الجزار ومقاومة الفرنسيين وردهم عن البلاد، فخرج الفرسان من كل ناحية من نواحي الجبل يقودهم مشايخ قبائلهم من آل جرار وآل طوقان وآل النمر وآل الجيوسي وآل الحاج محمد والقاسم والبرقاوي وعبد الهادي والعطعوط والجرادات وغيرهم، وهاجموا الفرنسيين في مرج ابن عامر، وقاتلوهم في قاقون، وأحرقوا ميمنة جيشهم في عزون، وتصدوا لهم في أماكن كثيرة من جبل نابلس.

([1]) جرار، عبد الهادي: تاريخ ما أهمله التاريخ، ص 51، 79، 80.

وأصيب نابليون بخيبة أمل كبيرة لما لحق بجيشه من خوف واضطراب، مما دفع بالقائد كليبر إلى إرسال أحد ضباطه وهو "دوماس" على رأس جيش ومدفعية لتأديب جبل نابلس وإحراق قلعة صانور التي يتمركز فيها الشيخ يوسف الجرار، ولكن هذه المهمة باءت بالفشل عندما تصدّى له أحد القناصة العرب ـ وهو عايد مريحة الشبيطي ـ فأرداه قتيلاً، وانسحب الفرنسيون مخذولين، وأصبح جبل نابلس منذ ذلك الوقت يسمى بـ" جبل النار" [1].

وقد تأكدت هذه التسمية عندما احتلت بريطانيا فلسطين، فانطلق الثوار يعتصمون بهذا الجبل الأبي ويكيلون للعدو ضربات قاصمة.. مما جعل بريطانيا تضيف إلى هذا الجبل تسمية جديدة فسمته بـ" مثلث الرعب" نسبة إلى مدنه الثلاث "نابلس وجنين وطولكرم". . وما اعتصام الشيخ عز الدين القسام بأحراش يعبد، واعتصام الشيخ فرحان السعدي بجبل المزار، واعتصام القائد عبد الرحيم الحاج محمد بجبال صانور، وغيرهم.. إلا دليلاً على أن هذا الجبل أصبح ناراً
تنصب على كل معتد يحاول أن يسيطر على فلسطين وينهب أرضها.

المفهوم الجغرافي لجبل نابلس في العهد العثماني:

تلفظ نابُلس بضم الباء واللام، والسين مهملة[2].. وتقع الديار النابلسية وسط فلسطين بين خطي عرض 32، 33 شمال خط الاستواء.. وعرضها من البحر المتوسط إلى نهر الأردن حوالي 72 كم، وأكبر طول لها من الشمال إلى الجنوب من حدود قضاء الناصرة إلى حدود قضاء رام الله 86كم[3].

كانت نابلس في العهد العثماني سنجقاً.. يحدها من الشمال قضاء

([1]) النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس و البلقاء، ج 1، ص 209 -213، وجرار، وليد صادق: شاعران من جبل النار، ص 18-20.

([2])الحموي، ياقوت: معجم البلدان، م 5، ص 248.

([3])الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج2 – ق2، ص 17 .

طبريا وقضاء الناصرة من سنجق عكا، ومن الغرب البحر المتوسط، ومن الجنوب سنجق القدس وسنجق يافا، ومن الشرق نهر الأردن.

وكانت حدود نابلس تمتد أحيانا إلى ما وراء النهر شاملة قضاء البلقاء والكرك ومعان، وقد فصل قضاء البلقاء عن لواء نابلس سنة 1303هـ/1885م[1].

وهذا ما بينته سالنامة 1318هـ/1900م إذ أوضحت حدود نابلس بقولها:

" يقع سنجق نابلس في أقصى ولاية بيروت، ويحده شمالاً سنجق عكا، وشرقاً سنجق حوران ومعان، وجنوباً سنجق القدس، وغرباً البحر المتوسط" [2].

أقسام بلاد نابلس الطبيعية: تقع الديار النابلسية في منتصف البلاد وتمتد من الساحل إلى الغور وتشتمل على مناطق من السهل الساحلي، والجبال والغور.

أولاً: السهل الساحلي: وهو قسم من الساحل الفلسطيني، ويعرف أيضا باسم "سهول طولكرم" ويمتد على الساحل لمسافة 23كم، ويبدأ من "الخضيرة" شمالاً إلى "أرسوف" جنوباً، وتروي هذا السهل أنهار صغيرة ووديان شتوية، وأهم الأنهار المغجر ونهر الإسكندرية ونهر الفالق.

ثانياً: الجبال: تمتد جبال الديار النابلسية من جنوب مرج ابن عامر في الشمال وتنتهي بجبال القدس في الجنوب، التي تتصل معها اتصالاً مباشراً وليس من حدود طبيعية تفصلها.. وأهم جبال نابلس:

"جبل عيبال" وقمته أعلى قمم جبال نابلس وترتفع 940م عن سطح البحر، و"جبل جرزيم" ويدعى أيضا جبل الطور، ومن الجبال المرتفعة والمشهورة جبل

([1]) غرايبة، عبد الكريم: سورية في القرن التاسع عشر، ص 234 .

([2]) سالنامة ولاية بيروت، 1318هـ/1900م، ص 218-236.

"احْريش" بجوار صانور وهو أهم قمم قضاء جنين، وكان لموقعه الحصين دور كبير في حرب إبراهيم باشا عندما غزا جبل نابلس وحاصر قلعة صانور، فكانت الإمدادات تأتي للقلعة عن طريق هذا الجبل، كما كان معقلاً رئيسياً للثوار خلال الثورة الكبرى في فلسطين عام 36-1939م.

و"جبال فقوعة والمزار" التي كانت معقل المجاهد الكبير الشيخ فرحان السعدي، وهي تشكل الجزء الشمالي الشرقي من جبال نابلس، "وجبال يعبد" التي حدثت فيها معركة يعبد المشهورة، وهناك مرتفعات شمال قرية "جالود" وبين قريتي "قصرى" و"تلفيت" ومرتفعات بين قريتي "قبلان" و"جوريش" في قضاء نابلس.

ويتخلل جبال نابلس بعض السهول منها: سهل عرابة، وسهل قباطية، وسهل صانور "مرج صانور" وهو محاط بالجبال وتملؤه مياه الأمطار إبان فصل الشتاء فيصبح بحيرة، وسهل بورين، وسهل سالم، وسهل عسكر[1].

ثالثاً: الغور: يمتد غور نابلس من جسر المجامع إلى حدود قضاء القدس جنوباً.. وينحدر من سفوح جبال نابلس الشرقية إلى نهر الأردن الوديان التالية:

وادي شوباش، ووادي الملح، ووادي دورا ، ووادي الفارعة وتجري فيه المياه طيلة أيام السنة، وتصب مياهه في نهر الأردن بعد أن تتجمع من عدة عيون أهمها عين الفارعة وعيون الباذان.

ويمتاز جبل نابلس باعتدال هوائه وغزارة مياهه وكثرة عيونه وأشجاره، وخصوبة أرضه..

ومدينة نابلس هي حاضرة هذا الجبل ومركزه، وهي تقع بين جبلي عيبال وجرزيم وعلى سفوح الجبلين، وتعد نابلس من أغنى المدن الفلسطينية بينابيعها،

ففيها ينابيع كثيرة أهمها:

([1])الراميني، أكرم: نابلس في القرن التاسع عشر، ص 13 -14.

رأس العين، عين العسل، عين اللوز، عين دفنة، عين بيت الماء، عين حسين، عين الفؤاد، عين القصب، عين الشريش، عين الصبيان، وكانت هذه العيون جميعها تقوم بإدارة الطواحين المائية، التي كانت تقام عليها المصانع والمطاحن إلى عهد قريب[1].

الفصل الاول
الأحوال العامة لجبل نابلس

- الأحوال الإدارية

• تبعية نابلس الإدارية

([1])جرار، وليد صادق: شاعران من جبل النار، ص 17.

- التنظيم الإداري في نابلس
- نواحي جبل نابلس والتنظيم الإداري فيها:
  - قضاء نابلس
  - قضاء جنين
  - قضاء طولكرم
- خرائط نواحي جبل نابلس

- الأحوال الثقافية والاجتماعية:
  - التعليم
  - المجتمع النابلسي
- الأحوال الاقتصادية:
  - ملكية الأرض في الدولة العثمانية
  - الإقطاع في جبل نابلس
  - الضرائب والرسوم
  - الزراعة والصناعة والتجارة

الأحوال الإدارية

تبعية نابلس الإدارية:

قسمت الدولة العثمانية منذ أيام السلطان سليم الاول { 1512-1520م} بلاد الشام إلى ثلاث " ايالات " أو " ولايات " هي: حلب ودمشق وطرابلس الشام، واحدث العثمانيون ولاية رابعة هي ولاية صيدا1660م، واستمر هذا التقسيم قائما حتى أوائل القرن التاسع عشر، وفي خلال الحكم المصري للديار الشامية 1831-1840م،

استبدلت كلمة ولاية وحلت محلها كلمة مديرية[1]، وبعد خروج المصريين نقلت الدولة مركز ولاية صيدا من عكا إلى بيروت، ثم غيرت اسم الولاية بعد دمج طرابلس وصيدا، فأصبح اسمها "ولاية بيروت".

وكانت نابلس أيام الحكم العثماني سنجقاً، والسنجق كلمة تركية يقابلها
"اللواء" بالعربية أو "العلم"، وقد تأتي السنجق بمعنى الرمح إذ كانت الراية تعقد عليه، وهذه الكلمة ذات مدلول عسكري ومدني، فالقوات الإقطاعية كانت تدعى للحرب حين تتجمع حول اللواء، ولذلك "فالسنجقدار" هو الذي يحمل السنجق وراء السلطان[2]، أما المدلول المدني فهو أن حاكم السنجق كان يقوم بأعمال في وقت السلم يمكن اعتبارها مدنية، ومن هنا اتسع المعنى الأصلي فأصبحت كلمتا سنجق أو لواء تستعملان للإشارة إلى البلاد الخاضعة للدولة العثمانية، وكان السّنجق أو اللواء قبل فتح القسطنطينية 1453م أكبر الأقسام الإدارية التي انقسمت إليها أملاك السلطان، إلا أنه أصبح فيما بعد أكبر وحدات الولاية[3].

ودعي حاكم نابلس "بالمتسلم" كما كانت تنص مراسيم السلطان والولاة الموجهة إلى حكام نابلس.

تقلبت نابلس في تبعيتها خلال القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر بين الشام وصيدا وبيروت، كما خضعت فترة من الزمن للحكم المصري بين
1831-1840م. وفي مطلع القرن التاسع عشر كانت جزءاً من ولاية الشام إلا أنها تبعت ولاة صيدا بصفتهم ولاة على صيدا والشام، مثل

([1])رستم، أسد: لبنان في عهد المتصرفية، ص 89.

([2])المعلوف، عيسى اسكندر: تاريخ فخر الدين المعني الثاني، ص 54.

([3])الراميني، أكرم: نابلس في القرن التاسع عشر، ص 20.. عن خليل الساحلي: ميزانيات الشام في القرن السادس عشر، ص 3.

أحمد باشا الجزار الذي ولي الشام في أواخر عام 1789م، ثم وليها مرة أخرى عام 1803م[1].

وبعد وفاة الجزار سنة 1804م انتقلت تبعية نابلس من صيدا إلى الشام وأرسل السلطان العثماني إلى الشيخ يوسف الجرار مرسوماً تضمن ضبط البلاد وعدم الالتفاف لناحية إسماعيل باشا الذي خلف الجزار في صيدا " واعتمد العصاوة وجمع عساكر كثيرة"، ورفض تسليمها إلى إبراهيم باشا والي الشام، الذي أضيفت إليه ولاية صيدا عام 1804م، وقام يوسف الجرار بالسفر إلى الشام لمقابلة الوالي المذكور، وطلب الباشا من يوسف الجرار أن يجمع قوة عسكرية لمحاربة إسماعيل باشا، وقاد الوالي إبراهيم باشا جيشاً لحصار إسماعيل باشا في عكا، ثم أدركه وقت الحج، فعهد إلى سليمان باشا بالمهمة [2].

وبعد ذلك تنقلت تبعية نابلس بين ولاية الشام وصيدا حتى قام إبراهيم باشا المصري بحملته على الشام سنة 1831م، ودخلت نابلس في عهد جديد من الحكم والتبعية، واستمر الحكم المصري قرابة تسع سنوات حيث انتهى الوجود المصري من الشام سنة 1840م، وعادت نابلس سنجقاً عثمانياً تابعاً إلى ولاية الشام سنة 1841م[3].

ومع أن متسلمية نابلس كانت قد تقلبت في تبعيتها بين ولاية الشام وصيدا وبيروت إلا أنه كان لها قدر كبير من الإستقلال الإداري، فكان الولاة يعينون الحكام من أبناء جبل نابلس، من آل الشافعي وآل النمر، ثم من آل جرار وآل طوقان، وأخيرا من آل القاسم وآل عبد الهادي، وقد اكتسب هؤلاء الحكام خبرة في الإدارة وحنكة جعلت التعويل عليهم أمرا لازماً، وقد ألف الشعب حكمهم حتى بات يسندهم بإخلاص ضد الغرباء، فاكتسب جبل نابلس في هذا العهد قوته النفسية وشخصيته حتى بلغت شهرته أرجاء الدولة العثمانية.

([1]) الشهابي، الأمير حيدر: تاريخ احمد باشا الجزار، ص 37، 87، 100.

([2])الدمشقي: تاريخ حوادث الشام ولبنان، ص 583.

([3]) غرايبة، عبد الكريم: سورية في القرن التاسع عشر، ص 232.

وكان أمراء نابلس يخفّضون الضرائب عن البلاد بدلاً من زيادتها، وكان المتسلمون النابلسيون جميعاً يرفضون ما يطلبه الولاة من الضرائب الإضافية مراراً.

وكان آل النمر يحرصون على وحدة جبل نابلس فكان أصهارهم آل الشافعي يحكمون لواء اللجون " جنين"، وبعد أن ضعفت شخصية آل الشافعي صاروا يؤثرون آل جرار بمتسلميه نابلس لا لأن جرار حليفهم فحسب بل لضمان وحدة الشمال والجنوب لأن جرار كان حاكماً لجنين.. وفي زمن يوسف الجرار توحد جبل نابلس وأصبح الشيخ يوسف متسلماً لنابلس وجنين[1].

التنظيم الإداري في نابلس:

قسم العثمانيون الممالك التابعة لهم إلى ولايات، وسناجق أو ألوية، وضم اللواء عدة أقضية، وتكون القضاء من نواح وشملت الناحية القرى والمزارع.

عينت الدولة على الولاية حاكماً دعي بالوالي ولقب بالباشا، وحمل رتبة الوزارة ومهمته الإدارة العليا للولاية، وعينت على السنجق أو اللواء حاكماً دعي سنجق بك " مير لواء " أي أمير اللواء، واعتبر حاكم اللواء ممثل الوالي في لوائه.. وقد سار التنظيم الإداري في نابلس على النحو التالي:

أولاً – المتسلم:

المتسلم هو حاكم عام للّواء يقوم بتعيينه والي السلطان أو السلطان نفسه.

وقد أوضح ذلك صاحب كتاب " حسر اللثام عن نكبات الشام " في معرض وصفه لحكومة الشام قبل سنة 1277هـ،1860م، فقال:

إن كل إيالة قسمت إلى أقسام كل قسم منها عبارة عن مدينة ونواحيها وسميت هذه الأقسام متسلميات ولكل قسم حاكم يدعى بالمتسلم يعينه الباب العالي رأساً أو والي الولاية، ومرجع أموره في متسلميتة إلى

([1]) النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس والبلقاء ج2، ص 528، 529.

والي الولاية التابع لها.

ولا شك أن تقلّب نابلس في تبعيتها الإدارية أثّر على مركز المستلم عزلاً أو تثبيتاً.. فأحمد باشا الجزار عندما ضمت إليه سنجقية نابلس نصب أحمد بك طوقان متسلماً على نابلس سنة 1798م، ولما حصل إبراهيم باشا والي الشام على سنجقية نابلس قام بتثبيت المتسلم الشيخ يوسف الجرار سنة 1801م[1]، وكذلك عندما انتقلت هذه التبعية إلى عبد الله باشا العظم والي صيدا عزل موسى بك طوقان وعين الشيخ أحمد الجرار وكيلاً بالمتسلمية سنة 1219هـ /1804م.

وبدا أن بقاء المتسلم في منصبه خاضع لمزاج الوالي، فقد يعزله وقد يعيده مرة أخرى كما حصل لموسى بك طوقان المذكور حيث عزله عبد الله باشا العظم سنة 1804م ثم أعاده في نفس السنة، ثم عهد بالمتسلمية سنة 1805م للشيخ يوسف الجرار.

وإذا أراد الوالي عزل المتسلم من منصبه شرح أسباب ذلك، فقد ذكر عبد الله باشا العظم في مرسوه إلى أحمد الجرار أنه عزل موسى بك طوقان " لأطواره المنافية لرضا الله تعالى ورضا الوالي وعدم استقامته على النهج برويه الخدمات العايدة لطريق الحج الشريف واضمحلال الرعيّة في مدة متسلميته"، وأشار في مكان أخر إلى أن موسى طوقان سلب راحة الفقراء ولذا عزله صوناً للأهالي[2]، وما جاء في مرسوم الصدر الأعظم حول عزل أحمد بك طوقان سنة 1799م وتعيين ابن أخيه خليل بك طوقان يعبر بصورة أوضح من أنّ " الدولة تحسن لمن يكون صادقاً بخدمة الدين والدولة ولمن يبقى في الطاعة فيستحق الإحسان والامتنان " وأضاف المرسوم نفسه مخاطباً خليل بك طوقان قائلاً: " إن عمك أحمد المتسلم تهاون وتكاسل وما رعى حق نعمة الدولة فعزل عن المتسلمية وقد نصبتك الدولة العلية بموجب فرمان السلطان أن تكون متسلماً على سنجق

([1])الراميني، أكرم: نابلس في القرن التاسع عشر، ص 27.. عن الدمشقي: تاريخ حوادث الشام ولبنان المشرق عدد 15، ص 583.

([2]) الراميني، أكرم نابلس في..، ص 28.. عن سجل المحكمة الشرعية بنابلس (6)،ص 338.

نابلس"، على أنه ليس شرطاً أن يذكر الوالي في كل مرة سبب العزل، فقد عزل عبد الله باشا الخزندار مصطفى بك طوقان وعين الشيخ عبد الله اليوسف الجرار سنة 1830م، ومما جاء في مرسوم العزل: " أنه بحسب الاقتضاء فكّينا متسلمية نابلس من عهدة مصطفى بك طوقان وجعلناها لعهدة الشيخ عبد الله اليوسف الجرار[1].

وإذا عزل الوالي المتسلم أو سافر إلى خارج بلاد أو شغرت المتسلمية بموت الحاكم عين الوالي وكيلاً عنه إلى حين وصول المتسلم الجديد، وربما كان المتسلم يعين وكيلاً عنه ويرسل الوالي بموافقته عن هذا الإجراء، كما حدث عندما قام الشيخ يوسف الجرار متسلم نابلس بتعيين صالح أغا النمر وكيلاً عنه في المتسلمية، ولما شغرت متسلمية نابلس بعزل عبد الله الجرار سنة 1830م، عين الوالي أحمد أغا النمر وكيلاً لحين وصول مصطفى بك طوقان إلى مقر المتسلمية[2].

شروط تعيين المتسلم: ذكرت المراسم شروط تعيين المتسلم، فقد تبين من المرسوم الصادر من إبراهيم باشا والي الشام إلى الشيخ يوسف الجرار متسلم نابلس سنة 1805م إن توليته كانت بسبب "مداراته للرعايا ومعرفته ودرايته وتجريب أطواره في راحة الرّعايا وحمايته الأعراض وحراسة أبناء السبيل[3]، وعيّن محمد عبد الهادي محصلاً بسنجق نابلس سنة 1841م لأنه " ذو لياقة واستعداد " وكان تعيين سليمان بك طوقان متسلماً على نابلس سنة 1842-1846م " لحسن تعهد البيك بالصداقة " والاستقامة وتحصيل البقايا والأموال الميرية والسعي لإزالة الفتن

([1]) الراميني، أكرم: نابلس في..، ص 28.. عن سجل المحكمة الشرعية بنابلس (9) ص 339.

([2])الراميني، أكرم: نابلس في..، ص 29.. عن سجل المحكمة الشرعية بنابلس (8) ص 263.

([3]) الراميني، أكرم: نابلس في..، ص 29.. عن سجل المحكمة الشرعية بنابلس (6) ص 337 .

والمنازعات" [1].

واجبات المتسلم ومهامه: واجبات المتسلم ومهماته حين توليه الحكم هي:

- حفظ البلد وراحة الرعايا والفقراء وصيانة ذوي الأعراض والطرقات وأبناء السبيل.
- تحصيل الأموال الأميرية وتوريدها لطرف خزينة الوالي.
- رفع المظالم وإزالة البغي والشقاوة ومنع أهل البدع.

وبعد أن يبينّ الوالي للمتسلم ما هو المطلوب منه، يوجه له النصائح والمحاذير، فينصحه بحسن السيرة والهدوء هو والسكان، ويحذره من التعدي والظلم وارتكاب الأمور التي تخالف رضاء الله تعالى ورسوله ورضاء الوالي، وأوصت المراسيم المتسلمين بأن تكون كافة أمورهم حسب الشريعة، ودعتهم إلى حسن السيرة مع الوجوه والأهالي وأعيان البلاد.. ولا ينسى الوالي أن يخاطب السكان مطالباً إياهم بالطاعة للحاكم الجديد".. تعرفوه متسلماً منصوباً من طرفنا

ويكون فيما بينكم مرفوع المقام مسموع الكلام مطاعاً في الأحكام" [2].

ثانياً – النائب الشرعي:

كان شيخ الإسلام، الذي هو مفتي استانبول يشرف على النظام القضائي كله، وكان يليه في الرتبة " قاضي عسكر الروملي " و(قاضي عسكر الأناضول"، أما بلاد الشام فقد ارتبطت قضائياً بقاضي عسكر الأناضول، وكان في نابلس نائب شرعي لقاضي القدس، حيث أن نابلس كانت تتبع القدس قضائياً إلى سنة 1866م وبعدها أصبح تعيين النائب في نابلس يتم من قبل قاضي عسكر الأناضول مباشرة، وكانت مدة النيابة قصيرة، شأنها في ذلك شأن المتسلمين، فغالبية النواب لم تزد نيابتهم عن سنتين، ومنهم من لم يكمل السنة، وكان غالبية النواب من

([1]) الراميني، أكرم: نابلس في..، ص 29.. عن سجل المحكمة الشرعية بنابلس (10) ص 337 .

([2])الراميني، أكرم: نابلس في..، ص 29.. عن سجلات المحكمة الشرعية بنابلس (10) ص 348، (7)،ص 354 .

أهالي نابلس، فقد تكرر ذكر أسماء البسطامي والخالدي وخماش والتميمي والجوهري والقطب، وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر عينت الدولة نواباً أتراك على نابلس.

واشترط في تعيين النائب أن يكون من أهل الدين والاستقامة، وحددت مهمته في فصل الأحكام المتعلقة بقضايا البيع والشراء والعقود، والنظر في القضايا الجنائية والحقوقية والجزائية، ومن مهماته كذلك ختم الصكوك الشرعية ونصب الأوصياء على القاصرين، وتعيين النظار على الأوقاف في نابلس ونواحيها، وضبط التركات.

وكان النائب يتمتع بمنزلة رفيعة مستمدة من أهمية ومكانة الإسلام في تلك الفترة، كما أن المحكمة الشرعية كانت مستقلة وليس للمتسلم أية سلطة عليها وكان المتسلم يحضر بنفسه إلى المحكمة الشرعية إذا دعي إليها[1].

ثالثاً – المفتي:

كان مفتي استانبول في عهد السلطان سليمان القانوني يلقب بشيخ الإسلام، وكان يقوم بتعيين علماء في المدن المختلفة مهمتهم إعطاء الرأي في القضايا وتقدير مطابقتها للشريعة الإسلامية، ودعي الواحد من هؤلاء بالمفتي، وكان تعيين المفتي من صلاحيات شيخ الإسلام، واشترط فيمن ولي وظيفة الإفتاء أن يكون من أهل الفضل والديانة والأهلية لهذا المنصب، وكان المفتي يظل في منصبه إلى وفاته، وتبين مراسيم تعيين المفتين بنابلس أنهم كانوا من بيوت العلم فيها، ومن أسماء المفتين التي وردت في سجلات المحكمة الشرعية بنابلس:

عبد الغني الجوهري عام 1808م، وإبراهيم الجوهري 1811م، واحمد أفندي الخماش 1837م، واحمد أبو الهدى الخماش 1839م[2].

رابعاً ـ قيمقام نقيب الإشراف:

([1])الراميني، أكرم: نابلس في القرن التاسع عشر، ص 33-34.. عن سجلات المحكمة الشرعية بنابلس، سجل (15) ص 47، وسجل (8) ص 381.

([2])الراميني، أكرم نابلس في..، ص 41-42.. عن سجل المحكمة الشرعية بنابلس (6) ص 313.

النقيب لغة هو عريف القوم والجمع نقباء، وهو شاهد القوم وضمينهم [1].

وكان الأشراف هم رؤساء القبائل ذات الشأن وبيدهم تدبير شؤون القبيلة، وأطلقت كلمة شريف على ذي المكانة والجاه في مقابل الضعيف والوضيع من الناحية الاجتماعية.

وفي القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي كان لقب الشريف يطلق على أبناء العباس وأبناء أبي طالب، وفي العصر العباسي كان الأشراف من عباسيين وطالبيين يعينون نقيباً عليهم من بينهم، وقد أحيى العثمانيون منصب نقيب الأشراف حين عين السلطان بايزيد الثاني عام 1481م النقيب العام في استانبول، وقام النقيب العام بتعيين نقباء في المدن المختلفة، ومن العائلات التي ورد ذكرها في سجلات المحكمة الشرعية واعتبرت من الأشراف: الجعفري " الحنبلي " والتميمي وتفاحة والقطب والبسطامي [2].

نواحي جبل نابلس والتنظيم الإداري فيها:

كان جبل نابلس في العهد العثماني يقسم إلى لوائين: لواء نابلس ومركزه مدينة نابلس، ولواء اللجون ومركزه مدينة جنين، أما التقسيمات الإدارية لجبل نابلس

فقد وردت على ثلاثة أحوال:

الاول: ورد في كتاب إحسان النمر " تاريخ جبل نابلس والبلقاء" [3].. أن جبل نابلس كان يقسم إلى سبع نواح وهي:

1. الجبل القبلي لمدينة نابلس " الطور وجرزيم". . وألحقت به المشاريق، وعرف فيما بعد بجورة عمرة ومشاريق البيتاوي.
2. الجبل الشامي.. وهو الجبل الشمالي لمدينة نابلس " جبل عيبال "

([1])ابن منظور: لسان العرب، م 1، ص 769.

([2]) الراميني، أكرم: نابلس في... ص 45.. عن سجل المحكمة الشرعية بنابلس (8) ص 275، وسجل (9)ص 95.

([3]) النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس والبلقاء، ج 1 ص 183-184.

ويعرف بمشاريق الجرار، وتمتد هذه الناحية من نابلس إلى جنين شمالاً وجنوباً، وحتى نهر الأردن شرقاً.

3. بلاد بني صعب.. وهي القسم الغربي من بلاد نابلس.
4. بلاد حارثة.. وهي القسم الشمالي من جبل نابلس، وكانت تعرف بلواء اللجون.
5. الشعراويات.. وهي القسم الجنوبي من لواء اللجون " جنين".
6. جماعين.. وهي القسم الجنوبي من جبل نابلس.
7. وادي الشعير.. وهو الوادي الأوسط من جبل نابلس، وهو غربي وفيه آل سيف والبرقاوي، وشرقي وفيه الحفاة، وأوسط وفيه العطاعطة ثم آل عمر والجيتاوية[1].

الثاني: ورد في كتاب أكرم الراميني " نابلس في القرن التاسع عشر " أن سنجق نابلس ضم في مطلع القرن التاسع عشر سبع نواح هي:

جماعين، بني صعب، الشعراوية الغربية، والشعراوية الشرقية، وادي الشعير، عقربا، وبيتا..

وأما جنين الواقعة شمال نابلس وعلى بعد 40 كم، فكانت في تلك الفترة سنجقاً مستقلاً وعليه متسلم خاص.. وكان يطلق عليها في القرون السابقة " سنجق اللجون " واستمرت كذلك حتى أوائل القرن التاسع عشر، ثم ضمت جنين إلى نابلس، وأصبح متسلم نابلس حاكماً على المنطقتين.. واستمر وجود

هذه النواحي في العهد المصري مع إحداث بعض التغييرات في بعض الأماكن فمثلاً اختفى ذكر ناحية عقربا، وحل بدلاً منها " مشاريق البيتاوي"، وانقسم وادي الشعير إلى غربي وشرقي، كما انقسمت ناحية جماعين إلى أول وثاني" [2].

([1])الراميني، أكرم: نابلس في القرن التاسع عشر، ص 51.

([2]) الراميني، أكرم: نابلس في القرن التاسع عشر، ص 51.. عن سجلات المحكمة الشرعية بنابلس، سجل (8) ص 370،407، وسجل 6ص 330،357،وسجل 7 ص 375.

وامتد لواء نابلس في فترة من الفترات شرقي نهر الأردن، ففي سنة 1284هـ/1867م ضم إليه قضاء البلقاء ومركزها السلط[1]، واتخذت نابلس اسم لواء نابلس والبلقاء، وفي سنة 1297هـ/1879م الحق بها قضاء الكرك ومعان بعد فصلهما عن القدس، ثم فصلت البلقاء عن نابلس سنة 1030هـ/1885م[2]، في حين استمرت تبعية الكرك ومعان لها إلى 1311هـ/1893م، وذكر بيك باشا أنه في سنة 1268هـ/1851م ألحقت الدولة العثمانية " سنجق عجلون " بنابلس[3].

الثالث: ورد في كتاب مصطفى مراد الدباغ " بلادنا فلسطين " الجزء الثاني ـ القسم الثاني، إن التقسيمات الإدارية لجبل نابلس هي:

قضاء نابلس، وقضاء جنين، وقضاء طولكرم.. وكل قضاء منها ينقسم إلى مجموعة نواحي، وهذا احدث تقسيم إداري لجبل نابلس[4].

قضاء نابلس: ويضم مدينة نابلس والمجاميع الآتية:

1- مجموعة مشاريق البيتاوي، وعددها "31" قرية.. شيوخها " آل الحاج محمد " وعاصمتهم " بيتا"، ولما كانت هذه القرى تقع بوجه عام شرقي نابلس

دعيت مشاريق البيتاوي، وعائلة " الحاج محمد " تنتمي إلى " قضاة الخريشة " من

بين صخر، نزلوا قرية بيتا في أواسط القرن الثاني عشر الهجري، وظهر منهم

الشيخ محمد ولمع نجمه وساد على المنطقة التي عرفت باسم " مشاريق البيتاوي " ثم نزل أولاده وأحفاده بيت فوريك وجوريش وبيت دجن وقصرى

([1])الماضي، منيب والموسى سليمان: تاريخ الأردن في القرن العشرين، ص 7.

([2]) غرايبة، عبد الكريم: سورية في القرن التاسع عشر، ص 91.

([3])بيك، فردريك: تاريخ شرق الأردن وقبائلها، ص 181.

([4])الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج2 –ق2، ص 73-75.

وقريوت".

ومن عائلة " الحاج محمد " احمد الجابر " الجبر " شيخ مشاريق البيتاوي الذي عرف في حرب نابليون، ومنهم عائلة منصور الذين بقوا في بيتا، ثم نزلوا جالود والمغير، وعرف منهم " ناصر المنصور " الذي كانت جالود مركزاً لمشيخته، وهو أحد قواد ثورة البلاد في سنة 1834م ضد الحكم المصري، فقد كان على رأس ألفي رجل عندما هاجم جند إبراهيم باشا في " شعفات " جوار القدس، وحارب " ناصر " في موقعة دير الغصون وكان من جملة قوادها الذين أصروا على المقاومة، ولما هزموا فروا إلى الخليل ومنها إلى شرق الأردن، واستسلم ناصر لإبراهيم باشا فأرسله إلى عكا ومات فيها.

واشتهر آل الحاج محمد بالكرم والبسالة، واشتهرت نساؤهم بالحجاب الكثيف والحياء والنظافة والإخلاص، فصاهرتهم العشائر الكبيرة في جبل نابلس [1].

2- مجموعة قرى جورة عمرة، وعددها "25" قرية [2].. كانت هذه المجموعة تتبع آل النمر في نابلس، ثم أضيفت إلى شيوخ جماعين من آل القاسم وآل ريان، ومن قرى جورة عمرة البطل الشهيد سعيد سليم البيتاوي الذي ينسب إلى قرية " بيت ايبا" والذي التحق بقيادة " عبد الرحيم الحاج محمد"، واشترك معه في معركة صانور وبلعا.

3- قرى وادي الشعير الشرقي، وعددها "9" [3].. شيوخ هذه المجموعة " الاحفاة " وتلفظ " لحفاة " وهم من قبيلة عتيبة نزلوا في قرية " برقة " ونزل بعضهم في القرى المجاورة لها.

ومن شيوخ هذه المجموعة أيضا " آل سيف " الذين جاءوا من اليمن

([1]) الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج2 – ق2، ص 322، ودروزة، محمد عزة، العرب والعروبة ج5، ص 164- 165.

([2])الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج2 – ق2، ص 335.

([3])الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج2 – ق2، ص 389.

إلى
البلقاء ثم إلى برقة، وهم منتشرون اليوم في ذنابة وقرى أخرى بمنطقة طولكرم.

وينسب إلى قرى هذه المجموعة " حمد الزواتي " احد قواد الفصائل العربية في الثورة ضد الإنجليز، وهو من قرية زواتا.

4- مجموعة مشاريق الجرار، وعددها "24" قرية [1].. وهي القرى التي كان النفوذ فيها لآل جرار، وتقع في الشمال الشرقي من الديار النابلسية، وكثير من سكان هذه المجموعة ينتسبون إلى قبائل عربية مشهورة مثل فزارة وبني خالد.

5- مجموعة قرى الجماعينيات، وعددها "29" [2].. دعيت بهذا الاسم نسبة إلى إحداها " جماعين " وقد سميت " جماعين لكثرة من ظهر فيها وفي جوارها من جماعين للعلم، وقد كان فيها " آل قدامة".

ساد في ناحية جماعين " بنو غازي " وهم من بني حسن في شرق الأردن قدموا اليها سنة 1080هـ، وظهر منهم فرعان بلغا درجة الإمارة وهما آل القاسم وآل ريّان.

واشتهر من جماعين " قاسم الأحمد " كبير شيوخ جماعين، وأحد زعماء جبل نابلس، وقد نزل قرية " بيت وزن " واتخذها مقاماً له، وهي موقع حربي ممتاز. عينه إبراهيم باشا المصري متسلماً على القدس وثبت ابنه محمد متسلماً على نابلس ثم غدر بهما، وقد تولى قاسم الأحمد قيادة الثورة سنة 1834م ضد إبراهيم باشا فحشد رجاله في دير الغصون

([1])الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج2 – ق2،ص425.

([2]) الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج2 – ق2، ص 480،465 ودروزة، محمد عزة: العرب والعروبة..ج5، ص 143-157.

واشتبك الجيشان في قتال عنيف كان فيه النصر لإبراهيم باشا، ففر قاسم الأحمد إلى الخليل فالكرك فالبادية ثم سُلِّم لوالي الشام.

وكانت مشيخة آل القاسم على نصف ناحية جماعين الشرقي، أما النصف

الغربي فكان شيوخه آل ريان، وكان شيخهم " محمد العثمان" ومركزهم " مجدل يابا".

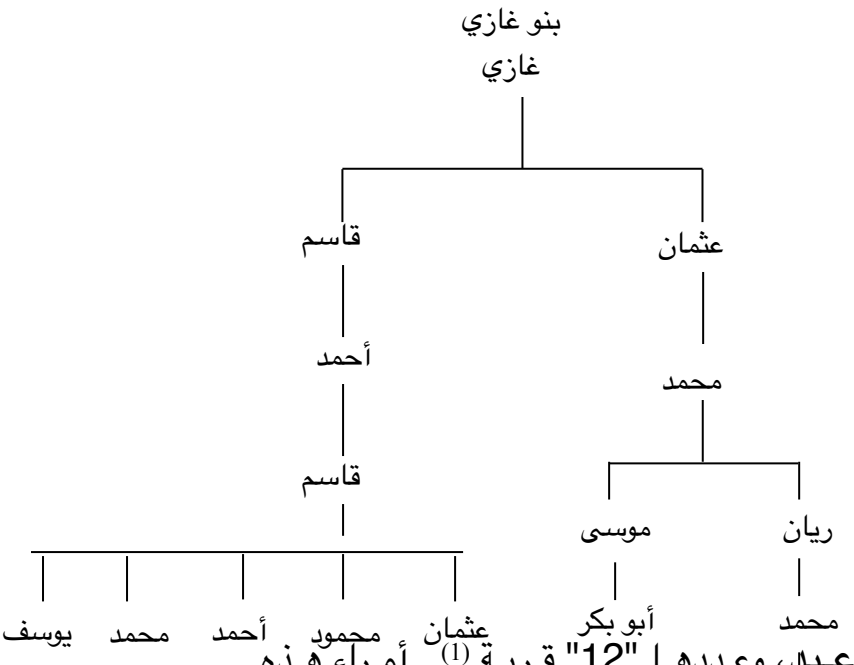

6- مجموعة غور المساعيد، وعددها "12" قرية [1].. أمراء هذه المجموعة هم المساعيد، وهم بطن من قبيلة لخم.

أما مدينة نابلس فكان شيوخها من آل طوقان وآل النمر.

سليمان صادق

([1])الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج2 – ق2، ص 567.

آل طوقان: أسرة عربية كان لها بروز في مجال الحكم في فلسطين وخاصة في منطقة نابلس.. يقول اسكندر المعلوف أن طوقان فرع من قبيلة الموالي القاطنين في لواء حماة، نزح زعيمهم إلى نواحي البلقاء ثم إلى نابلس، وذكر وصفي زكريا في الجزء

الثاني من كتابه " عشائر الشام " إن الطوقان فرقة من الموالي وأن أسرة طوقان المعروفة في مدينة نابلس سنة 1066هـ من هذه الفرقة [1].

إن آل طوقان جاءوا لأول مرة إلى نابلس في أواسط القرن الحادي عشر الهجري.. ومن مشايخهم المشهورين مصطفى بك واحمد بك وعلي بك وصالح بك.. وقد تولّى مصطفى بك مشيخة بني صعب 1180هـ/ 1766م بعد الخلاف الذي حدث بين الجيايسة، ثم تولى متسلميه نابلس.. ولما صارت الولاية للجزار في سنة 1190هـ عين أسعد بك متسلماً لنابلس [2].. وقد تناوب آل طوقان متسلمية نابلس مع آل النمر وآل جرار في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي، وتناوبوها مع آل جرار في النصف الاول من القرن التاسع عشر.

آل طوقان [3]

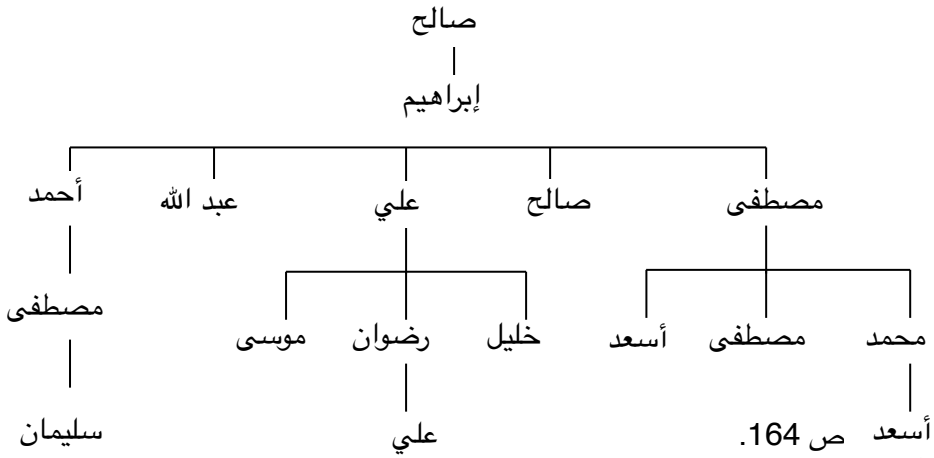

(1)زكريا وصفي: عشائر الن ص 164.

(2)دروزة، محمد عزة: العرب والعروبة، ج5، ص 83-87.

(3)النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس والبلقاء ج1، ص 156.

بنو النمر: تنتسب هذه الأسرة إلى قبيلة النمر التي كانت في الجزيرة الفراتية حين الفتح الإسلامي.. وقد برزت في مجال الحكم والسلطان في شرق الأردن وفلسطين في القرن الحادي عشر واستمر بروزها وخاصة في فلسطين، وبنوع أخص في نابلس
إلى أواخر القرن الثالث عشر الهجري، وقد تولى شيوخ هذه الأسرة ألآي السباهية مدة طويلة، وتحالفوا مع آل جرار وقضوا على الإقطاعية الظالمة في جبل نابلس وخاصة المشاقية في النصف الأول من القرن الثامن عشر، وتناوبوا الحكم مع آل طوقان وآل جرار في النصف الثاني من نفس القرن، وبرز منهم يوسف أغا النمر وعلي أغا النمر وإبراهيم أغا النمر الذي سماه النابلسيون بسلطان جبل نابلس وسموا الشيخ يوسف الجرار بسلطان البر[1].

واشترك آل النمر في الدفاع عن جبل نابلس ضد الغزاة وخاصة في حرب نابليون.

بنو النمر في نابلس

(2)

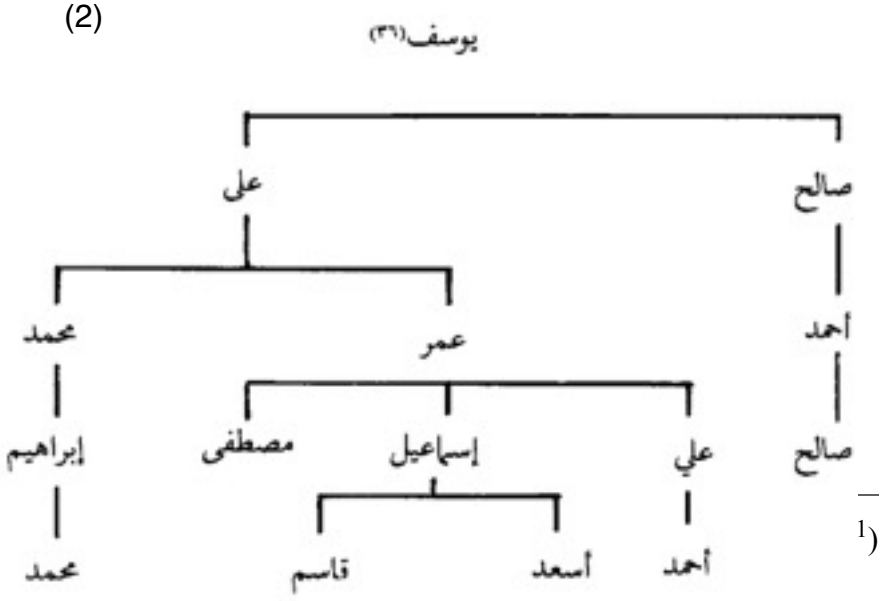

(1) ، ودروزة،

(2) النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس والبلقاء،ج1، ص 106.

قضاء جنين: ويضم مدينة جنين والمجاميع التالية:

1- مجموعة مشاريق الجرار، وعددها "20" قرية.. شيوخ هذه المجموعة " آل جرار " وهم من الشقران.. والشقران بطن من الصبر، من غسان، من القحطانية وهم بنو شقران بن عمرو بن صريم بن حارثة بن عدي بن عمرو بن مازن بن الأزد..

وكان آل جرار في القسطل من البلقاء، وكانوا شيوخ البلقاء منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، انتقل جدهم " محمد الزبن " ابن جرار إلى مرج ابن عامر في أوائل القرن الثامن عشر، وصار أميرا على اللجون [1].

ويذكر الأمير حيدر الشهابي عن نسبهم بأنهم من البلقاء وأن جدهم الأول نزل عرابة ثم تفرقوا في القرى وانتقلوا إلى صانور، ونشأ منهم الشيخ " محمد الجرار " الذي عمر الدائر من صانور وحصنها [2].

ويقول الأستاذ مصطفى الدباغ: أرجح أنهم دعوا " بآل جرار " لكثرتهم ولجرأتهم وإقدامهم في الحرب كما يتضح من تاريخهم، فيقال جيش جرار بمعنى كثير، والجرار أيضا من يرأس ألفا.. ويتابع الأستاذ الدباغ كلامه فيقول: وآل جرار هذه العائلة العريقة، كثيرة العدد منتشرة في برقين والبارد " الهاشمية " وكفر قود وصانور وجبع والفندوقومية وعرابة والجديدة وميثلون وعكا وحيفا[3].

وقد برز عدد من مشايخهم الذين تسلموا الحكم في متسلمية جنين

([1])الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج3 – ق2، ص 117.
وإحسان النمر: تاريخ جبل نابلس والبلقاء ج1، ص 131.
العقد الفريد لابن عبد ربه، ج 2، ص 78، والاشتقاق لابن دريد، ص 285 ومجلة الآثار: السنة الرابعة، ج1، ص 47.

([2])الشهابي، الأمير حيدر: الغرر الحسان في أخبار أنباء الزمان، ص 800.

([3])الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج2 – ق2، ص 117،126.

ومتسلمية نابلس لفترات طويلة، وكان لهم دور كبير في تاريخ جبل نابلس، وسوف أذكر تفاصيل عنهم عند الحديث عن " قلعة صانور " من هذا الكتاب.

2- مجموعة الشعرواية الشرقية، وعددها "20" قرية[1].. دعيت بذلك تمييزا
ً لها عن " مجموعة الشعراوية الغربية " من قضاء طولكرم، شيوخ هذه المجموعة " آل عبد الهادي " في عرابة وما حولها، وآل جرار " في برقين وما حولها..

آل عبد الهادي: ينسبون إلى الشقران.. وهم من الأسر التي برزت في مجال الحكم والزعامة المحلية في جبل نابلس، وأول البارزين فيهم جدهم عبد الهادي في أواخر القرن الثاني عشر الهجري، وكان شيخاً لعرابة، وكان ثاني البارزين حسين بن عبد الهادي فكان من مشايخ جبل نابلس البارزين، وكان أول مستقبلي إبراهيم باشا المصري حين قدم إلى فلسطين على رأس حملة ومن أول المنضمين إليه، فولاه إياله صيدا وولّى أخويه وولده حكم البلاد فسادوا في سورية الجنوبية طيلة الحكم المصري.

يقول الأستاذ مصطفى الدباغ[2] " إن عائلة عبد الهادي الوجيهة في البلاد اليوم، دعيت بهذا الاسم نسبة إلى جدها " عبد الهادي بن أبي بكر"، ويذكر لنا إبراهيم العورة رئيس كتاب ديوان إيالة عكا في القرن الماضي في مؤلفه " تاريخ ولاية سليمان باشا العادل " ص 303-304 عن تقدم هذه العائلة بقوله: في أوائل سنة 1232هـ1816 م وقعت فتنة في جبل نابلس بين الوجوه في بعضهم، لأنهم كانوا أحزابا، وكل منهم له رفاق من الصف الآخر، وأما باب عكا فكان سليمان باشا يميل إلى بيت الجرار وعبد الهادي أبو بكر وابنه حسين ولما مات عبد الهادي صار ابنه حسين مكانه، وبواسطة ميل سليمان باشا إليه ومعاضدته من المعلم "

([1])الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج2 – ق2، ص 71.

([2])الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج2 – ق2، ص 75 - 78.

حييم " والمعلم " حنا" [1] ودوام مساعدتهم له بمسائله عند سليمان باشا وكرم نفسه وتحسين سلوكه، تقدم بين وجوه جبل نابلس وانطلق اسمه وصار له سمعة بزيادة أضعاف عن والده، لأن أباه نعم كان شيخ عرابة إلا أنه ما كان معدوداً من الوجوه المشهورين بل كان كبقية مشايخ القرايا، وإنما كان له كلمة بينهم بنوع ما. فأما ابنة حسين فتقدم حتى صار يعد من وجوه الديرة وأساطينها والمتكلمين فيها، صار له صفوف وحلوف نظير غيره.

ولما دخل إبراهيم باشا المصري البلاد انضم إليه حسين عبد الهادي ورحب
به وأبلغه طاعة عائلته له. فعهد إليه إبراهيم باشا بمتسلمية جنين وبلادها كما عهد لأخيه الشيخ محمود عبد الهادي بإدارة البلاد الشعراوية ثم بمتسلمية يافا، ولما سار الجيش المصري في 8 محرم من سنة 1248هـ/ 1832م من عكا إلى الشام سار معه الشيخ حسين.

وقد كان حسين عبد الهادي صادقاً في خدماته لمصر ومخلصاً في مشورته لإبراهيم باشا مما دعا محمد علي باشا لأن يوافق على اقتراح نجله بالإنعام عليه بوسام الافتخار ومرتب سنوي، ولما عزل إبراهيم باشا " منيب أفندي " من إدارة شؤون الحكومة في عكا سنة 1249هـ عين الشيخ حسين مكانه مديراً لإيالة عكا ملقباً بصاحب العطوفة.

ولما نشبت الثورة الوطنية في البلاد ضد المصريين سنة 1834م، وقف حسين عبد الهادي وعائلته إلى جانب المصريين وساعدوهم على قمعها، وقد عهدوا إليه بمتسلمية نابلس بمجرد دخولها ليساعدهم على توطيد نفوذهم، وبعد قليل خلفه فيها ولده الشيخ سليمان، وخصصت الحكومة لكل من أولاده عبد الله ومحمد وعبد القادر راتباً سنوياً قدره "10816" قرشاً ابتداءاً من آذار سنة 1251هـ[2].

([1])المعلم (حييم) كان يشغل صرافاً وكان له منزلة عالية عند ولاة عكا، والمعلم (حنا) هو حنا العودة الكاتب العربي عند سليمان باشا.

([2]) رستم، أسد: الأصول العربية لتاريخ سورية، ج2 ص 131، ج3، ص 68،ج4 ص 69.

وبعد خروج المصريين انتقلت السلطة والنفوذ في جبل نابلس من آل عبد الهادي إلى آل طوقان، وبقيت السيادة لآل طوقان حتى سنة 1858م، ففي تلك السنة عين العثمانيون " محمود عبد الهادي " متسلماً على نابلس، فعهد هذا لأخيه " عبد الهادي " حكم جنين.

وفي سنة 1858م نشبت في بلاد غزة ونابلس اقتتالات شديدة بين القبائل والعائلات.. ورأت الحكومة أن تضع حداً لهذه الفتن الداخلية في جبل نابلس فأرسلت عسكرها من دمشق إلى نابلس وألقت القبض على محمود بك عبد الهادي قائمقامها فساقوه وغيره من مدبري الفتن إلى بيروت، كما أرسلت حملة عسكرية لمهاجمة عرابة في 17 نيسان 1859م، 14 رمضان 1275هـ[1].

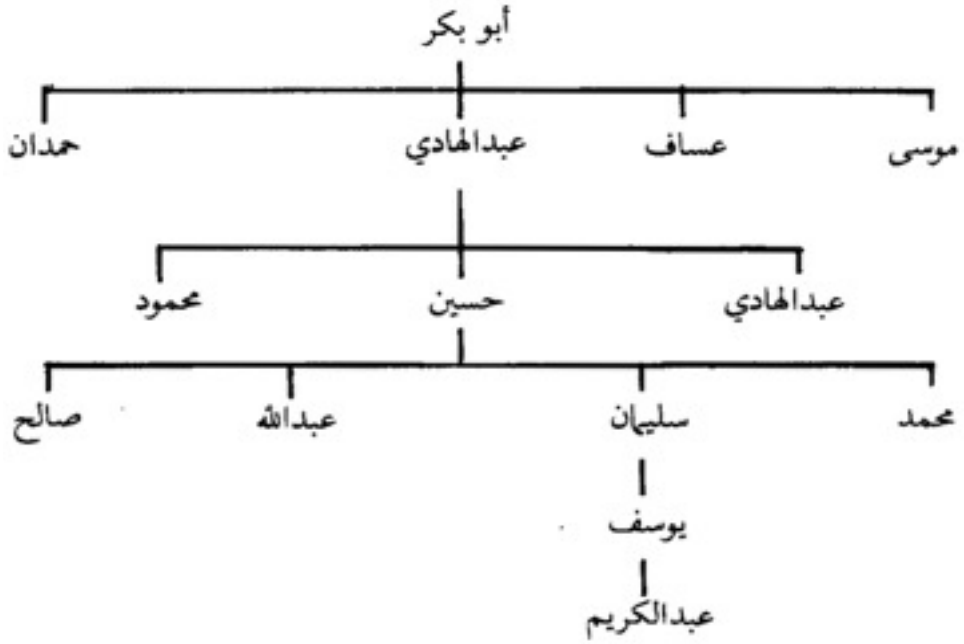

آل جرار: آل جرار في برقين وما حولها هم أبناء عم الشيخ محمد الزبن،و كان شيخهم في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي هو الشيخ

([1]) الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج3 – ق2، ص 79.

غازي الذي اشترك مع الشيخ يوسف الجرار في قتال الفرنسيين في مرج ابن عامر، وقد برز من أحفاد الشيخ غازي في أواخر القرن التاسع عشر " الشيخ عوض أغا الجرار " فقد عرف هذا الشيخ بالعمل المثمر المستمر والنشاط الزراعي مما أتاح له ثروة كبيرة مكنته من كسب مجد وكلمة بناها بكرمه وحلمه وتفقده للمحتاجين[1].وكان الشيخ عوض أغا والشيخ رضوان أغا الجرار من ضمن الأعضاء المنتخبين لمجلس الإدارة في جنين وقضائها في آخر العهد العثماني[2].

(1) ابن جرار[47] (في برقين)

بذلك نسبه إلى القبيله العربيه " حارته " وهي من طيء من العرب القحطانية، وقد ظهر منها الأمراء الحارثيون الذين حكموا هذه الديار وكانت جنين مركزاً لزعامتهم من [1010-1088هـ].

([1])جرار، عبد الهادي: تاريخ ما أهمله التاريخ، ص 100.

([2])النمر، إحسان تاريخ جبل نابلس والبلقاء،ج3، ص 19 .

([3])هذه الشجرة أخذتها من الأستاذ عبد الرحيم جرار أثناء مقابلة أجريتها معه في الشهر السابع من عام 1998م، وقد أخبرني أن آل جرار في منطقة برقين ينتمون إلى الشيخ حماد الناصر ابن جرار .

([4])الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج2 – ق2، ص 158 ،172.

أما في القرن العاشر للهجرة، فكانت تسمى " لواء اللجون " وكانت جنين من جملة قراه، ولعل متسلم هذا اللواء كان يقيم في " تل مجدو " للتمتع بمناظره الخلابة التي تشرف على المرج الخصيب فنسب إليه ودعي باسم " تل المتسلم"، ويبدو أن أمر اللجون أخذ بعد ذلك يضعف فابتدأت أهميتها الإدارية تنتقل إلى جنين.

وكان حكام لواء اللجون في القرن السابع عشر من آل طرباي والمهاميط وآل الشافعي، وفي مطلع القرن الثامن عشر كانوا في أواخر عهدهم وضعفهم، فقامت السلطنة العثمانية بتعيين الشيخ محمد الزبن ابن جرار متسلماً في اللجون على منطقة

جنين وبيسان، وبقيت متسلمية اللجون ومقرها " جنين " في يد آل جرار طيلة القرن الثامن عشر وحتى منتصف القرن التاسع عشر حيث تسلمها بعد الشيخ محمد الزبن ابنه الشيخ يوسف الجرار، ثم أبناؤه من بعده الشيخ داود والشيخ أحمد والشيخ عبد الله[1].

ومن المشايخ الذين برزوا في تلك الفترة أبناء الشيخ صالح السليمان شيخ عشيرة الجرادات في السيلة الحارثية.

قضاء طولكرم: ويضم مدينة طولكرم والمجاميع التالية:

1-مجموعة قرى وادي الشعير الغربي: وعددها "13" قرية[2].. شيوخ هذه المجموعة هم آل البرقاوي، وتنتسب لهم أسر كثيرة متوزعة في قرى عديدة في وادي الشعير غربي نابلس، وكان لزعماء هذه العشيرة في وادي الشعير مشيخة مركزها قرية " شوفة"، وعشيرة البرقاوي من عشيرة آل سيف أمراء طرابلس الشام، وقد نزلوا " برقة " من قرى نابلس ـ بعد أن ضايقهم المعنيون في القرن الحادي عشر، ومن برقة خرج منهم ثلاثة فروع، واحد ذهب إلى قرية ذنابة ـ في قضاء بني صعب ـ واثنان توطنا قريتي شوفة وكفر اللبد، وأن بني البرقاوي هم من فرع آل عيسى الذي توطن قرية شوفة[3].

ومن زعماء هذه العشيرة الشيخ غازي وابن أخيه الشيخ خليل صاحب قلعة " المدحدرة"، وقد حاربا نابليون في حملته واستشهد الشيخ خليل في تلك الحرب.

ومن زعمائهم أيضا الشيخ عيسى البرقاوي الذي عينه والي الشام سنة 1214هـ شيخاً لوادي الشعير. وهو الذي اشترك في الثورة ضد المصريين، وأعدمه إبراهيم باشا مع قاسم الأحمد في دمشق عام 1250هـ.

وآل البرقاوي من العائلات الفلسطينية العريقة في حسبها ونسبها

([1]) دروزة، محمد عزة: العرب والعروبة، ج5، ص109-114.

([2])الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج3 – ق2، ص158-294.

([3])دروزة، محمد عزة: العرب والعروبة، ج5، ص159-163.

ولهم بطولات في حروبهم مع الغزاة والطامعين أمثال نابليون وإبراهيم باشا، وهم منتشرون في نواحي وادي الشعير.

ومن أقدم مشايخ وادي الشعير " العطاعطة " ومركزهم " رامين " ومنهم جماعة في شويكة، وهم منتشرون في عدد من القرى في منطقة نابلس وطولكرم وللعطاعطة " برج " في سهل قاقون راقبوا منه حركات نابليون وكمنوا له في جواره[1].

2- مجموعة قرى الشعراوية الغربية، وعددها "22" قرية[2] دعيت باسم " الشعراوية" لوقوعها بين الغابات " شعرا " التي كانت تمتد من أرسوف إلى عكا.

وتعرف أيضا باسم الشعراوية الغربية " تمييزاً لها عن الشعراوية الشرقية في قضاء جنين..

ويسكن هذه القرى مجموعة من القبائل العربية التي كان لها دور في الدفاع عن الوطن، وخاصة ضد الفرنسيين أيام حملة نابليون حيث دافعوا عن بلادهم واشتبكوا مع الفرنسيين حول قرية زيتا وقاقون.

3- مجموعة قرى بني صعب، وعددها "30" قرية[3].. شيوخ هذه المجموعة هم 0 بنو الجيوسي " الذين كانوا شيوخاً لهذه المنطقة منذ القرن الثامن الهجري إلى أواسط القرن الثالث عشر، و لا يزالون يحتفظون بوجاهتهم ونفوذهم إلى اليوم..

كان مركزهم قرية " جيوس " وفي أواخر القرن التاسع الهجري خرجوا منها ونزلوا في قرية كور الحصينة، وفي سنة 1124هـ اجتمع مشايخ منطقة بني صعب وانتخبوا مقلد الجيوسي شيخاً على المنطقة، وبعد موته انتقلت المشيخة لولديه الشيخ حسين والشيخ عساف..

([1]) دروزة، محمد عزة: العرب والعروبة، ج5، ص167.

([2])الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج3 –ق2، ص 229.

([3])الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج3 –ق2، ص230.

حدث تحالف واتفاق بينهم وبين بني النمر وبني الجرار على العصيان حينما عين الجزار أحمد طوقان لمتسلمية نابلس ومحمد طوقان لمشيخة بني صعب، وقد تجمد هذا الاتفاق بسبب زحف نابليون على فلسطين مما جعل جميع المشايخ بما فيهم المتحالفون يندمجون في حركة واحدة.

ولما استنجدت يافا بجبل نابلس حينما وصل إليها الزحف الفرنسي خرجت جموع بني صعب لنجدتهم بقيادة زعيمين من الجيايسة هما الشيخ يوسف الواكد والشيخ أبو عودة من أحفاد الشيخ محمد بن عساف بن مقلد، وهاجموا الفرنسيين وارتدوا إلى وادي عزون[1].

عسّاف

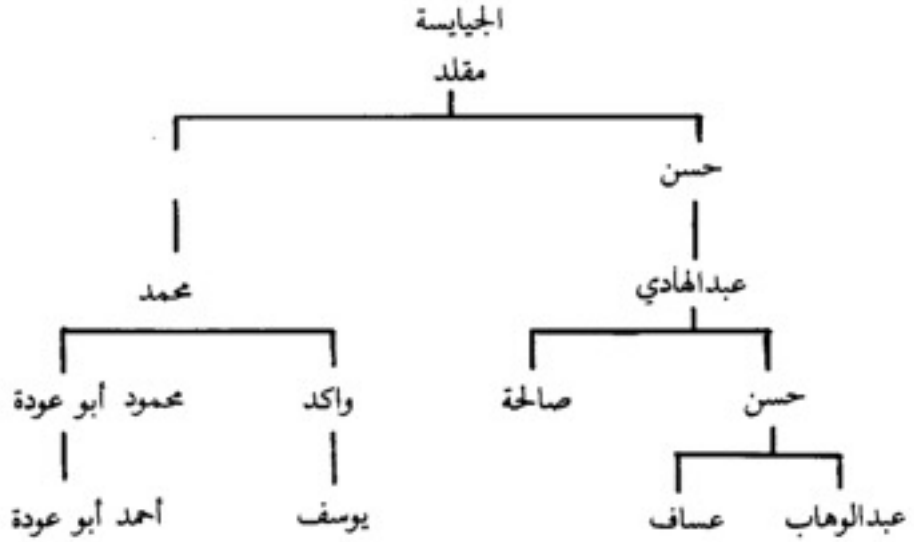

(1) دروزة، محمد عزة: العرب والعروبة، ج5، ص27-34، إحسان النمر: تاريخ جبل نابلس والبلقاء،ج1، ص 159-161.

پابلس

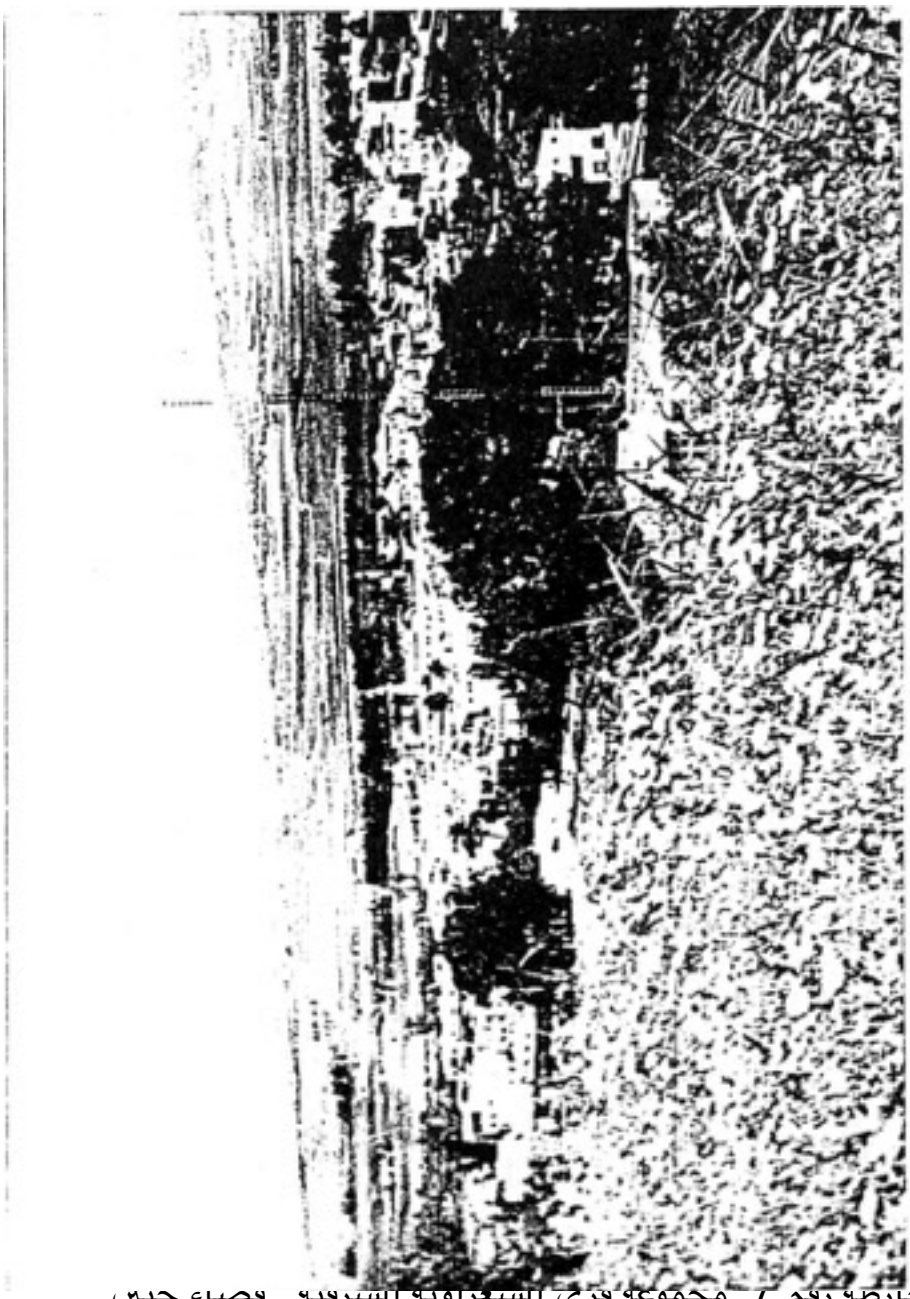

- خارطة رقم "7" مجموعة قرى الشعراوية الشرقية.. قضاء جنين.
- خارطة رقم"8" مجموعة قرى بلاد حارثة.. قضاء جنين.
- خارطة رقم"9" مجموعة قرى وادي الشعير الغربي.. قضاء طولكرم.
- خارطة رقم "10" مجموعة قرى الشعراوية الغربية.. قضاء طولكرم.

- خارطة رقم"11" مجموعة قرى بني صعب.. قضاء طولكرم.

خارطة رقم "1"

المصدر: الدباغ مصطفى : بلادنا فلسطين، جـ2- ق2، ص273

خارطة رقم "2"

قرى وادي الشعير :

_ قضاء نابلس -

_____ حدود القرى

_ _ _ _ حدود الاقضية

١٧

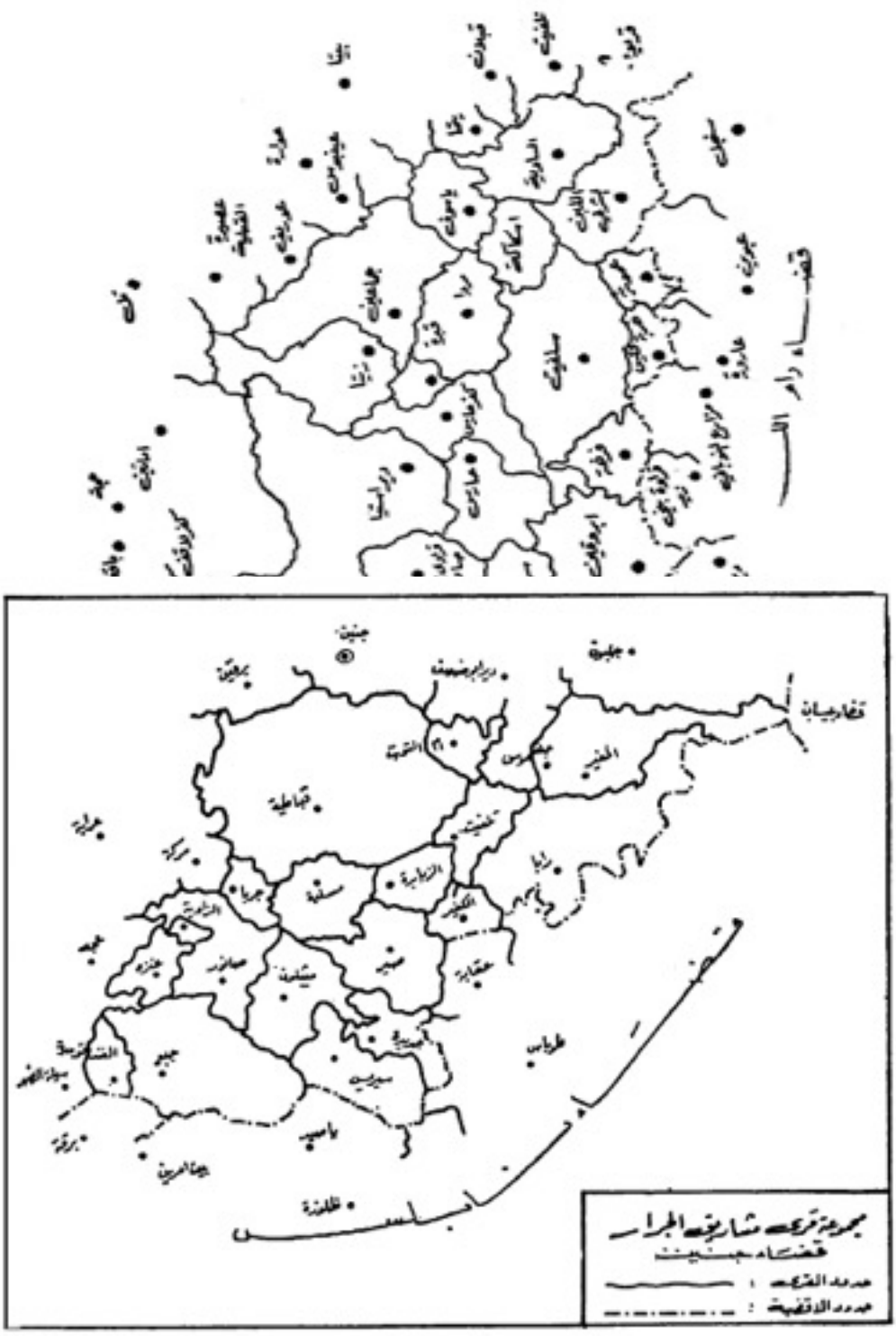
مجموعة مرحلة شارع الجزائر
قضاء جنين
عدد المرحلة :
عدد الدقيقة :

خارطة رقم"7".

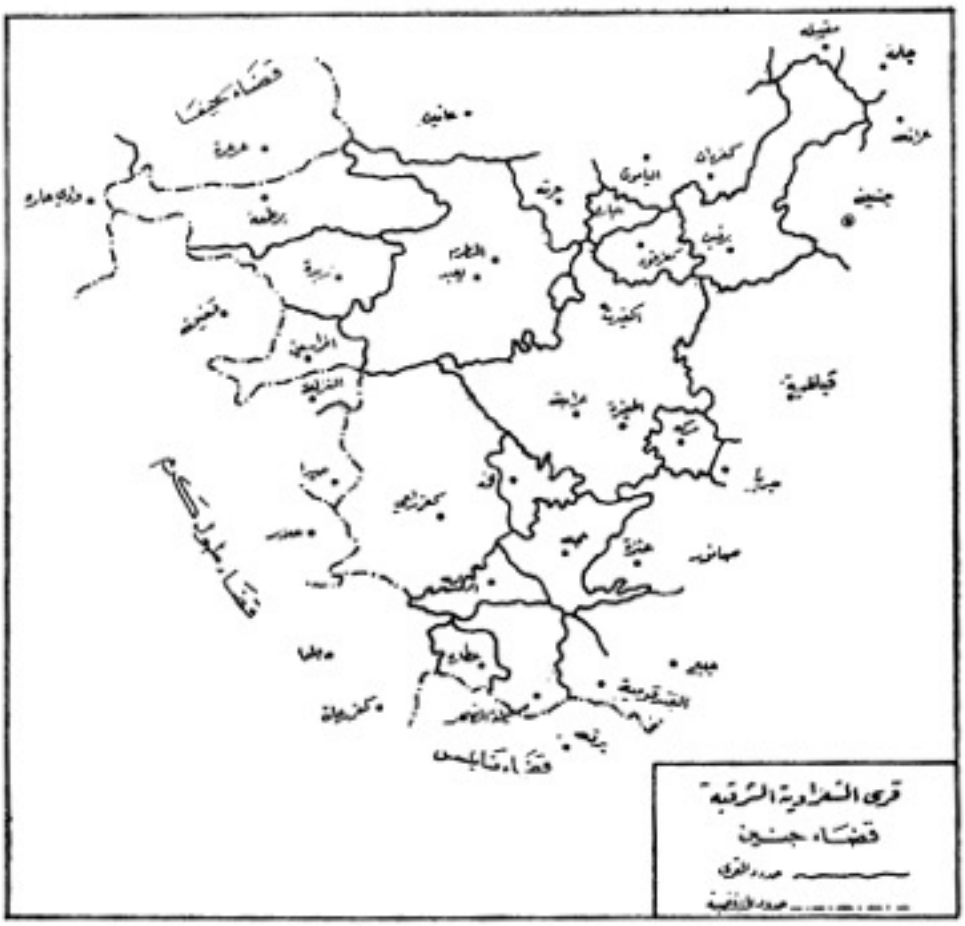

خارطة رقم"8".

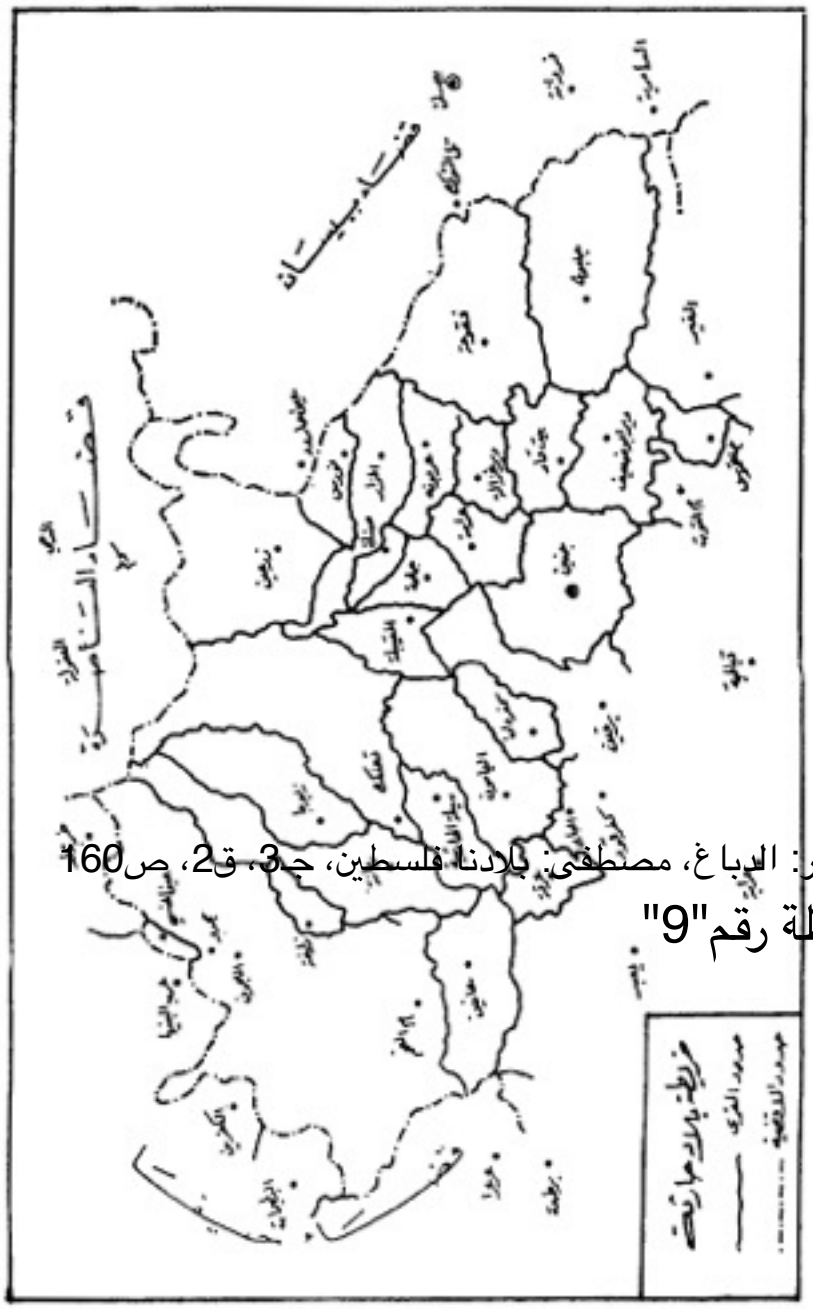

المصدر: الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج3، ق2، ص160

خارطة رقم"9"

خارطة رقم "

المصدر: الدباغ، 285

المصدر: الدّباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، جـ3، ق2، ص315.

خارطة رقم "11"

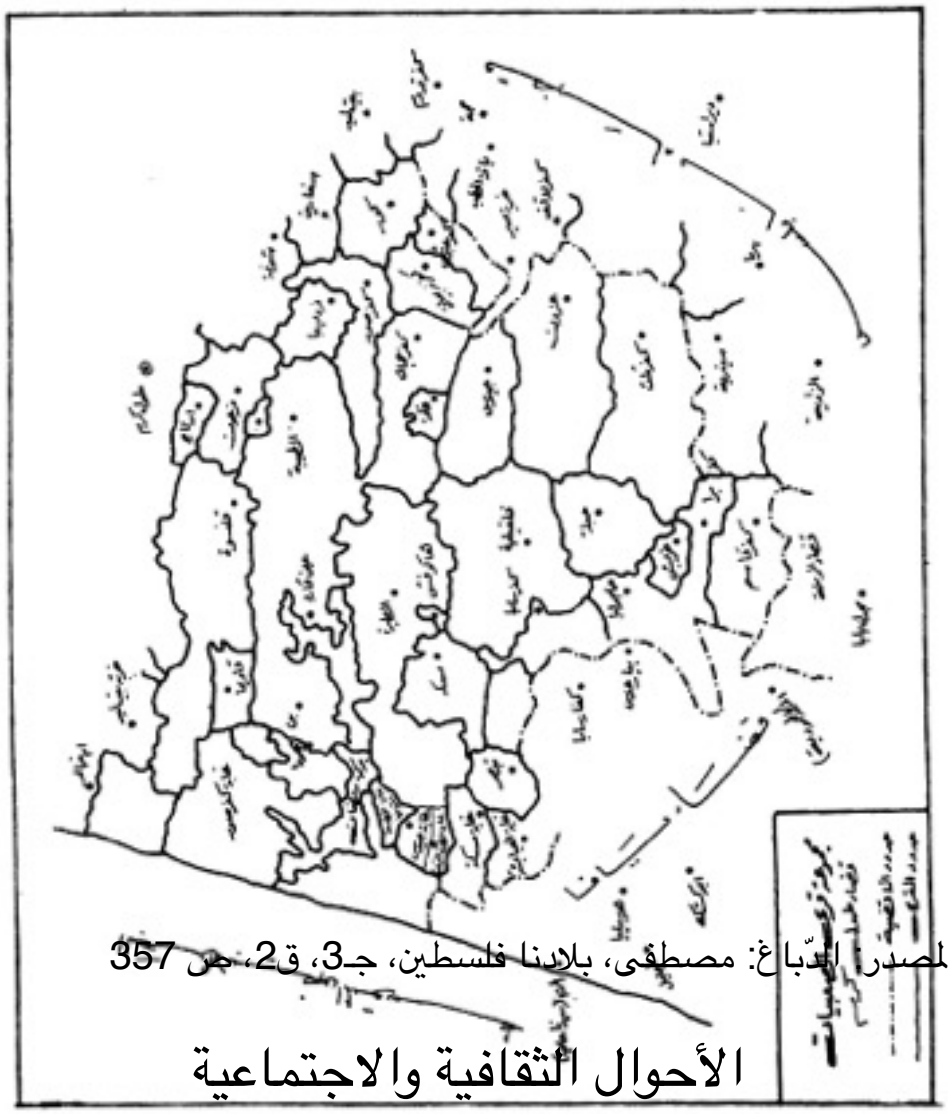

المصدر: الدّباغ: مصطفى، بلادنا فلسطين، جـ3، ق2، ص 357

التعليم:

كانت حالة بلاد الشام عموماً في تأخر ثقافي وكانت المدارس قليلة، وكان الناس يدرسون في الكتاتيب التي يقتصر التعليم فيها على العلوم الدينية واللسانية، وكانت الكتب عزيزة الوجود وغالية الثمن، وكانت أكثر الكتب من المخطوطات والطباعة العربية قليلة الانتشار.

وكان أكثر المعاهد التعليمية القائمة في مختلف أنحاء الدولة العثمانية حتى أوائل القرن الثامن عشر والتاسع عشر مدارس دينية، ملحقة بالجوامع، واتخذت الجوامع في نابلس أماكن للتدريس طوال القرن التاسع عشر، ولم تظهر المدارس بالمفهوم الحديث إلا في النصف الثاني منه[1].

ومع هذا فقد ظهر في الديار النابلسية كثير من العلماء والفقهاء والمحدثين والأدباء والشعراء والإداريين.. يقول الأستاذ المؤرخ مصطفى الدباغ عن الحالة الثقافية في جبل نابلس: " ولا أغالي إذا قلت بأن كل قرية من قراه سواء كانت صغيرة أم كبيرة قد أنجبت عالماً أو علماء ينسبون اليها.. فعلماء آل قدامة والجعافرة وآل مفلح والخالديين والمرداويين، ممن ظهروا في العصور الماضية والحديثة كثيرون ويرجع الفضل في انتشار المذهب الحنبلي في مصر وغيرها لعلماء الديار النابلسية.. وعلى وجه الإجمال يمكن القول بأن هذه الديار تمتاز بأسرها وعشائرها العريقة في حسبها ونسبها وقوة إيمانها بالله، ونشاطها وإقبالها على العلم والعمل المثمر في مختلف ميادينه"[2].

المجتمع النابلسي:

كانت الفئات الاجتماعية الرئيسية في جبل نابلس تتكون من: سكان المدينة، وسكان الريف، وفي المدينة نظم الناس أنفسهم في تجمعات متكافلة متراصة في الزقاق والحي والحرفة أو السوق.. فكانت المدينة تنقسم إلى عدد من الأحياء أو الحارات. ويضم الحي أسرة كبيرة أو أسر

([1])الحصري: حولية الثقافة العربية، السنة الأولى، ص 3.

([2])الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج2 –ق2، ص63.

متقاربة أو جماعة من مذهب واحد أو مهنة واحدة، وكان لكل حي بوابته ومساجده وسوقه ومدرسته وطاحونته، وقد زاول سكان المدينة التجارة والصناعة والحرف المختلفة.

وعاش الفلاحون في الأرياف والقرى، مع كل ما يلحق بها من الأراضي الزراعية والمراعي.. ونشأت في الريف أسر قوية استفادت من ضعف الدولة ففرضت سلطتها، ووجد فيها الفلاحون من السلطة ما عوض عن سلطة الدولة المتداعية، فتكتلوا حولها وأيدوها رغبة أو رهبة، ومن هذه الأسر: آل جرار في منطقة صانور،وآل عبد الهادي في ناحية عرابة، وآل الجيوسي في ناحية بني صعب، وآل القاسم في ناحية جماعين، ونظراً لازدياد نفوذ هؤلاء الزعماء اعترفت بهم الدولة ملتزمين للأموال الأميرية[1].. يقول الأستاذ مصطفى الدباغ: " وسكان بلاد نابلس، كبقية سكان فلسطين، منهم من يعود بنسبه إلى العرب القحطانية أو العرب العدنانية..وعلى وجه الإجمال يمكن القول بأن هذه الديار تمتاز بأسرها وعشائرها العريقة في حسبها ونسبها وقوة إيمانها بالله، وأينما حل الإنسان بين سكان هذا الجبل يرى نفسه بين من أتقنوا صناعة الكرم اتقاناً، وافتنّوا في قرى الضيف افتناناً، يرى نفسه بين الذين أشربوا في قلوبهم العزة العربية والسماحة المحمدية.

فهم والحق يقال خير من ورثوا المجد فصانوه، وتلقوا وشاح الشرف من أجدادهم فزانهم وزانوه، وأنهم عرب جديرون باللقب وما هو باللقب القليل، صادقون في النسب وأنه لنسب جليل[2].

النزعات المحلية:

كان الوضع الاجتماعي في القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر يقوم على الوفاق والتعاون بين عشائر جبل نابلس.. ولم يحدث في تلك الفترة نزاعات تستحق الذكر.. أما النصف الثاني من القرن التاسع عشر فقد تميز الوضع الاجتماعي فيه بنزاعات عائلية شاركت فيها جميع عائلات جبل نابلس، وكان من أهم الدوافع إليها تلك الفتن التي أثارها

([1]) الراميني، أكرم: نابلس في القرن التاسع عشر، ص 153.. عن عبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون، ص 426.

([2])الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج3 –ق2، ص64-65.

إبراهيم باشا المصري في البلاد في أثناء حملته على فلسطين.. وقد استمرت المنازعات حتى قامت الدولة العثمانية في أواخر القرن التاسع عشر بالإصلاح بين هذه العائلات وإزالة أسباب الخلاف.

ومع ما كان يحدث بين عائلات جبل نابلس من خصومات فإنها لا تعدو أن تكون من الخصومات العادّية التي تحدث عادة بين الإخوة والأهل، كما أنها كانت تلتزم بأخلاق وعادات نبيلة... يقول القنصل البريطاني في القدس " جمس فين" في تقريره عن هذه النزاعات والحروب:

" وكان المتحاربون يسيرون بحسب عرف الصفوف القديم، ويتجنبون الغدر والكيد، فيحترمون الأسرى فإذا ظفر فريق بأسرى من فريق آخر حلقوا لهم وكسوهم وأرجعوهم إلى أهليهم، وكانوا يتجنبون أذى النساء والأولاد والضعفاء، وهذا من عرف الفروسية الإقطاعي العشائري" [1]

الإستقلال الاجتماعي:

كانت بلاد جبل نابلس مغلقة على الأجانب على اختلافهم، وكان لأهلها عاداتهم وتقاليدهم التي يرعاها الصغير والكبير في الداخل والخارج، ولهم مقوماتهم في كل شيء، فأصبح استقلالهم شاملاً لكل ناحية من نواحي حياتهم.. لقد كانت لهم أهازيج يعتزون بها، وقد امتلأت نفوسهم بالقوة والمنعة، فما كانوا يبالون بالتمرد والثورة على كل ظالم ومتغطرس.

وقد بلغت الفضائل الأخلاقية والآداب العرفية، مبلغاً عظيماً عندهم، وكان لهم فهم وذوق دقيق في كل شيء[2].

([1])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس والبلقاء،ج1، ص 366.

([2])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس والبلقاء،ج1، ص 531.

الأحوال الاقتصادية

ملكية الأرض في الدولة العثمانية:

1- أرض الدولة " الميري " واعتبر السلطان العثماني مالكاً لها، وشكلت الأراضي الأميرية القسم الأكبر من لواء نابلس، وكانت على نوعين:

أ- الأراضي السلطانية.. وهي إقطاعات مترامية الأطراف، يتصرف بها السلطان شخصياً هو وأسرته، وكان في نابلس من هذا النوع بساتين قرب مدينة نابلس، قال إحسان النمر " إن السلطان منحها لآل النمر[1].وكان للسلطان عبد الحميد الثاني مساحات واسعة من الأرض في بلاد الشام، ومن بينها الغور،

وقد تنازل السلطان عن أملاكه الخاصة لصالح خزينة الدولة بإرادتين في سنة 1324هـ /1908م، وسنة 1325هـ/1909م[2].

ب- الإقطاعات العسكرية.. وأعطت الدولة هذه الأراضي إلى بعض القادة العسكريين كمورد يعيشون منه، وطلبت الدولة من هؤلاء الإقطاعيين تأدية الخدمة العسكرية، والمساهمة في حملات الدولة وتقديم عدد مناسب من الجند على نفقتهم الخاصة، وإرسال مبلغ سنوي من المال إلى الوالي المكلف بحماية قافلة الحج السنوية إلى مكة[3].

وظل الإقطاع العسكري معمولاً به في نابلس إلى أن أتم السلطان محمود الثاني تنظيم الجيش،بعد أن قضى على الانكشارية، ثم رأت الدولة حل التيمار العسكري في جبل نابلس سنة 1246هـ/1830م فأرسلت مرسوماً حلت فيه 52 تيماراً، حولت إيراداتها لصالح الخزينة، واتضح هذا من المرسوم الموجه إلى متسلم نابلس سنة 1247هـ/1831م، " مفاخر

([1])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس والبلقاء،ج2، ص 237.

([2])الراميني، أكرم: نابلس في القرن التاسع عشر، ص 101..عن مصطفى الشهابي، ص 544.

([3])الراميني، أكرم: نابلس في القرن التاسع عشر، ص 101... عن غرايبة: سورية في القرن التاسع عشر ص 48.. وسجل المحكمة الشرعية بنابلس رقم (7) ص 400.

المشايخ محسوبنا عبد الله الجرار متسلمنا في سنجاق نابلوس، والشيخ حسين عبد الهادي متسلمنا في سنجق جنين،
والشيخ قاسم الأحمد زيد قدرهم بعد السلام التام بمزيد الإعزاز والإكرام.. المنهي إليكم بتاريخه ورد لنا فرمان جليل الشأن بأن من الزعماء وأرباب التيمارات انحل جانب منهم، فمن الجملة انحل جانب تيمارات نابلوس تبلغ اثنين وخمسين تيماراً فمن حين حلها يكون محصولها لجانب الخزينة الملوكانية لأنها تخصصت لمصارفات العساكر المنصورة المحمدية وورد ضمن الأمر الشريف دفتر بأسماء التيمارات المذكورة[1]، ثم وزعت الدولة بعض التيمارات المحلولة على بعض الشيوخ والمنتفذين في نابلس.

2- الأرض الخاصة: وهي ملك أصحابها.. فالأرض التي امتلكها الناس في مدينة نابلس كانت الدور والحواكير في القرى، وكان باستطاعة السكان أن يتصرفوا بهذه الأرض كيفما شاءوا من بيع أو شراء أو توريث.

3- الأرض الموات: وهي الأرض الخراب الدارسة التي لم يجر عليها ملك لأحد ولم يوجد بها أثر عمارة، وقد أشارت سجلات المحكمة الشرعية بنابلس إلى نوع من الأرض يسمى " بأرض المشاع " وهي الأراضي القريبة من القرية وربما هي نوع من أرض الموات، لأن هناك من الموات ما ملكه الناس فأحيوه ثم خرب ومات، وكان بإمكان الناس زراعة أرض المشاع، ومن زرع شيئاً فهو له وكل من أحيا أرضاً مواتاً فهي له[2].

4- أرض الوقف: الوقف نوعان: " وقف خيري " للمساجد والمدارس الملحقة بها، والزوايا، " ووقف ذري " خاص بالوراثة، وقد أوقف المسلمون مساحات واسعة من الأراضي للمؤسسات الإسلامية.

وقد نظمت الدولة العثمانية أمور الأراضي، ففي البدء منعت انتقال

([1])الراميني، أكرم: نابلس في القرن التاسع عشر ص 102.. عن سجل المحكمة الشرعية (9) .

([2])الراميني، أكرم: نابلس في القرن التاسع عشر ص 104-105.. عن سجل المحكمة الشرعية بنابلس (10) ص 200،210، ص 104، وسجل 21، ص 107.

حق التصرف بالأرض إلا بمعرفة المحكمة الشرعية، ثم أصدرت قانون الطابو سنة 1287هـ/1870م، وقانون الأراضي سنة 1289هـ/1872م، وتضمن قانون الطابو مواد عالجت كيفية انتقال الأرض من شخص إلى آخر، وألغت جميع الأوراق الثبوتية القديمة التي تتعلق بحق التصرف في الأرض، وطالب القانون السكان بضرورة مراجعة دوائر الطابو في مراكز الولايات والألوية، لتجديد براءاتهم "وثائقهم " وتسجيلها، ودفع رسوم الطابو، وحدد القانون مدة عشرين يوماً لإتمام هذه العملية[1].

الإقطاع في جبل نابلس:

لم يكن الإقطاع الإسلامي كما كان في أوروبا، إنما هو في الواقع جباية أموال.. ولم يقتصر الإقطاع العثماني على الأمراء بل وزع على الجيش الذي كان موزعاً في أنحاء الدولة العثمانية، فكان الجندي أو الأمير يُعطى من القرى على مقدار راتبه ويسمى هذا " التيمار " فكان السباهي أي الفارس يعطى من ثلاثة ألاف إلى عشرين ألف قرش، ويعطى الزعيم عدداً من القرى واردها من عشرين ألف إلى مائة ألف.

أما القرى الخارجة عن التيمار فكان يقطعها الشيوخ والمتسلمون ويحصلون ما عليها لقاء "30" في الألف، وكان الأمير أو شيخ الناحية يعطيها لشيخ القرية على ربع المعلوم.. فالإقطاع هو جباية أموال.

والزعامة هي عدد من القرى يعطى واردها كراتب للزعيم، وكانت تسمى باسم الزعيم أو باسم القرية التي تتخذها مركزاً لها، وكان الفلاح في التيمار حراً يعطي حصة معينة لصاحب الإقطاع، ولم يكن ثمت أثر لعبودية الإقطاع، وما كان إلا استغلال أرض وجباية أموال[2].

وحتى الأرض التي كانوا يعيشون فيها ويستغلونها كان كثير من العائلات الإقطاعية يتركونها للمزارعين.. كما حدث في الثمانينات من أواخر القرن التاسع عشر عندما أصدرت الدولة قانون الطابو.. فلم يحتفظ

([1])الراميني، أكرم: نابلس في القرن التاسع عشر..عن سجل (8) ص 122، وسجل (17)ص 778.

([2])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس والبلقاء،ج2، ص 219-221.

آل جرار مثلاً بإقطاعياتهم وحتى أراضي قرية صانور ـ مركزهم الرئيسي ـ تركوها للمزارعين الذين سكنوا بجوارهم في القرية إكراما لهم على ثباتهم ووقوفهم معهم في الدفاع عن قلعتهم في الأعوام السابقة، ووزعت الأراضي على جميع المزارعين في القرية بالتساوي ولم
يقم أحد من أبناء عائلة جرار بتسجيل شيء من أراضي القرية لنفسه.

الضرائب والرسوم:

فرضت السلطات العثمانية عدداً من الضرائب والرسوم، ومن هذه الضرائب الميري، الذخيرة، الخردة، العشور، رسوم الحسبة...

وقد اهتمت الدولة بضريبة الميري، التي سميت بذلك نسبة إلى الأراضي الأميرية أي أراضي الحاكم أو أراضي الدولة، ومن الطبيعي أن تهتم الدولة بهذه الضريبة فأكثر أراضي الدولة أميرية، وقد أعطى السكان حق التصرف بها وزراعتها مقابل دفع نسبة معينة من إنتاجها، وقد أوصت مراسيم الدولة أن ميري نابلس وكافة المناطق التابعة لإيالة الشام قد خصص للإنفاق على قافلة الحج السنوية إلى مكة[1].

الزراعة والصناعة والتجارة:

الزراعة: اعتمدت الزراعة في جبل نابلس بصورة عامة على الأمطار، أي أن أكثرها كان بعلياً، ولذا فان المحصول الزراعي كان يختلف من سنة إلى أخرى حسب كثرة المطر وقلته، ولكن مدينة نابلس امتازت بكثرة عيونها ومياهها الجارية.

وعرف جبل نابلس الكثير من المحاصيل الزراعية مثل الحنطة والذرة والحمص والفول والشعير والعدس والسمسم وغيرها واشتهرت أراضيه بزراعة البطيخ، كما اشتهرت بزراعة الزيتون والكرمة والتين وأنواع كثيرة من الأشجار المثمرة والخضروات.

وقد اعتبر موشيه ماعوز منطقة نابلس "أفضل من غيرها في مجال الإنتاج الزراعي وساعدها على ذلك كونها من أكثر المناطق خصباً وأمنا، كما أن نابلس استطاعت الدفاع عن نفسها ضد جامعي الضرائب وضد

([1]) الراميني، أكرم: نابلس في القرن التاسع عشر.. ص 120، عن سجل (8) ص429.

البدو المجاورين لها، ولذا أنتجت نابلس بشكل جيد لدرجة كانت تكفي الاستهلاك المحلي وتزيد للتصدير بكميات ضخمة للخارج"[1].

الصناعة: وجد في نابلس عدة صناعات مثل صناعة الحلويات والشربات، والصياغة، والنسيج، والدباغة، والحدادة، والشيد، وغيرها.. وأشهر صناعات نابلس كانت صناعة الصابون فكان في نابلس في القرن الماضي نحو ثلاثين مصبنة.

وانتظم أصحاب كل مهنة في نابلس في جماعات، وكل جماعة لها شيخ مسؤول مهمته الحفاظ على تماسك أعضاء جماعته وملاحظة أشغال أهل حرفته وصيانتها من الغش[2].

التجارة: لقد نظمت الدولة العثمانية أمور التجارة والزراعة والصناعة، وازدهرت التجارة الداخلية والخارجية بين الأقاليم.. وساعد موقع نابلس المتوسط بين مدن فلسطين على أن تكون محط رحال القوافل القادمة من الشرق إلى الغرب والمتجهة من الجنوب إلى الشام.

وامتدت تجارة نابلس إلى أماكن متعددة، فوصلت إلى مصر والشام والحجاز وجبل لبنان، كما تاجرت نابلس مع القدس وعجلون ومعان والسلط، وتعدت تجارتها إلى جزر البحر المتوسط وسواحل البحر الأحمر والخليج العربي وشمال إفريقيا وآسيا الصغرى ووصلت فرنسا[3]، وكانت أشهر صادرات نابلس القطن والزيتون وزيت الزيتون ودبس الخروب، والصابون، والحبوب وغيرها.

وانتقلت معظم البضائع من نابلس براً بواسطة القوافل، وبحراً على سفن تركية أو أوروبية، وكانت بلاد جبل نابلس تكفي نفسها من جميع الحاجات واللوازم، وكانت تستورد الشيء القليل وتصدر الكثير،وقد عاشت في

([1]) الراميني، أكرم: نابلس في القرن التاسع عشر.. ص 110، عن Moaz p.165.

([2]) غرايبة، سورية في القرن التاسع عشر، ص 147.. والراميني ص 112-113.

([3])الراميني، أكرم: نابلس في القرن التاسع عشر.. ص 114.

رفاهية وازدانت مقاصيرها بالأثاث الفاخر.

وكانت لنابلس القوافل الكبيرة المحروسة برجالها، وكان لها ميناء خاص ما بين حيفا ويافا يصدرون منه إنتاجهم إلى موانئ البحر المتوسط[1].

(1)النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس والبلقاء،ج2، ص 530.

الفصل الثاني

الحكم الوطني في جبل نابلس

-حكام جبل نابلس في القرن الثامن عشر والتاسع عشر:

- متسلمية اللّجون
- متسلمية نابلس

- سياستهم الداخلية
- سياستهم الخارجية
- جبل نابلس.. والولاة العثمانيون

-وقوف جبل نابلس في وجه الطامعين:

* جبل نابلس.. وظاهر العمر
* جبل نابلس.. وعثمان باشا الكرجي
* جبل نابلس... وأحمد باشا الجزار
* جبل نابلس.. وعبد الله باشا
* جبل نابلس.. وإبراهيم باشا ابن محمد علي

-ثمار الحكم الوطني

حكام جبل نابلس في القرن الثامن عشر والتاسع عشر

كانت الدولة العثمانية في بلاد الشام تعتمد في إدارة شؤون البلاد على العشائر والعائلات القوية، وعلى الأخص في المناطق الداخلية.. وهذا ما حصل في جبل نابلس، فقد كان حكام نابلس في القرن الثامن عشر

والتاسع عشر من زعمائها المحليين.. يقول الرحالة بيركهارت في زيارته لنابلس سنة 1227هـ/1812م: " ويحكم أهالي نابلس زعماؤهم أنفسهم المفوضون من قبل الباشا بفرمانات لهذا الغرض" [1].

وكان زعماء جبل نابلس في القرن الثامن عشر آل جرار وآل طوقان وآل النمر، وأما في القرن التاسع عشر فيقول الأمير حيدر الشهابي: " وأما زعماء جبل نابلس في مطلع القرن التاسع عشر فهم: آل جرار في قرية صانور، وآل عبد الهادي في قرية عرابة، والشيخ قاسم الأحمد والشيخ صادق الريان في ناحية جماعين، وآل طوقان في مدينة نابلس[2].

وكان جبل نابلس ينقسم إلى متسلميتين: متسلمية " اللجون " في بلاد حارثة والتي انتقلت فيما بعد إلى "جنين"، ومتسلمية " نابلس"، وكان آل جرار أمراء لمتسلمية " اللجون " منذ أوائل القرن الثامن عشر وحتى نهاية الثلث الاول من القرن التاسع عشر، ثم تبادلوها مع آل عبد الهادي حتى نهاية القرن التاسع عشر.

أما متسلمية نابلس فكان أمراؤها في بداية القرن الثامن عشر من آل مشّاق، ثم آل النمر وآل طوقان، وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر تبادل المتسلمية آل جرار وآل طوقان وآل النمر، وبدخول آل جرار لمتسلمية نابلس توحد شمال جبل نابلس مع جنوبه وأصبح الشيخ يوسف الجرار عام 1189هـ/1775م متسلماً لنابلس وجنين[3]. وفي الثلث الأول من القرن التاسع عشر تبادل آل طوقان وآل جرار متسلمية نابلس[4]، ثم تبادل المتسلمية آل القاسم وآل عبد الهادي وآل طوقان حتى منتصف القرن التاسع عشر وبعد هذا التاريخ بدأت الدولة تعين المتسلمين من الأتراك ومن خارج جبل نابلس.

([1])بيركهات: رحلة سورية الجنوبية – ترجمة أنور عرفات، ص 72.

([2])الشهابي، الأمير حيدر: لبنان في عهد الأمراء الشهابين – ق 2، ص 803.

([3])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس والبلقاء،ج1، ص 201-203. الراميني، أكرم: نابلس في القرن التاسع عشر.. ص 59، عن سجل المحكمة الشرعية رقم (6) ص 337.

([4])الراميني، أكرم: نابلس في القرن التاسع عشر.. ص 59، عن سجل المحكمة الشرعية بنابلس رقم (6) ص384، 337، وسجل (9) ص 397

متسلمية " اللجون" :

كان حكام اللجون في القرن السابع عشر " آل طرباي " الأمراء الحارثيون، وكان أبرزهم الأمير أحمد بن طرباي الذي ولي إمارة اللجون سنة 1010هـ/ 1601م، وتوفي سنة 1057هـ/1647م، وتولى بعده أمراء من آل طرباي وخرجت منهم الإمارة عام 1082هـ/1671م وتولاها أحمد باشا الترزي. وساد بعدهم المهاميط فكان الشيخ علي المهاميط شيخاً لجنين.. ولما ضعفوا انتقلت متسلمية اللجون لآل جرار، ففي بداية القرن الثامن عشر الميلادي قامت الدولة العثمانية بتعيين الشيخ محمد الزبن " ابن جرار " أميرا على اللجون في بلاد حارثة[1].

واستمر متسلماً إلى ما قبل وفاته عام 1772م، حيث تسلمها ابنه الشيخ يوسف الجرار ما يقرب من أربعين سنة جمع خلالها بين متسلمية نابلس وجنين مدة ثمانية عشر عاماً، وبعد وفاته عام 1222هـ/1808م تسلهما بعده ابنه الأكبر " داود " الذي توفي بعد والده بثمانية أشهر، وتسلمها بعده أخوه الشيخ أحمد اليوسف الجرار عام 1809م وحتى توفي عام 1235هـ /1819م، وكان أيضا يجمع بينها وبين متسلمية نابلس لعدة سنوات[2]، وتسلمها بعده الشيخ عبد الله اليوسف الجرار عام 1820م حتى عام 1930م[3]، وفي أواخر عام1830م قام عبد الله باشا والي صيدا بتعيين حسين أغا متسلماً على جنين.

وبعد دخول البلاد تحت حكم إبراهيم باشا المصري عام 1831م قام بتعيين الشيخ حسين عبد الهادي متسلماً على جنين، ولما قام إبراهيم باشا بتعيين حسين عبد الهادي والياً على إيالة صيدا عين ولده الشيخ سليمان عبد الهادي متسلماً على جنين.

([1])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس والبلقاء،ج1، ص 71-74،ص160.

([2])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس والبلقاء،ج1، ص 203- ص 277، ص 296، وتاريخ سليمان باشا العادل، ص 290، ص 310.

([3]) مناع، عادل: أعلام فلسطين في أواخر العهد العثماني، ص 71-73.

وبعد انتهاء الحكم المصري قامت الدولة العثمانية بتحويل جنين إلى مديرية وعينت عليها عدداً من المدراء كان بعضهم من خارج المنطقة، وفي عام 1858م قام محمود بك عبد الهادي " متسلم نابلس " بتعيين أخاه عبد الهادي حاكماً لجنين.

ثم قامت الدولة بتعيين الشيخ قاسم أغا الداود الجرار مديراً لجنين واستمر فيها حتى توفي عام 1878م، وتسلم إدارة جنين بعده الشيخ عبد القادر " قدورة" المفلح الجرار مدة خمس سنوات من 1878-1883م، ثم تسلمها حافظ باشا عبد الهادي عام 1883م واستمر فيها حتى أوائل القرن العشرين.

حكام متسلمية " اللجون "	من	إلى
1- الأمير أحمد بن طرباي	1010هـ /1601م	1057هـ/1647م
2- مجموعة أمراء من آل طرباي	1057هـ/1647م	1082هـ/1671م
3- أحمد باشا الترزي	1082هـ/1671م	
4- شيوخ المهاميط وأشهرهم الشيخ علي	من أواخر القرن السبع عشر	حتى أوائل القرن الثامن عشر
5- الشيخ محمد الزبن " ابن جرار"	من أوائل القرن الثامن عشر	1184هـ/1770م
6- الشيخ يوسف الجرار	1184هـ/1770م	1222هـ/1808م
7- الشيخ داود اليوسف الجرار	1222هـ/1808م	1223هـ/1809م
8- الشيخ أحمد اليوسف الجرار	1223هـ/1809م	1235هـ/1819م
9- الشيخ عبد الله اليوسف الجرار	1235هـ/1820م	1246هـ/1830م
10- حسين أغا " تركي"	1246هـ/1830م	1247هـ/1831م
11- الشيخ حسين عبد الهادي	1247هـ/1831م	1248هـ/1832م
12- الشيخ سليمان عبد الهادي	1248هـ/1832م	1254هـ/1838م

13- محمود بك عبد الهادي	1254هـ/1838م	1256هـ/1840م
14- حاكم تركي	1256هـ/1840م	1259هـ/1843م
15- سليمان بك طوقان	1259هـ/1843م	1262هـ/1845م
16- حكام من خارج جبل نابلس	1262هـ/1845م	1275هـ/1858م
17- عبد الهادي بك عبد الهادي	1275هـ/1858م	
18- يوسف ضياء باشا	1275هـ/1858م	1278هـ/1861م
19- الشيخ قاسم أغا الداود الجرار	1278هـ/1861م	1295هـ/1878م
20- الشيخ عبد القادر " قدورة " المفلح الجرار	1295هـ/1878م	1301هـ/1883م
21- حافظ باشا عبد الهادي	1301هـ/1883م	حتى أوائل القرن العشرين

متسلمية " نابلس" :

كان حكام نابلس في أوائل القرن الثامن عشر آل مشّاق، ثم آل النمر وآل طوقان، وكان آل مشاق مشايخ الجبل الشمالي لنابلس ومركزهم ياصيد،وكان شيوخ آل مشاق من أظلم الحكام فكانوا يسخرون الناس في بناء قصورهم ويرهبونهم وينهبون أموالهم، وحدث أن قام المشاقيون بمباغتة الرشيدات في قرية " صير " وذبحوهم عن آخرهم، ولم ينج منهم إلا امرأة مع طفلها، استجارت بالشيخ محمد الزبن أمير اللجون، واستولى المشاقيون على إقطاع آل ارشيد، واستفحل أمرهم في الجبل الشمالي، وصاروا يهاجمون الشقران وشيخهم " ابن جرار"، بمساعدة النزالية شيوخ الشعراوية، فاتفق الشيخ محمد الزبن والشيخ محمد أغا النمر وقضوا على المشاقية والنزالية[1].

وكان آل النمر في أواخر القرن السابع عشر وفي القرن الثامن عشر أمراء ألاي السباهية، وكان منهم الأمير يوسف جوربجي الذي توفي سنة 1685م، وتولى السباهية بعده أكبر أبنائه على أغا جوربجي، ثم صار

([1])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس والبلقاء،ج1، ص 160،124.

متسلماً على نابلس، وتوفي سنة 1150هـ/1737م، وتولى السباهية بعده ابنه محمد أغا جوربجي الذي اختاره أمراء السباهية سنة 1139هـ/ 1726م أميرا لألاي نابلس، وتوفي سنة 1756م، ثم جاء بعده عمر أغا النمر الذي مات سنة 1768م وتولى متسلمية نابلس وظل متسلماً إلى سنة 1177هـ/1763م[1].

ثم تولى متسلمية نابلس مصطفى باشا طوقان وبقي متسلماً حتى سنة 1189هـ/1775م، وعين شيخاً على بني صعب على أثر الفتنة التي وقعت بين الجيايسة في أواسط القرن الثاني عشر الهجري.

وفي عام 1189هـ/1775م تم تعيين الشيخ يوسف الجرار متسلماً لنابلس وجمع بينها وبين متسلمية جنين، وبقي متسلماً لنابلس حتى سنة 1204هـ/1790م، وكان أحيانا يوكل صديقه صالح أغا النمر بإدارة متسلمية نابلس نيابة عنه[2].

ثم عُين أسعد بك طوقان ابن مصطفى طوقان متسلماً عام1790 م، وتبعه إبراهيم باشا النمر سنة 1791م. وفي سنة 1213هـ/ 1798م تم تعيين احمد بك طوقان متسلماً على نابلس من قبل احمد باشا الجزار، إلا أن الدولة العثمانية عزلته بعد عام وعينت خليل بك طوقان بدلاً منه، وفي سنة 1216هـ/1802م، تسلمها موسى بك طوقان، ولّما مات الجزار سنة 1218هـ وعين محمد باشا أبو المرق ـ ابن والي حلب ـ والياً على الشام، قام أبو المرق بتعيين أحمد أغا الجرار متسلماً على نابلس سنة 1219هـ/ 1804م. ثم عيّنت الدولة الشيخ يوسف الجرار متسلماً على سنجقي نابلس وجنين في سنة 1220هـ/1805م، وبقي في المتسلمية إلى أن مات سنة 1222هـ/1807م[3]، وكان وكيله في المتسلمية في السنة الأخيرة

([1])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس والبلقاء،ج1، ص 108، 110، 124.

([2])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس والبلقاء،ج1، ص 205،202.

([3])الراميني، أكرم: نابلس في القرن التاسع عشر.. ص 59، عن سجل المحكمة الشرعية بنابلس رقم (6) ص337، 384، النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس،ج1، ص 202،203،ص 240 -243.

1808م ابنه الشيخ احمد أغا الجرّار.

وفي عام 1223هـ/1809م تم تعيين موسى بك طوقان متسلماً على نابلس، ثم صدر قرار من والي الشام بعزله وتعيين الشيخ أحمد أغا الجرار سنة 1226هـ /1811م[1]، وبقي الشيخ أحمد متسلماً لنابلس حتى عام 1816م حيث تم تعيين موسى بك طوقان ثم مصطفى بك طوقان عام 1818م، وفي سنة 1235هـ، 1819م قام والي الشام بعزل مصطفى بك وولى مكانه الشيخ أحمد اليوسف الجرار، ولكن القدر لم يسعفه طويلاً فوافته المنية بعد أشهر من تعيينه[2]. وبعده تم تعيين مصطفى بك طوقان سنة 1236هـ/1820م، وتبعه اثنان من خارج جبل نابلس حسين أغا، وأحمد أغا، تسلم الأول عام 1822م والثاني عام 1823م، وجاء بعدهما أسعد بك طوقان سنة 1241هـ/1825، وتبعه السلحدار خورشيد أغا عام 1826م، ثم مصطفى أغا عام 1827م..

وفي سنة 1244هـ/1828م حصل الشيخ عبد الله الجرّار على متسلمية
نابلس، ثم تسلمها مصطفى بك طوقان عام 1829م، وفي سنة 1246هـ/ 1830م قام عبد الله باشا والي صيدا بتعيين الشيخ عبد الله اليوسف الجرار متسلماً على نابلس، ولكنه عزله عام 1831م لأنه رفض جمع الضرائب التي طلبها عبد الله باشا من جبل نابلس وأدّى ذلك إلى حصار باشا صيدا لقلعة آل جرار في صانور.

ثم رأى عبد الله باشا أن يبعد آل جرار وآل طوقان عن حكم نابلس، فعهد بالمتسلمية سنة 1247هـ/1831م إلى الشيخ محمد القاسم شيخ نواحي جماعين[3].

([1])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس والبلقاء،ج1، ص 250.

([2])مناع، عادل: أعلام فلسطين..ص71، إحسان النمر: تاريخ جبل نابلس والبلقاء،ج1، ص 284.

([3])الراميني، أكرم: نابلس في القرن التاسع عشر.. ص 60، عن سجل (9) ص397 وعادل مناع: أعلام فلسطين..ص73.

ولما بدأ الحكم المصري للبلاد قام إبراهيم باشا بتعيين الشيخ سليمان عبد الهادي متسلماً على نابلس سنة 1249هـ1833م، وبعد خروج إبراهيم باشا من البلاد تم تعيين الشيخ صادق الجماعيني عام 1256هـ/ 1840م متسلماً على نابلس، ثم عاد الشيخ سليمان عبد الهادي للمتسلمية في نفس العام وتبعه الشيخ محمد عبد الهادي سنة 1257هـ/ 1841م، وتسلم بعده حاكم تركي عام 1845م.

وفي عام 1847م تولى المتسلمية سليمان بك طوقان، وتبعه محمود بك عبد الهادي عام 1851م ثم أمين بك " تركي " عام 1852م، وعلي بك طوقان 1853م، ومصطفى حمدي بك " تركي " سنة 1854م، ثم محمود بك عبد الهادي سنة 1855م، وبعد ذلك تسلمها حكام من خارج جبل نابلس من سنة 1858م حتى سنة 1900م[1].

وقد كان طابع السرعة في تغيير الولاة والمتسلمين مظهراً بارزاً في سياسة الحكم العثماني.. مما أوجد تنافساً بين عائلات جبل نابلس، بلغ حد الاقتتال في بعض الأحيان، ولكن أهل هذا الجبل امتازوا في تلك الفترة رغم التنافس الواقع بين العائلات المحلية بالاتحاد ضد الخطر الخارجي، والتعاون لمقاومة أي حاكم جديد إذا فرض عليهم من خارج الجبل.. وظهر ذلك جلياً في اشتراكهم جميعاً ضد نابليون بونابرت الذي غزا فلسطين عام 1231هـ/1798م،وحصل أيضا حينما أتحدث عائلات جبل نابلس لمقاومة حصار عبد الله باشا لقلعة صانور سنة 1246هـ/ 1830م[2]،كما حصل أيضا في وقوف معظم عشائر جبل نابلس ضد إبراهيم باشا المصري حين فرض سلطانه عليهم.

حكام متسلمية " نابلس "	من	إلى

(1)الراميني، أكرم: نابلس في القرن التاسع عشر.. ص 181.

(2)الشهابي، الأمير حيدر: لبنان في عهد الأمراء الشهابين – ق 2، ص 808.

1- الشيخ المشاقي	في أواخر القرن السابع عشر	وأوائل الثامن عشر
2- علي أغا جوربجي النمر	من العشرينات في القرن الثامن عشر	1150هـ/1737م
3- محمد أغا جوربجي النمر	1150هـ/1737م	1170هـ/1756م
4- عمر أغا النمر	1170هـ/1756م	1177هـ/1763م
5- مصطفى باشا طوقان	1177هـ/1763م	1189هـ/1775م
6- الشيخ يوسف الجرار	1189هـ/1775م	1204هـ1790م
7- أسعد بك طوقان	1204هـ1790م	1205هـ/1791م
8- إبراهيم باشا النمر	1205هـ1791م	1213هـ/1798م
9- أحمد بك طوقان	1213هـ/1798م	1214هـ/1799م
10- خليل بك طوقان	1214هـ/1799م	1216هـ/1801م
11- الشيخ يوسف الجرار	1216هـ/1801م	1217هـ/1802م
12- موسى بك طوقان	1217هـ/1802م	1219هـ/1804م
13- الشيخ احمد اليوسف الجرار	1219هـ/1804م	1220هـ/1805م
14- الشيخ يوسف الجرار	1220هـ/1805م	1222هـ/1807م
15- أحمد اليوسف الجرار [وكيلاً عن والده]	1222هـ/1807م	1223هـ/1808م
16- موسى بك طوقان	1223هـ/1809م	1226هـ/1811
17- أحمد أغا اليوسف الجرار	1226هـ/1811م	1232هـ/1818م
18- موسى بك طوقان	1232هـ/1816م	1234هـ/1818م
19- مصطفى بك طوقان	1234هـ/1818م	1235هـ/1819م
20- أحمد أغا اليوسف الجرار	1235هـ/1819م	1236هـ/1820م
21- مصطفى بك طوقان	1236هـ/1820م	1238هـ/1822م
22- الحاج حين أغا " تركي"	1238هـ/1822م	1239هـ/1823م
23- أحمد أغا " تركي "	1239هـ/1823م	1241هـ/1825م

24- أسعد بك طوقان	1241هـ/1825م	1242هـ/1826م
حكام متسلمية " نابلس "	من	إلى
25- السلحدار خورشيد أغا " تركي"	1242هـ/1826م	1243هـ/1827م
26- مصطفى أغا " تركي"	1243هـ/1827م	1244هـ/1828م
27- الشيخ عبد الله اليوسف الجرار	1244هـ/1828م	1245هـ/1829م
28- مصطفى بك طوقان	1245هـ/1829م	1246هـ/1830م
29- الشيخ عبد الله اليوسف الجرار	1246هـ/1830م	1247هـ/1831م
30- الشيخ محمد القاسم	1247هـ/1831م	1249هـ/1833م
31- الشيخ سليمان عبد الهادي	1249هـ/1833م	1256هـ/1840م
32- الشيخ صادق الريان الجماعيني	1256هـ/1840م	1256هـ/1840م
33- الشيخ سليمان عبد الهادي	1256هـ/1840م	1257هـ/1841م
34- محمد أفندي عبد الهادي	1257هـ/1841م	1262هـ/1845م
35- حاكم تركي	1262هـ/1845م	1264هـ/1847م
36- سليمان بك طوقان	1264هـ/1847م	1268هـ/1851م
37- محمود بك عبد الهادي	1268هـ/1851م	1269هـ/1852م
38- أمين بك " تركي"	1269هـ/1852م	1270هـ1853م
39- علي بك طوقان	1270هـ1853م	1271هـ/1854م
40- مصطفى حمدي بك " تركي"	1271هـ/1854م	1272هـ/1855م
41- محمود بك عبد الهادي	1272هـ/1855م	1275هـ/1858م
42- حكام من خارج جبل نابلس	من1858م	إلى 1900م

سياستهم الداخلية:

اتسمت السياسة الداخلية لحكام جبل نابلس في هذه الفترة بعدة أمور، أهمها:

1- النضج السياسي: فقد أغلقوا جبل نابلس بوجه الغرباء وحرصوا
على الإستقلال الذاتي، فتسنى لهم تطبيق الأساليب التي تتفق مع وحدتهم واستقلالهم وتأمين حريتهم والمحافظة على حقوق جميع الأفراد، وقد نجحوا نجاحاً كبيراً في تطبيق هذه القواعد والأساليب، وسادت بينهم أمثال سياسية حكيمة تدل على النضج والاستقرار تناقلتها الأجيال حتى عهدنا الحاضر..وقد أورد الأستاذ إحسان النمر في الجزء الثاني من كتابه " تاريخ جبل نابلس
والبلقاء " ص 360-363 مجموعة من هذه الأمثال السياسية التي تدل على الحكمة، فمن رغب في معرفتها فليرجع إلى ذلك الكتاب.

2-استعمال الشدة في موضعها واللين في موضعه: لقد عرف حكام وأمراء جبل نابلس في ذلك العهد ما يجب اتباعه من الأساليب حسب الظروف والطباع، فاستعملوا الشدة والقسوة لأهلها، واستعملوا اللين والرحمة لمن يستحقها..ولذا كان في كل بيت من بيوت الحكم والإمارة فريق للشدة والبطش وفريق للّين والرحمة.. يقول الأستاذ إحسان النمر في كتابه " تاريخ جبل نابلس والبلقاء" [1]، " وهذه سياسة عربية قديمة.. فبينما كان يوسف النمر بطاشاً شديداً ضرب بسيفه المثل، كان أخوه علي أغا النمر لينا رحيماً ضرب بعدله المثل، فقد بدأ حكمه بتخفيض نحو نصف الضرائب، وكان محمد أغا النمر شديداً بطاشاً بينما كان عمر أغا النمر رحيماً حليماً..وقد كان آل جرار كذلك فبينما كان الشيخ إبراهيم بطاشاً كان الشيخ يوسف حليماً كريماً، وهكذا أولادهم فبينما كان داود

([1]) النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس والبلقاء،ج2، ص 360-363.

أغا شديداً كان أحمد أغا ليناً سمحاً، وكان آل طوقان على شيء من هذا فبينما كان أحمد بك حليماً كان مصطفى باشا شديداً،وكذا فبينما كان موسى بك يمثل القسوة وحب القهر كان الحاج محمد بك تقياً ورعاً، وهكذا كان آل عبد الهادي في حكمهم الشيخ حسين وولده سليمان للشدة، ومحمود بك للّين فالذي يتضايق من الأولين كان يلجأ إلى محمود بك".

3- الشورى والتعاون: تمتعت البلاد في هذا العهد بحرية تامة فلم يكن شيء من الضغط وكان الجميع آمنين على حقوقهم وعقائدهم وتقاليدهم، وكان كبراؤهم يتشاورون في الصغيرة والكبيرة، وكان الاتصال بالأمراء والحكام ميسوراً، فكان الحاكم يجتمع بالقاضي والمفتي والنقيب والمير ألاي، وكانت دواوين الأمراء والشيوخ تعج بشيوخ القرى والحمايل، فإذا دخل الديوان مستنجد أو مظلوم وامتنع عن شرب القهوة أطرق الأمير ولم يسقه حتى يسقيه جميع الشيوخ، وبهذا يظهر أن الأمر شورى بينهم وأن الأمير أو الرئيس يربطهم
بهذه الطريقة، فلم يكن التعامل على أساس حاكم ومحكوم وإنما كانت أُخوّة وشورى وتعاون على رد الأذى..

لقد ساس أمراء جبل نابلس الشعب سياسة تتفق مع عقيدته وأعرافه، وكان الكل يرجع إليهم في شؤونه كخبراء ومجربين فيأخذ برأيهم مفتخراً ومتمثلاً بقولهم: " الشور من أهل الشور بسوى قبيلة، والشور من غير أهله راح دمار". .أما دعاية الفوضى والظلم التي أشيعت عن جبل نابلس فهي مغلوطة،وهي للدور الذي تلى هذا العهد، والذي بدأ بعد دخول إبراهيم باشا المصري إلى فلسطين وأثار من الفتن ما أثار وقسم البلاد إلى فريقين، ومع هذا فإن الأشخاص من الفريقين كانوا ينظرون إلى شيوخهم نظرة عالية وفوق الإنقسام فيتصلون بهم لأي أمر لازم.

4- الأخوّة والاتحاد: كان أمراء وشيوخ نابلس يدركون أن عزتهم قائمة على اتحادهم فكانوا يعملون على التضامن والاتحاد،وإذ كانت الدولة العثمانية تقسم جبل نابلس إلى لواءين: اللجون " جنين " ونابلس.. فقد حرصوا على أن يكون حكام المقاطعتين منهم.. يقول إحسان النمر في

الجزء الثاني من كتابه " تاريخ جبل نابلس" [1]، كان حكام اللجون من آل الشافعي ثم ظهر آل جرار فاستمروا يحكمونه، ولما حكم آل طوقان بالاتفاق مع ولاة الشام والجزار صار آل النمر يوحدون جبل نابلس بأن يضم حكم نابلس للشيخ يوسف الجرار.. وكلما حاول الجزار تعيين متسلم لجنين من رجاله ثار جبل نابلس جميعه، وهكذا ظلوا يعتبرون وحدة البلاد مصلحة مشتركة كما يظهر من الكتاب الآتي وعليه تواقيع شيوخ آل جرار، وهو مع بساطته يعبر تعبيراً صادقاً عن وحدة المصالح".

صورة الكتاب: [2]

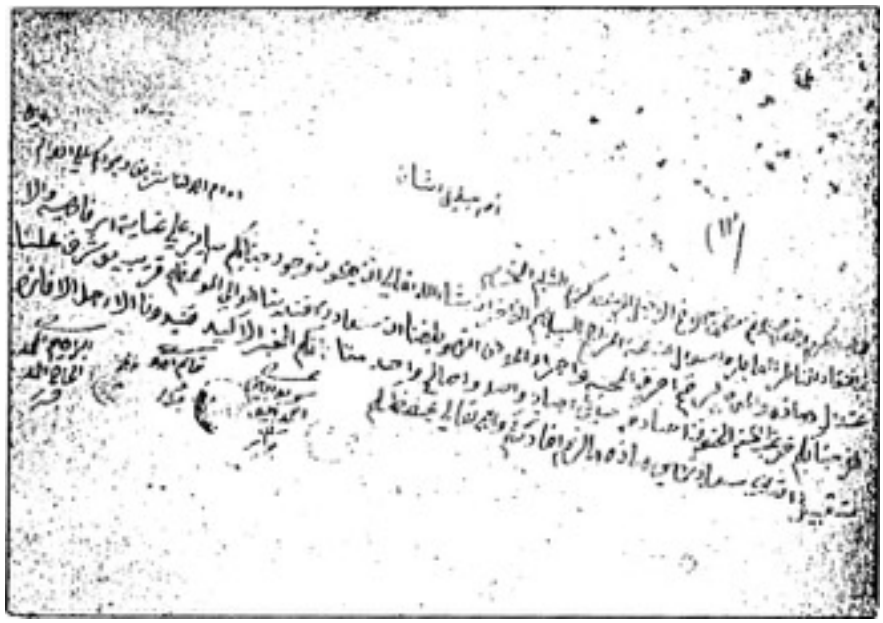

(1)النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس والبلقاء،ج2، ص 368-369.

(2)النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس والبلقاء،ج2، ص369.

الجانب الأكرم والمقام الأفخم حضرة الأخ الأجل الأمجد كريم أغا جليل الشأن

الشيم المحترم أدام لنا شريف وجودكم على الدوام آمين

غب افتقاد الخاطر العاطر والسؤال عن صحة المزاج السليم الفاخر إنشاء الله تعالى أن يكون وجود جنابكم حايز على غاية الرفاهية والاعتدال هذه والموجبة لرقيم أحرف المحبة وإجراء المودة أنهو بلغنا إن سعادة أفندينا الوالي المعظم قريب يوشرف محلناطرف جنابكم فنرغب من الخوت أصادقة حيث أجايز واحدا وأصالح واحد متابلغكم الخبر الأكيد تفيدونا الأجل الأفازة بتقبيل أنك سعادتهم هاذه ما لزم أفادتكم والله تعالى يحفظكم.

"الختم " سربوابين " الختم" قاسم داود جرار "الختم" إبراهيم المحمد

أحمد أحمد اليوسف عبده جرار إبراهيم الحاج أحمد

جرار قاسم جرار

م42ج2 تاريخ جبل نابلس والبلقاء

5- الإخلاص والطاعة: كان يسند أمراء وشيوخ جبل نابلس شعب قوي مخلص يطيعهم ويلبي نداءهم دون سؤال.

لا يسألون آخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

لقد كان الشعب في جبل نابلس قبل هذه الفترة مثال التمرد والعنت إلا أنّ ما شاهده من جرأة وإقدام أمرائه وشيوخه ملك قلبه وأسلس قيادة وأصبح يطيعهم طاعة عمياء.. يقول المعلم إبراهيم العورا في كتابه " تاريخ ولاية سليمان باشا " عن تضحية شعب جبل نابلس بالمال: " وأما أموالهم فهي مباحة لمشايخهم بدون حساب، ومتى قال شيخ منهم إلى شيخ القرية

عليك توريد عشرة آلاف، يطيع كلمته كأنها بارزة من عند الله". . وقال عن الطاعة والنجدة: " وبما أن أهالي تلك الجبال أحوالهم غريبة أولا بطاعتهم العمياء إلى كبارهم ومشايخهم ومتأصلين بهذا المقدار، وذلك إذا كان فرضاً قرية من قرايا مشيخة بيت الجرار بل بأكثر من أقارب لهم وموجود بينهم نسب قديم أو حديث وكان غرضهم إلى البرقاوي فمتى حضرت لهم قطعة ورقة صغيرة من البرقاوي فيها: ورفاقنا أهالي القرية الفلانية يقتضي توافونا في بارودكم إلى المحل الفلاني لأجل الحرب مع فلان.. فإذا كانوا يتعشوا يتركوا العشاء، ويصرخوا " ياهوا!" يأخذوا بارودهم ويتوجهوا بكل فرح وسرور كأنهم متوجهون إلى وليمة " أو إلى فرح"، فبهذا سادوا وحمدوا، وبهذا الشعب الطائع العجيب المخلص نالوا شهرة وهيبة ملأت الآفاق إذ كانت إرادتهم تنبعث من رؤوس أمرائهم لا مستوردة من الخارج [1].

6- التصرفات الحكمية: لقد كانوا حكماء في تصرفاتهم الداخلية والخارجية.. فقد كانت مهمة الحكم في هذه البلاد صعبة جداً لما في شعبها من حدة الطبع الذي ينتج عنه سرعة الاشتباك بين العشائر، ولهذا كان الأمراء والشيوخ الكبار يحتاطون لهذا بأن يجمعوا حولهم الأفراد الشجعان المخلصين العديمي العصبيات، الذين يقفون بهم بين العشائر المتصادمة، وكانوا يستعملون

حكمتهم فيشغلون دائماً بالمصالحات بين العشائر، وكانت حلولهم متينة وحكيمة..

كان التصدر للإمارة يتطلب حكمة وحصافة ووقوفاً على التشريع الإسلامي والأعراف التي كانت سائدة بين الناس، وكان يتطلب النفقات الكثيرة من أموالهم وأملاكهم التي يبذلونها في عمل الخير وللصالح العام.

7- الحزم والتعقل تجاه الاخطار الخارجية: كانوا إذا نزلت بهم نازلة تناسوا ما بينهم من منازعات وعملوا بصراحة وحزم في مخاطباتهم،

([1])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس والبلقاء،ج2، ص 371.

وأفضل الأمثلة قصيدة الشيخ يوسف الجرار يوم الفرنسيين، والتي وجهها إلى شيوخ جبل نابلس، فهبوا على أثرها صفاً واحداً.. وقد زحف أحمد بك طوقان مع الشيخ يوسف الجرار على المرج معاً ـ مع كان بينهما من خلاف ـ فكانوا يقدرون المواقف حق التقدير، فإذا وقف أحد الأمراء موقفاً مشرفاً ضد معتد قدره الجميع[1].

سياستهم الخارجية:

اتسمت سياستهم الخارجية أيضا بصفات أهمها:

1- إعلان الطاعة للسلطان دائماً: كان شيوخ جبل نابلس عقلاء حقاً، إذ كانوا يدركون روح ذلك العصر،فكانوا يرون وجوب الاتصال بالسلطان دائماً وإعلان الطاعة له، وبهذا يمكنهم مخالفة الولاة وعدم طاعتهم إذا ظلموا.. ومع هذا فقد كانوا يعصون أوامر السلطان إذا كانت مخالفة للقواعد الأساسية التي كانوا يقرّونها.

2- عدم الإذعان لمطالب الولاة والباشاوات: كان جبل نابلس يعترف بالمبلغ المطلوب منه والمحدد من ضرائب الأرض الميري، ولا يعترف بشيء آخر من مطالب الولاة والباشاوات الغير محدودة والتي كانوا يفرضونها على الناس تحت أسماء متعددة منها " الفردة " وغيرها، وكان جبل نابلس يرفضها ويثور من أجلها لأن الوصول إلى العاصمة كان غير متيسر.

وقد عرف الولاة هذا فيهم فصاروا يدارونهم كما قال المعلم إبراهيم العورا في كتابه " تاريخ ولاية سليمان باشا " عن أحوال جبل نابلس:

" وبما أنهم تابعون إيالة الشام وأحوالهم مع ولاة الشام في ذلك الوقت مشهورة لأن الوالي دايماً أحكامه عليهم بالمدارة والذي يريدوه من أوامر ينفذوه والذي لا يريدوه لا ينفذوه ولا يستطيع أن يتعارضهم ولا يمانعهم أحد ".

وهذا بالطبع بعد دروس قاسية من جبل نابلس.. وقال إبراهيم العورا في تاريخه المذكور أيضا: وهكذا يبقى الوزير بحال الاستقامة ماشياً

([1]) النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس والبلقاء،ج2، ص 373.

معهم حسب الترتيب بدون زيادة، وإذا نظروا منه شيئاً مخالفاً للرسوم المعتادة فلا يقبلون ولا يطيعون، وإذا لاحظوا أنه يريد أن يمشيه غصباً ينفردوا عنه ويرجعوا إلى محلاتهم ويعطوا العصاوة وجملة مرات أرجعوا الوزراء بأورديهم " بجيوشهم " غصباً وما اكتفوا بهذا بل أرسلوا من طرفهم من ينهب الأوردي، ويلتزم الوزراء أن يسرعوا برجوعهم على صفة الهاربين منهم ويلتزموا الالتماس إلى ولاة صيدا كي يساعدوهم بأمر تحصيل مال الدور" [1].

3- تأمين طرق القوافل والمسافرين: كانت نابلس مركزاً تجارياً هاماً وكان الأمراء والشيوخ تهمهم هذه الناحية كثيراً إذ كانوا يهتمون بتصريف المواد الخام التي تنتج في أراضيهم وكرومهم، وكذلك تصريف إنتاج مصانع ومعامل نابلس.

هذا من الناحية الاقتصادية، وهناك ناحية أخرى تتعلق بكرامتهم وهي أن أي مساس بإنسان في ديرتهم أو أي قادم إلى ديرتهم يعتبرونه مساساً بهم وإنهم مسئولون عنه إلى حد كبير، وما كانوا ينتظرون من الولاة أن يقوموا بتأمين الطرقات ولا بتأديب المعتدين على قوافلهم في المقاطعات المجاورة لأنهم يرونهم عاجزين عن ذلك، ولهذا فإنهم يقومون هم بذلك فيضطرونهم إلى الشكوى للولاة وبالتالي إلى إعطاء تعهدات بالمحافظة على قوافل نابلس والمسافرين إلى نابلس، فأوجدوا الأحلاف الذين يقومون بواجب المحافظة وتأمين جميع الطرق المؤدية إلى جبل نابلس.

جبل نابلس.. والولاة العثمانيون:

اهتم الولاة العثمانيون في دمشق وصيدا بأمرين أساسيين في علاقاتهم بالقادة المحليين.. الاول: تأمين سلطة الدولة عليهم، والثاني: جمع الضرائب المختلفة لا سيما أموال الميري..

ولم تكن العلاقات بين جبل نابلس والولاة العثمانيين تسير على وتيرة

([1])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس والبلقاء،ج2، ص 376.

واحدة، بل كانت تتغير وتتأثر حسب الظروف والأحوال.. لقد اعتادت نابلس على الإستقلال الذاتي، وعدم الخضوع لحكام من خارج المنطقة، فقد اشتهر سكان جبل نابلس بشدة البأس وصعوبة المراس.. نقل إحسان النمر عن إبراهيم العورا قوله: " وبما أنهم تابعون إيالة الشام وأحوالهم مع ولاة الشام مشهورة والذي يريدوه من أوامر ينفذوه والذي لا يريدوه لا ينفذوه ولا يستطيع أحد أن يعارضهم ولا يمانعهم" [1].. " وطالما أعيا ذلك الجبل ولاة عكا كالجزار وخلافة إبان تقاضى الجبايات وتنفيذ بعض الأوامر" [2]، وربما فرضت طبيعة المنطقة الجغرافية الجبلية على سكان نابلس هذا السلوك.

ولذا كانت العلاقات بين جبل نابلس والوالي تسوء إذا حاول الوالي فرض سيطرته المباشرة على نابلس، وهذا ما حصل عندما حاول الجزار أن يحكم المنطقة بمماليكه وأنصاره، فعصى الشيخ يوسف الجرار- شيخ نابلس - وتحصن في قلعة صانور، وحاصر الجزار قلعة صانور ولكنه فشل في إخضاعها " وما أخذ منها حق ولا باطل بعد ما ضرب عليها قنابر ومدافع وما استفاد شيئاً فأدركه الحج فرحل عنها" [3]. وروى الدكتور ميخائيل مشاقة حادثة طريفة وقعت للجزار بصانور قال: " إن الجزار كان يحاصر صانور وكان في السجن - سجن الجزار بعكا - مع الأمير يوسف الشهابي رجل اسمه إبراهيم عزام، وقد سجنه الجزار لا لذنب، بل لأنه فرض عليه غرامة كبيرة فلم يستطع دفعها، وكان له ولد اسمه خليل في خدمة الجزار في استلام الذخاير الحربية، وأمر الجزار بلغم القلعة فلما اشتعل اللغم ارتد على العسكر فقتل كثيرين منهم، فكتب خليل عزام إلى أبيه في السجن يخبره بذلك بحروف اصطلاحية بينهما، ودس الكتابة في رغيف خبز فعثر السجان عليها وأرسلها للجزار، فسلمها إلى الكتاب فقرأوها له وإذ هو يبشر أباه بما حدث في صانور ويقول له أن يبشر الأمير يوسف بذلك لعله يكون الوالي على عكا بعد الجزار.. فلما

([1])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس والبلقاء،ج2، ص 337.

([2])أبو شقرا، يوسف خطار: الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية، ص 17.

([3])القاري، رسلان بن يحيى، الوزراء الذين حكموا دمشق، ص 88.

وقف الجزار على مضمون الكتاب أمر بشنق الأمير يوسف والشيخ غندور وإبراهيم وولده خليل فشنقوا الأربعة" [1].

إن الجزار الذي شن حرباً على نابلس عاد يتودد لها، وذلك حينما زحف نابليون على فلسطين من مصر قاصداً احتلال عكا 1213هـ/ 1798م فأرسل إلى زعماء نابلس يطلب منهم نسيان الماضي، والعمل على إرسال العساكر والذخاير من بلادهم[2]، واستجاب النابلسيون له، ولمراسيم الدولة التي حثت سكان الشام على الجهاد، واشترك أبناء جبل نابلس في صد الهجوم على عكا، كما شاركوا وقادوا المعارك التي وقعت في مرج ابن عامر، وكانت الدولة العثمانية قد أصدرت منشوراً إلى أهالي الشام، عددت فيه مساوئ الفرنسيين ومساوئ ثورتهم، وبينت مواقفهم من الأديان، وحثت السكان على الجهاد وقالت: " فالآن يا حماة الإسلام ويا كماة المسلمين ويا أبطال الحرب والضرب يا مسلمون يا مؤمنون يا مقرون بالوحدانية كونوا على قلب رجل واحد وارفعوا من بينكم الشقاق وبدلوه بالحب في الله" [3].

كان جمع الضرائب لا سيما الميري من جبل نابلس، أهم قضية تؤثر على العلاقات بين الولاة العثمانيين والحكام المحليين في جبل نابلس. وقد دعت معظم المراسيم المرسلة من الولاة لزعماء نابلس إلى الاهتمام بالأموال الأميرية وضرورة إرسالها لطرف خزينة الوالي دون تهاون أو إهمال.. وكان الوالي إذا لم يستطع جمع مال الميري من نابلس، تخلى عنه إلى خزينة الدولة، وعندئذ كان الأوردي الهمايوني " الجيش " الموجود في نواحي نابلس يقوم بتحصيل المبلغ.

وكانت نابلس تثور على الوالي إذا لاحظت منه شدة أو إصرار على جمع مزيد من الأموال.. وقد نقل إحسان النمر عن إبراهيم العورا قوله: " وهكذا يبقى العزيز بحال الاستقامة ماشياً معهم حسب الترتيب بدون

([1])الراميني، أكرم: نابلس في القرن التاسع عشر.. ص 67..عن مجلة المقتطف: تاريخ الجزار، ص 313.

([2])الراميني، أكرم: نابلس في القرن التاسع عشر.. ص 67.. عن سجل (6) ص 378.

([3])عزتلو اسكندر بك، ابكاريوس: المناقب الإبراهيمية والمآثر الخديوية، ص 9.

زيـادة، وإذا نـظروا مـنه شـيئاً مـخالـفاً لـلرسـوم المـعتادة فـلا يـقبلون ولا يطيعون" [1].

" وقوف جبل نابلس في وجه الطامعين "

امتاز جبل نابلس في هذه الفترة بقوة حكامه وترابطهم وحرصهم على مصلحة شعبهم.. إذ كان هؤلاء الحكام من أبناء جبل نابلس، كما إن شعب جبل نابلس جميعه من القبائل العربية الأصيلة التي نزلت هذا الجبل لترابط فيه وتحرسه من الغزاة والطامعين.. وان ما كان يحدث بين هذه القبائل من خلافات لا يعدو أن يكون خلافاً عابراً يحدث عادة بين الأخ وأخيه أو بينه وبين أهله، وسرعان ما كانت تلك الخلافات تنتهي بفضل العقلاء والحكماء من أبنائه..

كانت أحوال جبل نابلس تختلف عن كثير من الولايات الأخرى التي كان معظم حكامها من خارجها، والذين كانوا يعتمدون على خليط من الناس مثل المتاولة والمغاربة والارناؤوط والأكراد وغيرهم.. ولهذا كان جبل نابلس هدفاً للطامعين الذين يرغبون في إدخاله تحت سيطرتهم والاستيلاء على خيراته، ولكن ثبات أهل هذا الجبل ووقوفهم صفاً واحداً في وجه الطامعين كان من الأسباب الرئيسية التي حافظت عليه فترة غير قصيرة قبل أن يتولاه الأغراب ويثيرون فيه الفتن.

وسوف أتعرض في هذا الفصل لعدد من الغزاة والطامعين وموقف جبل نابلس منهم.. هؤلاء الغزاة الذين ساهموا بشكل أو بآخر في أضعاف أهل هذا الجبل، وبالتالي فقد كانوا من عوامل الهدم والتخريب في أرض الرباط.

جبل نابلس.. وظاهر العمر:

كان الشيخ ظاهر العمر شيخاً للزيادنة الذين كانوا يستقرون في منطقة صفد وطبرية، وكان ذا عقل راجح ونظر ثاقب وفراسة وفروسية، وقد بدأ بروزه في سنة 114هـ/1733م حيث عين والياً على طبرية، وفي سنة 1157هـ/1744م استولى على عكا وجدد سورها ووطد حكمه على

([1])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس والبلقاء،ج2، ص 337.

الناصرة، وقام بالاعتداء على
أراضي مرج ابن عامر، ثم ذهب إلى حيفا التي كانت آخر حدود جبل نابلس فخربها ثم أنشأ بقربها مدينة أخرى باسم حيفا الجديدة وأقام برجاً لحمايتها، ثم مد يده إلى بلدتي الطيرة والطنطورة فضمهما إلى حكمه أيضا.

وقد آثار عمله هذا أمراء جبل نابلس الشيخ محمد الجرار وابنه الشيخ إبراهيم الجرار والشيخ ابن ماضي[1] " شيخ منطقة حيفا"، فكتبوا إلى الشيخ رشيد الجبر أمير الصقر وعرضوا عليه التحالف معهم ضده، فوافق هذا لأن الشيخ ظاهر لم يكن يعبأ به رغم ما كان بينهما من تحالف قديم، واخذ المشايخ يجمعون حشودهم ويستعدون.. وخرجت جموع جبل نابلس بقيادة الشيخ إبراهيم الجرار والشيخ ابن ماضي، وشعر الشيخ ظاهر بحركتهم ولكنه لم يكتشف اشتراك أمير الصقر، ثم خرج بما جمعه من رجال إلى مرج ابن عامر، وجاءه من أخبره باشتراك شيخ الصقر وعربه في الحركة فرتب رجاله ونصب كمائن للأنقضاض من وراء الخصوم بعد الاشتباك، ودارت المعركة فكتب له فيها الغلبة وانهزم خصومه بعد أن قتل منهم عدد عظيم وكان من جملة المقتولين إبراهيم الجرار الذي وقع في كمين.

ثم زحف ظاهر العمر بمجموعه نحو نابلس وضرب الحصار على قلعة صانور ولكنه لم يتمكن من دخولها ولا من الزحف إلى نابلس، وقد أرخ ميخائيل الصباغ في كتابه " تاريخ الشيخ ظاهر العمر" هذه الأحداث بسنة 1735م[2].

([1])آل ماضي: أسرة كان لها بروز في مجال الحكم والزعامة في فلسطين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين بناحية حيفا والطنطورة، وهم من قبيلة الوحيدي إحدى قبائل بئر السبع، وكان من أشهرهم الشيخ مسعود الماضي ملتزم حيفا وساحل عتليت .

([2]) دروزة، محمد عزة: العرب والعروبة،..ج5، ص183،182،176 وربما حدث خطأ مطبعي في كتابة تاريخ هذه الأحداث والأرجح أنه كان سنة (1753م) .

ولقد عظم على بني الجرار وبني طوقان زعماء جبل نابلس، وبني ماضي زعماء منطقة حيفا ما أصابهم من هزيمة، فكتبوا إلى والي الشام يستنجدون به، ولكن سليمان باشا- والي الشام- نصحهم بمصالحته لفرصة أحسن.

ولما كثرت اعتداءات الشيخ ظاهر على جبل نابلس، فقد فاجأه الشيخ يوسف الجرار بجموع جبل نابلس تدخل عليه مقرة في بلدة شفا عمرو ففر من البلدة،

وقام الشيخ يوسف بهدم قصره ثم عاد بجموعه إلى قلعة صانور.

بعد هذه الغزوة أخذ ظاهر العمر يفكر بأمر جبل نابلس وعرف أنه يقف أمام خصم قوي، فبعث رجلاً محنكاً من رجاله إلى صانور بصفة " حلاق " ليتقصى الأخبار، وكان هذا الرجل شاعراً... وبعد فترة قضاها الشاعر في صانور عاد إلى ظاهر يحذره وينصحه، ويقول:

يا دار ظاهر من بعد العمار دمار — يا دار ظاهر صرت منبت للأقحوان

ويا ظاهر ما تقدر تعادي ابن جرار — ديمي منسفه للضيف جرار

وشيخ ابنِ ميّة للشور شوار — ومقعد اختياريه والسيف جرار

بلاد القيس طاعت لابن جرار — عمود العز بسنين الغلا

***

أيا ظاهر دبر حالك وابعد المشوار — وجيب جاهة كبيرة تليق بابن جرار

والله ما يحميك إلا الموالي في حلب — أو أمير مصر أرض العز والفخار

فذهب ظاهر العمر إلى الموالي ـ شيوخ حلب في تلك الفترة ـ وكانوا على صداقة متينة مع الشيخ يوسف الجرار.. وجاء ظاهر ووجوه عشيرته مع الجاهة من شيوخ الموالي، واستقبلهم الشيخ يوسف في قرية جبع المجاورة لقلعة صانور.. ولا زال المكان الذي نصبت فيه الخيام ونزلوا فيه يسمى لحد الآن بـ" حبلة ظاهر".

وكان ظاهر العمر قد عقد حلفاً أو اتفاقاً مع علي بك الكبير أمير مماليك مصر،واستولى على بني صعب والساحل حتى مصر، فاصطدم بمصطفى بك طوقان شيخ بني صعب الذي أمده والي الشام بالسلاح والعتاد والأموال، ولكن مصطفى بك لم يثبت أما ظاهر وانسحب إلى نابلس، فتبعه ظاهر بخيوله ورجاله ومدافعه في أواخر عام1185هـ/ 1771م، وفرض ظاهر على نابلس شروطاً للصلح فرفضتها لأن فيها إرغاما على عصيان الدولة والانقياد إليه.

واستعد جبل نابلس للدفاع، ولما هجم ظاهر على نابلس ردوه سبع مرات وقتلوا مائة رجل من رجاله، فترك نابلس وتحول إلى القرى ليهدم بيوتها ويتلف زروعها ليضطر من في المدينة على الخروج إليه، وبعد أيام قضاها في تخريب القرى فاجأ نابلس من الجهة الغربية الجنوبية ونصب مدافعه في رفيديا واتجه رجاله نحو المدينة، فحملت عليهم الجرود وأخرجوهم وأخذوا بيارقهم ومدافعهم وسقط منهم فوق الألف قتيل، وبعد

هذه الواقعة طلب ظاهر مفاوضتهم، فاتفقوا معه بأن لا يتعرض لنابلس ولا تتعرض نابلس له[1].

جبل نابلس.. وعثمان باشا الكرجي:

كان أبو الذهب في سنة 1185هـ قد هاجم دمشق وأصبح بإمكانه الاستيلاء عليها وقد ساعده ظاهر العمر بكل قواه، إلا إنّ صديقه إسماعيل بك الذي كان ميالاً للدولة العثمانية حذرة من العاقبة، وأقنعه بوجوب التفاهم والاتفاق مع الدولة، فتجنب فتح دمشق، وأوقف مساعدته لأبي الذهب.

وقامت الدولة العثمانية بتعيين عثمان باشا الكرجي والياً على مصر على أن يخضع ظاهر العمر ومماليك مصر، وخولته سلطة كافية وأمدته بكل ما يلزم له، فنزل دمشق..وكان يطمع بولاية الشام، فتآمر مع مصطفى طوقان ـ الذي كان وقتها في دمشق بعد انسحابه من نابلس ـ ضد محمد باشا العظم والي الشام- الذي كان في الحجاز مع الركب الشامي- ونسبا إليه التقصير في الدفاع عن الشام ضد أبو الذهب وظاهر العمر، وكتبا بذلك إلى السلطان فصدرت الأوامر السلطانية بعزل محمد باشا العظم وتولية عثمان باشا الكرجي مكانه على ولاية الشام، وتعيين مصطفى بك طوقان أمير أمراء بلقب باشا على ألوية يافا وغزة والرملة ونابلس.

وتضايق جبل نابلس من غصب عثمان باشا الكرجي ولاية الشام من أسياده آل العظم واعتبروه ناكراً للجميل ومخالفاً لأعراف ذلك العصر الإقطاعي النبيل.

فقام جبل نابلس بتأييد محمد باشا العظم، وقام الشيخ يوسف الجرار وآل النمر وعلماء نابلس بالاتفاق مع ظاهر العمر ضد الكرجي.

([1])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس والبلقاء،ج1، ص 182-188.

وفي مصر تغلب أبو الذهب على قائده علي بك الكبير، واخذ يعد العدة للانتقام من ظاهر العمر الذي سبب له المتاعب وساعد خصمه علي بك، وفي نفس الوقت تشجع والي الشام عثمان باشا على الهجوم على ظاهر العمر وجبل
نابلس، إذ باتفاق ظاهر مع جبل نابلس أصبحت سورية الجنوبية خارجية على الدولة[1].

تحصين جبل نابلس ضد الغزاة: بلغ مشايخ جبل نابلس وظاهر العمر استعداد والي الشام وأمير لبنان للهجوم من الشمال، واستعداد أبو الذهب للهجوم من الجنوب فأخذوا يستعدون للمقاومة..وبدأ الاستعداد ببناء الحصون والقلاع، وتوالت الإمدادات وثارت النخوة من جبل الخليل إلى صفد، وتم تحصين أبراج قلعة صانور وبناء السور المحيط بها بالشيد والزيت، وبنى العطاعطة برجهم في السهل أمام مدخل وادي الشعير ـ والذي أقيم على أنقاض برج الظاهر بيبرس ـ وبنوا شونة ـ حصن صغير ـ في كفر اللبد، وبنى الجيايسة برج قلعة كور، وبنت عشيرة شبيطة شونة في عزون، وأصلحت قلعة رأس العين بنابلس، وبنيت قلعة جنين، وحصون أخرى حول عرابة وباقة وأم الفحم وغيرها، وتبارت عشائر جبل نابلس في بناء الحصون في الشمال والغرب، وكلها على المرتفعات المطلة على السهول ومداخل الأودية، وانقضت سنة 1187هـ/1773م كلها باستعدادات في مصر والشام وجبل نابلس.

ولما بلغ جبل نابلس زحف الجيوش تسابق رجاله إلى الحصون ومداخل الأودية للدفاع عنها ضد جيوش مصر والشام ولبنان، ولما كان أعظم الخطر من الشمال فقد رابط الشيخ يوسف الجرار بجموعه ومعه إبراهيم أغا النمر وعدد من مشايخ جبل نابلس في مرج ابن عامر لصد جيش الشام ولبنان[2].

وفي سنة 1188هـ/1774م زحف أبو الذهب بجيش مصر البالغ ستين ألف جندي على فلسطين، فاستولى غزة سلماً، وقاومته يافا وبعد

([1])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس والبلقاء،ج1، ص 192-197.

([2]) النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس والبلقاء،ج1، ص 197-198.

حصارها خمسين يوماً استولى عليها وقتل من أهلها خلقاً كثيراً، وكان ظاهر العمر مصمماً على الخديعة، فأخلى عكا وصفد وانسحب إلى جبل عامل، فدخل أبو الذهب عكا دون مقاومة.
وظل رجال جبل نابلس مرابطين في الحصون والأبراج ومداخل الأودية يضايقون جيش مصر ويهاجمونه أثناء مروره، ومكث أبو الذهب في عكا ينتظر أخبار والي الشام، وقام ظاهر العمر بواسطة جواسيسه بإغراء احد رجال أبي الذهب لقاء أربعة آلاف ذهبه، فدس عليه السم فقتله، أما جنوده فقد اخذوا الجثة وعادوا إلى مصر وقد استولى عليهم الذعر من رجال جبل نابلس الذين كانوا يباغتونهم أثناء انسحابهم[1].

وكان عثمان باشا الكرجي عندما صمم على مهاجمة جبل نابلس قد طلب من الأمير يوسف الشهابي - الذي تولى إمارة لبنان- أن يساعده.. وزحف جيش الشام وجيش لبنان إلى الجنوب فوجدا صفد قد أخلاها الظاهر فتوجها جنوباً حيث اصطدما بجموع جبل نابلس في مرج ابن عامر بقيادة الشيخ يوسف الجرار الذي انسحب أمامهما إلى الداخل وحاصر في قلعة صانور إلى أن قضي على أبي الذهب.. ويروي المؤرخ إحسان النمر في كتابه " تاريخ جبل نابلس ج1": إن إبراهيم باشا النمر الأمير الصوفي كان بين المدافعين عن القلعة، وأن آبار القلعة جفت في تلك الأثناء، فاستغاث الأمير الصوفي فأتت غيمة وأمطرت فوق صانور فامتلأت الآبار وتشجع المحصورون على المقاومة، وفي تلك الأثناء وصلت إلى صانور نجدات الحصون الغربية بعد انسحاب جيش مصر وباغتت جيش الشام ولبنان فأصبحوا محصورين بعد أن كانوا محاصرين، وغدوا بين هجوم النجدات من الخارج وهجوم الجموع التي في القلعة، فاضطروا على الانسحاب بعد أن تكبدوا خسارة عظيمة ولاقوا الأهوال في الأودية والسهول أثناء انسحابهم.. فقال شاعر لبنان يصف الصعوبة والهول[2]:

([1]) كرد علي، محمد: خطط الشام ج2، ص 295 .

([2])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس..ج1، ص 198-201.

جينا ابلاد جدي ما وصلها عرب ودروز والدولة تصلها

عربستان يا رب نصلها بحق البيت والعشرة الصحابا

وقال شارع جبل نابلس:

صانور يا قبة النور يا ست كل القرايا

مكتوب في عالم الغيب يا رب تحمي الولايا[0]

وكان لهذا الفوز الذي أحرزه جبل نابلس دوي عظيم فاق فوزه على ظاهر العمر قبل ذلك بسنتين، وقد أعجب النابلسيون ببسالة شيوخهم فلقبوا الشيخ يوسف الجرار بـ" سلطان البر" ولقبوا إبراهيم باشا النمر بـ" سلطان جبل نابلس".

وعاد ظاهر العمر إلى عكا وصفد واسترد الساحل كله، وقام هو وصديقه الشيخ ناصيف المتوالي شيخ جبل عامل بالاتفاق مع الأمير يوسف الشهابي ـ الذي كان لفشله تحت أسوار صانور تأثير كبير على نفسه ـ فانقلبت على والي الشام عثمان باشا الكرجي.. فالتقى جيش الشام بجيش لبنان وجبل عامل في سهول البقاع فغلب عثمان باشا، وكان محمد باشا العظم قد حرك دمشق ضده فهرب ملتجئاً إلى حماة، ونهب الدروز والمقاولة جيشه.

وبعد سقوط عثمان باشا الكرجي أعيد محمد باشا العظم لولاية الشام فعاد بعودته جبل نابلس إلى حظيرة الدولة سنة1189هـ/1775م، وفي السنة التالية حاصر الأسطول العثماني مياه عكا، وقتل ظاهر العمر وعادت البلاد إلى الدولة، وعين أحمد باشا الجزار على إيالة الساحل.. وعينت الدولة الشيخ يوسف الجرار متسلماً لنابلس بالإضافة إلى متسلمية

جنين فتوحد شمال جبل نابلس وجنوبه.. واستمر الشيخ يوسف الجرار متسلماً لنابلس حتى عام1204هـ/1790م[1].

جبل نابلس.. وأحمد باشا الجزار:

في عام 1204هـ/1790م ضمت الدولة إيالة الشام إلى الجزار وأصبح جبل نابلس داخلاً في حكمه، فبدأت الدسائس والمفاسد [2].. وذهب مشايخ جبل نابلس عند الجزار ولبسهم الخلع على حكومة بلادهم، وأما الشيخ يوسف الجرار فلم يذهب خوفاً من غدر الجزار، ولكنه أرسل الهدايا، وطلب الخلعة حسب المعتاد من ولاة الشام فلم يقبل الجزار وأمر بحضوره، ولمّا لم يطع، جهز عليه عسكراً لمحاربته، وحاصره في قلعة صانور مدة خمسين يوماً ولم يقدر على دخولها، فانسحب وعاد إلى عكا، وبعد عودته من الحج أخذ يوقد الفتن في جبل نابلس، وإذ كان حكامه من أهله فقد رأى تبديلهم تمهيداً لحكمه بمماليكه كما فعل بسائر الألوية، فعيّن أحمد بك طوقان متسماً على نابلس وعين محمد بك طوقان شيخاً على بني صعب، وقام بإقصاء محمد أغا النمر عن متسلمية القدس وتعيين مملوك له اسمه قاسم بك مكانه، وحاول إغراء الشيخ صالح السليمان شيخ حمولة الجرادات بمتسلميه جنين بدلاً من الشيخ يوسف الجرار فرفض فسمّه، وكان ذلك سنة 1208هـ[3]، وفي سنة 1209هـ/1794م هاجم صانور ولغمها فانفجر اللغم بعساكره فانسحب عنها.. وقد أوردت بعض التفاصيل عن هذه الأحداث في أثناء الكلام عن عكا وعن الجزار ويمكن الرجوع اليها، وكان الجزار كلما فشل في حصار قلعة صانور يقوم بنهب وتخريب بعض القرى وقتل كثير من الناس[4].

وخلاصة القول أن أحمد باشا الجزار لم يتمكن طيلة الفترة التي ضم فيها جبل نابلس إلى حكمه، أن يخضع هذا الجبل إلى سلطانه.. وقد

([1])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس..،ج1، ص 202-203.

([2]) النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس والبلقاء،ج1، ص205.

([3]) دروزة، محمد عزة: العرب والعروبة...ج5، ص58.

([4]) كرد علي، محمد: خطط الشام ج2، ص 302 .

أدرك فداحة الأخطاء التي ارتكبها ضد مشايخ جبل نابلس ومحاولة إذلالهم، فعاد يستسمحهم ويستنجد بهم لصد الزحف الفرنسي عن البلاد عام1799م.. فأظهر هؤلاء المشايخ من كرم الأخلاق مع الجزار، وشدة البأس والثبات في قتال الغزاة، ما أقر به عيون المسلمين وأقض مضاجع المستعمرين.

جبل نابلس.. وعبد الله باشا " والي عكا" [1].

كان جمع الضرائب لا سيما الميري من جبل نابلس، أهم قضية تؤثر على العلاقات بين الولاة العثمانيين والسلطات المحلية في نابلس، وكانت نابلس تثور وتتمرد على الوالي إذا لاحظت منه شدة أو إصراراً على جمع مزيد من الأموال.. وكانت نابلس سنة1236هـ/1820م جزءاً من ولاية دمشق، ولما لم يستطع درويش باشا والي الشام تحصيل المال المطلوب من نابلس وقدره ستمائة كيس، طلب من عبد الله باشا ـ والي صيدا وعكا ـ إرسال " مال الدورة" من نابلس، فدفع عبد الله باشا المال المطلوب عن جبل نابلس مقابل أن تضم له نابلس للسعي في جمع مبلغ أكبر، إذ تعهد عبد الله باشا برفع عائداتها إلى ألف كيس إذا أوكل أمر نابلس إليه[2]، ويبدو أن الدولة العثمانية استجابت لرغبة عبد الله باشا فأحالت إليه نابلس وأنعمت عليه بولاية القدس " على أن يورد إلى الدولة المال المرتب لطريق الحج حسب المعتاد" [3].

([1]) عبد الله باشا.. كان (خازندار) سليمان باشا العادل وأحد مماليك الجزار، خلف سليمان باشا بولاية عكا، فكان واليها قبل دخول المصريين إليها .

([2])العطار، نادر: تاريخ سورية في العصور الحديثة ج1، ص 152.

([3])الشهابي، الأمير حيدر: لبنان في عهد الأمراء الشهابين – ق 2، ص 800.

ولما فشل عبد الله باشا في تحقيق أطماعه وما أراد، جرد على نابلس جيشاً ووقعت أحداث صانور التي فصلتها أكثر المصادر التاريخية[1].

وانفرد أبو شقرا حول أحداث صانور فرأى أنها وقعت بتحريض من محمد علي باشا، ومما قاله أبو شقرا: " استسلم اللبنانيون لولاية الأمير بشير وخمد سعير حركتهم، فكان ذلك قرة عين لمحمد علي باشا الذي كان يحسب ألف حساب للبنانيين وقيامهم سداً حصيناً دون ما يتوخاه من الفتح العاجل،ويروعه رسوخ قدمي طودهم وشموخ أنفسهم، ولم يبق عقب ذلك في بر الشام بلد تخشى مقاومته ويستصعب أخذه فيكون حجر عثرة في سبيل تقدمه إلا جبل نابلس المشهور عن أهله شدة البأس وصعوبة المراس لا سيما أمراؤه آل جرار وآل طوقان فإنهم كانوا على جانب عظيم من البسالة والفروسية، وطالما أعيا ذلك الجبل ولاة عكا كالجزار وخلافه إبان تقاضى الجبايات وتنفيذ بعض الأوامر، فكانت منعته وحالته المحكي عنها أشبه بقذى في عين محمد علي، فلم يزل مترصداً فرصة تسنح له رمي ذلك الطود وهو رابض في مصر ببلايا ونوائب لا يتسنى له إبلاؤه وتقليل شبانه، حتى بدت له الفرصة السانحة وجرت رياح القدر بما اشتهته سفن آماله، ذلك أنه حدث سنة1246هـ أن شق بنو جرار وطوقان عصا الطاعة ممتنعين عن تأدية الأموال الميرية لصاحب عكا، فخابر " عبد الله باشا" محمد علي في ذلك فكتب إليه بوجوب الزحف إلى الخوارج وإصلائهم حرباً تردهم إلى الطاعة والخضوع، وكتب في ذلك إلى الأمير بشير أيضاً موجباً عليه ملاقاة عبد الله باشا بجيش عرمرم إلى نابلس فامتثل الاثنان لحربه[2].

وقد ورد في كتاب إحسان النمر " تاريخ جبل نابلس والبلقاء ج1" أن هذه الأحداث وقعت بسبب خلاف وقع بين والي الشام ووالي إياله

([1])الراميني، أكرم: نابلس في القرن التاسع عشر،ص70-74.. عن نعمة: ص 464، وأبو شقرا ص 17، وشبلي: ص 306، والدبس ج8: ص 674، والشيخ عبد الرزاق البيطار، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ج1، ص 16، والأسود: ص 313، وطنوس الشدياق: أخبار الأعيان في جبل لبنان ج2، ص 170، وعبود: ص 61، وأسد رستم: بشير بين السلطان والعزيز ص 43، ورستم باز: مذكرات رستم باز ص 28.

([2]) الراميني، أكرم: نابلس في القرن التاسع عشر.. ص 70-71..عن أبو شقرا: ص 17.

صيدا..وذلك أن عبد الله باشا ـ الملقب بالخازندار ـ عندما عين والياً على إيالة صيدا وعكا سنة 1246هـ/1830م ادعى أن جبل القدس ونابلس من متعلقاته فوقع الخلاف بينه وبين والي الشام محمود باشا الشركسي، وكتب الأخير للمتسلمين في البلدين يخبرهما بعدم إطاعة عبد الله باشا فأطاعوا تعليماته، فغضب والي عكا وعزل متسلم نابلس الشيخ عبد الله الجرار الذي رفض إطاعته، وولى على جنين مملوكه حسين أغا وأخرجها من آل جرار، ولما علم والي الشام محمود باشا بتدخل والي إيالة صيدا طلب جرود جبل نابلس لتلاقيه على صفد كي يتوجه بها مع عساكر الشام وجموعها لضرب عبد الله باشا في عكا. فخرج أحمد أغا النمر والشيخ عبد الله الجرار والشيخ قاسم الأحمد والشيخ حسين عبد الهادي بجموع جبل نابلس إلى صفد، إلا أن والي الشام خذلهم ولم يتجاسر على الحضور، فرجعت جرود جبل نابلس إلى صانور، فرأى أحمد أغا النمروالشيخ قاسم الأحمد ضرورة التفاهم مع والي عكا إلى أن تصدر أوامر سلطانية بحل الخلاف، أما الشيخ عبد الله والشيخ حسين فقد ترددا، وعرض شيوخ جبل نابلس طاعتهم على الوالي بواسطة أسعد بك طوقان إلا الشيخ عبدالله، وكذلك الشيخ حسين فقد تأخر مراعاة لخاطر الشيخ عبدالله، وكان أسعد بك مغتاظاً من الشيخ عبدالله لتوليه متسلمية نابلس ومنافسته عليها، فاغتنم هذه الفرصة وحرّض عبدالله باشا على الشيخ عبدالله والشيخ حسين، فأرسل الوالي يطلبهما إليه فذهب الشيخ حسين ليرى حالة الوالي فوجده مغتاظاً جداً من الشيخ عبدالله فعاد واعلم الشيخ عبدالله بتهديد الوالي فامتنع عن الذهاب إلى عكا. فاستعان الوالي بالأمير بشير الشهابي واتى بجموع لبنان وعساكر الايالة وفاجأ صانور وحاصرها، ولم يكن فيها سوى الشيخ عبد الله وبعض
آل جرار ومجموعة من أعوانهم، ولم يتجاسر الشيخ حسين ولا غيره من الشيوخ المجاورين من إمداد صانور، فاضطر الشيخ عبد الله على التسليم وخاصة عندما حضر إلى القلعة أسعد بك ومصطفى بك طوقان اللذان أحسنا الظن
بعبد الله باشا حيث وعدهما بالمحافظة على سلامة القلعة.. وتم التسليم بشروط منها:
أن يغادر آل جرار ومن معهم بعيالهم وجميع متاعهم خلال أسبوعين

إلى ثلاث قرى وهي: جبع وطلوزة وعصيرة، وتسلم القلعة كتخذا إبراهيم باشا وكيل عبد الله باشا في شتاء 1246هـ ولكنه خدعهم وخان العهد وهدم أسوار القلعة وأبراجها وبعض مبانيها وحرث ساحتها بالسكة والفدان، وأسر الشيخ عبد الله وأخذه معه إلى عكا[1].

وكان الوالي قد اعتقل الشيخ حسين عبد الهادي وصحبه معه إلى حصار القلعة، فظهر للآل جرار أنه اتفق مع الوالي، وظنوا أن الشيخ حسين جاء ليرشد العدو، هذا بالإضافة إلى أنه لم يقدم المساعدة للقلعة أيام الحصار مع وعد الشيخ حسين بها قبل الحصار.

بعد هدم صانور شمخ عبد الله باشا وتعالى، وحيث أطاعه جميع أمراء وشيوخ البلاد فقد أصبح في غنى عن خدمات أسعد بك طوقان فصار يزدريه فعصى وصار يبث الثورة، فعزله وطلب القبض عليه، وعين الشيخ عبد الله الجرار متسلماً على نابلس كي يساعد عساكره في القبض على أسعد بك، إلا أنه لم يساعده وتمكن أسعد بك من الخروج من جبل نابلس، وأغاظ الباشا موقف الشيخ عبد الله فعزله وولى مكانه الشيخ محمد القاسم.

وكان عبد الله باشا يعمل هذا كله تمهيداً لحكم البلاد بمماليكه كما كان يفعل سيده أحمد باشا الجزار، ولما كان على وشك عزل الشيخ محمد القاسم وتولية أحد مماليكه زحف إبراهيم باشا المصري بجيشه على البلاد فانقلب يتوسل ويوصي بالحذر كما حصل لسلفه الجزار يوم جاء الفرنسيس، ولكن جبل نابلس الذي كان في غاية التذمر وعلى وشك الثورة، عد هذا مخرجاً من حكم عبد الله باشا[2].

وورد في كتاب الأستاذ أكرم الراميني وكتاب الأستاذ مصطفى الدباغ كثير من الأحداث التي وقعت أثناء سير الجيوش لحصار قلعة صانور، وتفاصيل عن سير القتال في المناطق المحيطة بالقلعة.. يقول

([1])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس..،ج1، ص310-313، وج2ص524.

([2]) النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس..،ج1، ص314-316.

الأستاذ مصطفى الدباغ[1].

وفي سنة 1246هـ/1830م طلب عبد الله باشا والي صيدا والقدس من آل جرار أن يسلموه قلعتهم فأبوا وأغلقوا عليهم بابها ،فاعتبرهم عصاة، ووجه إليهم فرقة من جنوده بقيادة إبراهيم باشا ومعها المدافع والمعدات الحربية لمقاتلة الثائرين، وتقدمت عساكر الباشا المكونة من أخلاط من المرتزقة إلى ناحية جماعين المضطربة وقبضت على الشيخ قاسم الأحمد، وأرسلته إلى عكا، وأرسل عبد الله باشا أوامره إلى قواته بضرورة التحرك إلى آل جرار الموجودين في قلعة صانور، وكانت هذه القلعة "ذات متانة وليس لها نظير وكانت دائماً نصب عين الإيالة"[2]. ووصفها أبو شقرا بقوله: " كانت راسخة القواعد والجدران، رحيبة الفناء غنية بالماء، حشد فيها الجرار المؤن والذخائر" [3].

ولما التقى الطرفان دارت رحى الحرب واشتد القتال بضع ساعات انتصر فيها الجنود وقتلوا 94 رجلاً وقبضوا على 56 نفراً منهم، وأرغموا الباقين على الانسحاب إلى صانور والتحصن فيها.

وطال الحصار بدون جدوى، وقد أظهر المحاصرين قوة وشجاعة فائقتين وقتلوا من الجند عدداً كبيراً وتمكنوا من الاستيلاء على كثير من الذخائر وفتكوا بخفائرها مما استدعى عبد الله باشا إلى الحذر، فبدأ يفكر

بأن العصاة ليسوا ممن يستخف بهم[4]، فأرسل إلى الأمير " بشير الشهابي"

الكبير يستنجده على كبح شكيمة الثوار فاجتمع للأمير ما ينيف على خمسة

آلاف مقاتل بين فارس وراجل، وفي كانون الثاني من عام1830م وصل

([1])الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج3 –ق2، ص117

([2])الراميني، أكرم: نابلس في.. ص 72..عن رستم باز، مذكرات رستم باز، ص 28.

([3])الراميني، أكرم: نابلس في.. ص 72..عن أبو شقرا: ص 18.

([4])مشاقة: مشهد الأعيان بحوادث سورية ولبنان، ص 97.

الأمير وعسكره إلى عكا فأمر الباشا بنزوله في قصر البهجة ونزول عسكره حوله في الخيام، رحب عبد الله باشا بالأمير بشير ترحيباً بالغاً وأكرمه هو
وولده وحفيده وبعض حاشيته بخلع كثيرة وهدايا فاخرة، وحث الأمير على بذل الهمة لأخذ القلعة قائلاً: " إن لم آخذ صانور أقتل نفسي" فأجابه الأمير
إني لا أفتأ أهجم عليها برجالي حتى أدخلها[1].

سارت الجيوش اللبنانية بقيادة الأمير بشير عن طريق الناصرة حتى وصلوا إلى جنين، ووصلوا صانور في اليوم الثالث من رحيلهم عن عكا، وهناك التقى بعسكر عبد الله باشا وبقائدهم إبراهيم كتخذا الذي استقبلهم بالموسيقى وإطلاق البارود وعهدوا إليه بقيادتهم، ورتب الاثنان أمر حصار القلعة، وبدأت القوات تطلق مدافعها على القلعة بشكل كثيف " حتى أنه كان يضرب في كل نهار ما ينوف عن 250 مدفع ونحو 50 قنبرة إلى أن هدم عالي أكثر أبراجها، وحاول المحصورون في داخل القلعة الهجوم ليلاً على المحاصرين، وخاصة رجال المدفعية فأغاروا بشجاعة نادرة وشاركتهم نساؤهم في هذا الهجوم، إذ كانت تغط اللحف بالزيت وتشعلها ثم ترميها إلى خارج القلعة ليتمكن رجال القلعة من رؤية العسكر المعادي وضربهم بالبارود" [2].

ودامت المعركة ثماني ساعات، وكاد جنود نابلس يستولون على المدافع، إلا أنّ رجال الأمير بشير ردوهم إلى داخ القلعة.

هب سكان جبل نابلس لنجدة آل جرار في صانور، فكانت تأتي نجدات خارجية لمهاجمة الجيش المحاصر، وقد ذكر الشهابي في كتابه أنه كان تجاه القلعة مزار يقال له" حريش" على جبل رفيع وكان يحضر في الليل أناس من أهلي نابلوس ويشتبكون مع زلم الأمير، وتجمع البعض من أهالي الجبل ومعهم "300" خيال وأتوا إلى قرية " عجة" و" الفندقومية" قريباً من العساكر المهاجمة، وأراد عسكر نابلس منع رجال الأمير بشير من الوصول إلى المياه في القريتين المذكورتين، فحصل اشتباك بين

([1])الشدياق، طنوس: أخبار الأعيان في جبل لبنان، ص 563.

([2])الشهابي، الأمير حيدر: لبنان في عهد.. – ق 2، ص 804-805.

الطرفين تراجعت فيه عساكر نابلس إلى قرية " عجة" وتبعهم رجال الأمير ودخلوا القرية وأحرقوها، وجرت معارك أخرى في قرية " كفر راعي " وفعل عسكر الأمير بها مثلما فعلوا بقرية " عجة"، وأدرك الأمير بشير صعوبة الاستيلاء على القلعة ولذا لجأ إلى استعمال أساليب الشدة والبطش والإرهاب مع القرى المجاورة مثل " الفندقومية والسيلة والرامة والعطارة " فنهبها وحرقها[1].

أدرك عبد الله باشا إن تملك القلعة قد طال وتكلف أموالا طائلة صرفها على العسكر، هذا عدا عن خسائره في الأرواح، ولذا لجأ إلى مهادنة النابلسيين، فاجتمع بمن عنده من شيوخ جبل النار وأخبرهم أنه تنازل عن طلب المال، وحينما علم عبد الله باشا بأخبار انتصارات الأمير بشير، عاد وتراجع عن قراره، وقال للشيوخ الذين عنده:

" أنا من حلمي وشفقتي على الرعايا تنازلت معكم ولكن البابن إن أهالي بلادكم لا تنفع بهم الرحمة لأن بعد حضوركم إلى قدامي يأتوا إلى عسكر ولدي الأمير بشير ويحاربوه ظناً منهم أنهم يربحون"، ثم خوفهم بقوة الأمير بشير ورجاله، وذكرهم بوقائعه مع ولاة الشام، وأثر هذا القول في نفوس الشيوخ، فتعهدوا للوالي بأن يدفعوا له المال الذي أراد، وإنهم على استعداد للعودة إلى جبل نابلس والعمل على تسليم القلعة وإنهاء الحرب، وقد سر عبد الله باشا لما سمع، فخلع عليهم الهدايا والخلع وأرسل كتب الأمان لأسعد بك طوقان وللشيخ عيسى البرقاوي، ولكي يضمن تنفيذ وعود شيوخ جبل نابلس، أبقى أولادهم رهائن عنده.. وأخذ شيوخ نابلس وهم: حسين عبد الهادي، وقاسم الأحمد، وعيسى البرقاوي، وأسعد طوقان، في إجراء مفاوضات الصلح بين آل جرار وبين الأمير بشير، وبعدما أخذوا الأمان من الأمير بشير لآل جرار وعيالهم وأموالهم وموافقة عبد الله باشا على ذلك، ترك آل جرار صانور وسكنوا في قرى جبع وطلوزة وعصيرة.

وتسلم الأمير بشير قلعة صانور، وأرسل عبد الله باشا أمرا بهدم القلعة من الأساس وأن لا يبقى فيها حجر وتهدم وتعطل الآبار، وفعل الأمير بشير بما أمر به وزير عكا وكتب إليه يبشره بانتصاره، واستيلائه

([1])الشهابي، الأمير حيدر: لبنان في عهد.. – ق 2، ص 807 والدبس ج8، ص 647.

على قلعة صانور وقال: وبعد الاستيلاء على القلعة المنحوسة أمر بهدمها للأساس وحرث أرضها في السكة والفدان حتى صارت بلقعاً كأنها ما كانت بالوجود[1].

ومع أنّ عبد الله باشا استطاع بمساعدة من الأمير بشير الشهابي وباستخدام أساليب من الخداع والشدة وحرق القرى، والاستيلاء على قلعة صانور بعد حصار دام ثلاثة أشهر[2] إلا أنه لم يستطع فرض السيطرة على نابلس.

وأما الرجال الذين كانوا يرابطون في قلعة صانور للدفاع عنها فكانوا من "22قرية " من جبل نابلس وجبل القدس، وقد جاء في كتاب تاريخ لبنان للأمير حيدر الشهابي جدول عن هوية الأشخاص الذين وجدوا في صانور حينما سلمت في شوال 1246هـ وهو كما يلي[3]:

20 من بني زيد من بلاد القدس	6 من عظموط من بلاد البيتاوي
15 من بني مالك من بلاد القدس	4 من سنيرية
10 من قبلان من مشاريق البيتاوي	15 من جماعين
30 من عقربة من بلاد البيتاوي	12 من أهل برقة
6 من بيت دجن من بلاد البيتاوي	10 من دير شرف
25 من الدير من بلاد البيتاوي	6 من المسيلة من أولاد موسى
8 من سالم من بلاد البيتاوي	10 من قرية عجة
15 من بورين من بلاد جماعين	20من قرية عرابة
20 من قرية جيت	60من قباطية

([1])الشهابي، الأمير حيدر: لبنان في عهد..ق 2، ص808، 810،811.

([2])الراميني، ص 74..عن نعمة الله: ص 464، والدبس: ج8، ص 647.

([3]) النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس..،ج2، ص 387-388.

20من قرية تل	8 من فراسين
5 من كفر قدوم	42 المشايخ بيت الجرار

367 المجموع

جبل نابلس.. وإبراهيم باشا[1]:

في سنة 1247هـ/1831م تقدم إبراهيم باشا من مصر لاحتلال الشام..

([1]) إبراهيم باشا بن محمد علي باشا: (1790-1848م) ولد في مكدونيا، من سلالة ألبانية (أرناؤوط)، حارب في الحجاز ونجد وفي بلاد اليونان، واستولى على بلاد الشام سنة 1247هـ، ثم توغل في الأناضول مما اضطر السلطان العثماني أن يعترف بضم سورية إلى مصر، وجعل إبراهيم باشا محصلاً لولاية (أضنة) .
ولما رأى السلطان أن بإمكانه التغلب على إبراهيم باشا قاتله، ولما غلب الجيش العثماني اضطر السلطان عبد المجيد لأن يتفق مع الانجليز على إخراجه من سورية، فعاد إلى مصر، وفي عام 1846م انحرفت صحة إبراهيم باشا فسافر إلى أوروبا للاستشفاء فاحتفى به الفرنسيون احتفالاً بالغاً، ثم زار لندن إجابة لدعوة الملكة فكتوريا، فكانت الحفاوة به تفوق حد الوصف .

وسارت الحملة المصرية عن طريق البر إلى خان يونس وغزة ويافا، واحتل إبراهيم باشا بيت المقدس، وتقدم إلى عكا وضرب عليها الحصار واستولى عليها[1].

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال: لماذا نجح إبراهيم باشا في احتلال عكا؟ بينما فشل نابليون في ذلك.. والجواب إن نابليون كان في نظر الناس أجنبيا غازياً ومستعمراً، ولذا حاربه الناس وقاوموه بشدة، واختلف الموقف حينما قدم إبراهيم باشا، فلم يعتبره الناس أجنبيا إلى الحد الذي اعتبر به نابليون..

وسيطر إبراهيم باشا على معظم فلسطين دون قتال، وقدمت كثير من المدن طاعتها له كيافا ونابلس.. ومن ناحية أخرى فان نابليون لم يصبر طويلاً على حصار عكا، بفضل الضربات والإنهاك الذي لقيه جيشه في جبل النار، فلم ينتظر حتى تسقط، بينما استمر إبراهيم باشا يحاصر عكا طيلة سبعة أشهر متصلة رغم خسائره الجسيمة، إلى أن يئس المدافعون عن المدينة، وكان فرح محمد علي باشا عظيماً باحتلال ولده عكا، فأعلن الفرح والسرور بالنصر العزيز[2].

وبينما كان إبراهيم باشا يحاصر عكا، وفد عليه شيوخ جبل نابلس وهم: الشيخ قاسم الأحمد والشيخ عبد الله الجرار والشيخ حسين عبد الهادي، وقدموا له طاعة بلادهم، واتضح ذلك من قول إبراهيم باشا لمشايخ نابلس: "... تحيطون علماً من حيث أنكم قدمتم لنا الطاعة ودخلت بلادكم في حوزة حكومتنا فقد صار واجب علينا حفظها"، وأبقى إبراهيم باشا الشيخ محمد القاسم متسلماً على مدينة نابلس كما كان، وعين الشيخ حسين عبد الهادي متسلماً على جنين، وأحال بلاد المشاريق إلى عهدة الشيخ عبد الله الجرار، ومنطقة بني صعب إلى الشيخ يوسف الجيوسي والشيخ عبد الوهاب الجيوسي[3].

([1])الرافعي، عبد الرحمن: عصر محمد علي، ص 55.

([2])الراميني، ص 75..عن سامي باشا، أمين: تقويم النيل، ج2، ص 391.

([3])الراميني، ص 75-76.. عن سجل 9، ص 396.

وورد في كتاب إحسان النمر " تاريخ جبل نابلس والبلقاء ج1" عن قدوم إبراهيم باشا.. أنه لما جاء إبراهيم باشا من مصر لاحتلال بلاد الشام وإخضاع عبد الله باشا، فرحت البلاد وعدت ذلك مخرجاً، وكان الشيخ حسين عبد الهادي
شيخ الشعراوية الشرقية أول من اتصل بإبراهيم باشا وانضم إليه، وبلغه إطاعة جبل نابلس له وترحيبهم به، وأقنع آل القاسم وباقي المشايخ بالاتفاق مع إبراهيم باشا فنجح وسر منه إبراهيم باشا وولاه مكان عبد الله باشا إيالة صيدا وولى أخويه وولده وسائر أقاربه حكم البلاد فساد آل عبد الهادي في سورية الجنوبية وأصبحوا أصحاب الكلمة النافذة طيلة الحكم المصري.. إلا أن محاولة آل عبد الهادي الاستئثار بكل شيء في البلاد، ثم محاولتهم القضاء على جميع الأمراء والشيوخ أكسبهم عداوة جبل نابلس جميعه.

تولى الشيخ حسين مديرية ايالة صيدا وأصبح أخوه محمود متسلماً على يافا وولده سليمان متسلماً على جنين، وقد ضمت لآل القاسم متسلمية القدس، فصار الشيخ قاسم الأحمد متسلماً على القدس وولده الشيخ محمد متسلماً على نابلس وولده الشيخ يوسف شيخاً على جماعين[1].

وبعد أن تمكن إبراهيم باشا واستقر له الأمر في البلاد قام في سنة 1250هـ/1834م بمجموعة إجراءات تضايق منها جميع الناس، واندلعت ثورة عارمة في نابلس، وفي أنحاء أخرى من فلسطين بسبب إجراءات إبراهيم باشا الجديدة.. وكانت **أهم الأسباب التي دعت للثورة هي:**

1- شرع إبراهيم باشا بعد سنوات من احتلاله بلاد الشام، بفرض الخدمة العسكرية، ولم يكن السكان في هذه البلاد معتادين على ذلك " وطلب إبراهيم باشا من جبل نابلس التجنيد فخرجوا عن الطاعة"[2].. والسيء في نظام الجندية الذي أمر به إبراهيم باشا: " خلوه من القواعد

([1])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس..،ج1، ص 316-325.

([2])البيطار، الشيخ عبد الرزاق: حلية البشر في..ج1، ص 26.

والأنظمة، وتحديد الوقت وجهة القتال" [1] ولم يشعر الشاميون عموماً أن حكومة محمد علي في بلاد الشام هي حكومتهم، وكانوا لا ينظرون بارتياح إلى حربٍ ليست لهم فيها مصلحة، كما أن مثل هذا المفهوم لا يزال بعيداً وغريباً.

2- عزم إبراهيم باشا على جمع السلاح من الناس، وما أن بدأ بجمع السلاح حتى ثارت القبائل " ورأى الناس أن ترك أرواحهم خير لهم وأجل وأشرف
من ترك بنادقهم فكان لزاماً على إبراهيم باشا تجريدهم بالقوة[2]".

3- أرسل محمد علي باشا أوامره إلى ولده إبراهيم بضرورة فرض ضريبة الرؤوس " ضريبة الفردة " على جميع الرجال البالغين من سن الثامنة عشرة إلى سن الستين، وقد تراوحت ما بين 15-500 قرش في كل سنة وجبيت من جميع الناس، فأهاجت الخواطر..وبالإضافة إلى هذه الضريبة، فرض إبراهيم باشا(ضريبة الشونة" وهي تكليف الأهالي بتقديم حاجات الجيش من الحبوب والسمن والزيت، ونقلها إلى مراكز الجيش[3].

4- طلب محمد علي من ولده إبراهيم احتكار تجارة الحرير في البلاد الشامية واحتكار الحبوب، وكانت كل هذه الإجراءات قد طبقها في القطر المصري[4].

5- نظر الناس في بلاد الشام إلى إبراهيم باشا وحكومته على أنها مخالفة لقواعد الدين الإسلامي، فقد رأوا معه القواد والعمال من الإفرنج ومن المسيحين من أهل البلاد، وقالوا عنه انه نصراني يتظاهر بالإسلام، " وأذل أهل العلم والشرف والاحترام وأعز الأسافل والطغاة

([1]) الراميني، ص 74..عن نقولا زيادة: إبعاد التاريخ..، ص 78.

([2])الراميني، ص 77.. عن بشير رستم،.. ص 99، ص 513.

([3])الراميني، ص 77 غانم: المصريون في سورية ولبنان، المشرق،30، ص 364.

([4])الراميني، ص 77 عن رستم، ص 478.

واللئام، واستولى العسكر المصري على أكثر المساجد والمدارس والتكايا، ومنعوا المصلين من دخولها، وجعلوها لسكناهم ولدوابهم" [1]، وهكذا فقد كان الرأي العام الإسلامي في فلسطين وخاصة في جبل نابلس غير محبذ لحكم إبراهيم باشا..

يقول الرحالة كنغليك في رحلته إلى المشرق[2]: " وتعتبر نابلس مركز التعصب الإسلامي، وأذكر أنه ظهر في أسواقها ـ قبل وصولي إليها ببضعة أشهر رجل باللباس الإفرنجي، وقد اعتبر هذا تحدياً للسكان، فاهتاجوا لذلك وهاجموه في صورة جنونية إلى أن قضى إبراهيم باشا بعنف على هذا الجمود والصلف فلم يعودوا يجسرون على توجيه أي إساءة لأي أوروبي فيما بعد".

6- عمل إبراهيم باشا على إزالة نفوذ مشايخ البلاد ورؤسائها مثل آل طوقان وآل القاسم وآل جرار في جبل نابلس، وأبي غوش في جبل القدس، وآل ماضي في إجزم، وقد أخذت هذه الزعامات المحلية تتحين الفرصة للثورة على الحكم المصري[3].

7- تنافس العائلات المحلية على السلطة في جبل نابلس، فقد تقربت عائلة عبد الهادي من الحكم المصري واستطاعت الحصول على أمر بتنحية قاسم الأحمد عن متسلمية القدس وتحويلها إلى عهدة ولده محمد القاسم، وبهذا شغرت متسلمية نابلس، فأحالها الحكمدار إلى عهدة سليمان الحسين العبد الهادي، فثارت ثائرة آل القاسم بنزع متسلمية نابلس منهم، وعقدوا سنة 1250هـ/1834م اجتماعاً في قرية "بيت وزن" حضره أكثر شيوخ البلاد الساخطين على الحكم المصري ومن بينهم: " الشيخ عبد الله الجرار والشيخ عيسى البرقاوي والشيخ ناصر المنصور والشيخ عيسى القدومي والشيخ قاسم الأحمد وولداه الشيخ محمد والشيخ يوسف، واتفقوا على التمرد والثورة ضد إبراهيم

([1])البيطار، الشيخ عبد الرزاق: حلية البشر.. ج1، ص 25.

([2])رحلة كنغليك إلى المشرق – ترجمة محمود العابدي، ص 109.

([3])العارف، عارف: المفصل في تاريخ القدس ج1، ص 276والعطار: ج1، ص 172.

باشا(1).

وقد أدت هذه العوامل مجتمعة إلى اندلاع الثورة في جبل نابلس.. نقل المؤرخ محمد عزة دروزة عن سليمان أبو عز الدين قوله: " دارت المفاوضات بين آل أبي غوش وزعماء نابلس بتوحيد الكلمة على رفض مطاليب إبراهيم باشا للتجنيد وجمع السلاح وضريبة الفردة، فأسرع إبراهيم باشا إلى القدس ودعا الشيوخ والحكام إلى اجتماع، وابلغهم أوامر أبيه، وسألهم عن موقفهم فأجابوا: أنهم لا يعارضون في احتكار الحكومة للحرير، ولكنهم يعارضون أشد المعارضة في نزع السلاح وتجنيد الشباب في الجيش، وأنهم لقاء ذلك على استعداد لدفع الضريبة ضعفين كما، يقدمون بعض أولاد المشايخ رهائن لضمان طاعتهم وإخلاصهم، غير أن إبراهيم باشا أبى أن يتهاون في تنفيذ أوامر أبيه، فاستمهلوه مده يراجعون قومهم وعشيرتهم، وانفض الاجتماع على غير طائل[2].

وبدأت الثورة بين البدو بجوار البحر الميت، وتبعهم سكان جبل نابلس وتولى الشيخ قاسم الأحمد قيادة الثوار، وانضم آل أبي غوش إلى الثورة، وهاجم الثوار بقيادة " ناصر المنصور" إبراهيم باشا، ولكنه تغلب عليهم، وجاءت نجدة لإبراهيم باشا من دمشق بقيادة مصطفى بك، فكمن لها النابلسيون في مضايق عجلون وبددوها، وعمت الثورة البلاد بأسرها من صفد إلى غزة، وحاصر الثوار إبراهيم باشا نفسه في منطقة القدس، وكادوا يقضون عليه[3].. وطلب إبراهيم باشا من والده إرسال الإمدادات العسكرية، وشرح له سوء موقفه، وعزم محمد علي على المسير بنفسه، وحاول إبراهيم باشا في تلك الأثناء كسب الوقت إلى حين وصول والده،فأظهر الموادعة وقبل مفاوضة الثوار، وأعلن أنه تخلى عن ضريبة الفردة وأوقف التجنيد، وتعهد له الثوار مقابل ذلك بتقديم 15 غرارة من

---

(1)الراميني، ص 79 نقلاً عن رستم، بشير، ص 121، والنمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس.. ج1
ص 325.

(2)دروزة، محمد عزة: العرب والعروبة،..ج2، ص276.

(3)الراميني، ص 80 عن العطار ج1، ص 172، ومشاقة: تاريخ محمد علي، المقتطف، 30، ص902.

القمح [1]، ولم يفك الثوار الحصار عن إبراهيم باشا إلا بعد مقابلة الشيخ قاسم الأحمد لمحمد علي باشا الذي وصل يافا، وطلب منه المطاليب التالية:

إعفاء الأهالي من الخدمة العسكرية، وإعلان العفو العام، والامتناع عن احتكار الحبوب، وإلغاء ضريبة الفردة، وإعادة الضرائب إلى ما كانت عليه زمن عبد الله باشا، وقبل محمد علي هذه المطاليب، فعاد الشيخ قاسم الأحمد ورفع الحصار عن المصريين وعاد إلى نابلس.

ولما رأى إبراهيم باشا شدة بأس خصومه ـ النابلسيين ـ عمد إلى التغلب عليهم بالوسائل السياسية، فأوهم قاسم الأحمد بأنه مستعد لتنفيذ طلباته والعدول عن قراراته السابقة التي أدت إلى استياء البلاد، واتبع سياسة التفريق بين زعماء البلاد وتمكن من أن يستميل إلى جانبه " آل أبي غوش" [2].

وقام إبراهيم باشا بإرسال رجاله لجمع القمح فردهم سكان نابلس، فتحرك إبراهيم باشا من يافا على رأس قوة جديدة بلغت ستة عشر ألف جندي، واشترك معه الأمير خليل الشهابي، واتبع أسلوباً جديداً في معاملة النابلسيين فاستخدم سياسة الشدة والإرهاب، وحرق القرى تماماً مثلما فعل الأمير بشير الشهابي من قبل عندما حاصر صانور، ودخل إبراهيم باشا قرية الطيبة ثم حرقها، وحرق قرية قاقون، وتتبع الثوار في قرية زيتا وعتيل.

وحشد الثوار رجالهم في دير الغصون بقيادة زعمائهم " قاسم الأحمد، عبد الله الجرار، عيسى البرقاوي، ناصر المنصور" واشتبكوا مع إبراهيم باشا في قتال عنيف كان فيه النصر لإبراهيم باشا[3]، الذي تقدم إلى وادي الشعير والتقى في قلب الوادي بجموع جرار فكسرهم وانسحبوا إلى صانور ـ وكان الشيخ عبد الله قد جدد بناء سور القلعة بعد أن هدمه

([1])الغرارة: مكيال دمشقي للحنطة ويتألف من 12 كيل من أو من 72 مد، ووزنها 204.5 كغم قمح .

([2])الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج3 –ق2، ص482.

([3])الراميني، ص 81 عن لجنة من الأدباء: لبنان في مباحث علمية ج1، ص 373.

بشير الشهابي وعبد الله باشا - فحاصرهم فيها وضربها بمدافعه[1]، ولم يتمكن من دخولها فلجأ إلى الحيلة، وقام في الليل بنصب الحجارة فوق بعضها ووضع الطرابيش في أعلاها بأعداد كثيرة، ظاناً أن أصحاب القلعة عندما يرونها في الصباح يحسبون أن أعدادا كثيرة من الجنود تحاصر قلعتهم فيضطرون للتسلم، أو يطلقون عليها الرصاص من بنادقهم فتنفذ ذخيرتهم، ولكن الفزعات التي كانت تأتي إلى القلعة عن طريق الجبال ومزار " حريش " اكتشفت هذه الخدعة، وكانت هذه الفزعات تنشد الأهازيج التي تقوي المعنويات وتعمل على تثبيت المحاصرين في القلعة.. ومن تلك الأهازيج التي ما زال الكثيرون يحفظونها إلى اليوم:

إبراهيم باشا يا مغرورْ لبّست الحجر طنطورْ

كل القرايا طاعتْ لك ما عدا قلعة صانور

***

صانورا يا صانورا فيكِ اسْبوعَه ونْمورَه

يوم هَدّوا على إبراهيم خلّوا عِرّي مَكْفوره

***

عَلْبطين وعَلْبَطين دوله ما تِفْهمْ رطينْ

تسْمَعْ دَوِيّ الدولهْ شِبِه دير الطّواحينْ

***

(1)النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس..،ج1، ص 326-327،ج2ص550.

عَلْبطينْ وعلبطين دولِه ما تِفْهمْ رطينْ

لَنِذْبحكمُ يا دولِه وَنطْلِعْ فيكم دواوينْ

وشدد إبراهيم باشا حصارة على قلعة صانور، وأقام حولها المتاريس ـ التي ما زالت حتى اليوم ـ ونصب عليها المدفعية، وخاصة على جبل أبو جبين في الجهة الشمالية الغربية من القلعة وكان يقصفها كل يوم في النهار حتى هدم أعالي الأبراج وأجزاء من السور، أما أسفل السور فلم تؤثر فيه مدافعه، لأنه مبني بالحجارة الصلبة والشيد والزيت، فكانت القنابل تضرب فيه وتقع حوله، وفي الليل كان جنوده يحاولون تسلق الأسوار وخاصة في الليالي المظلمة، وكان المدافعون عن القلعة يضربونهم من أعالي السور، وكانت النساء تضع الزيت على اللحف وتشعلها وتلقيها على الجنود وهم يتسلقون ليراهم المدافعون عن القلعة فيسددون لهم الضربات، وكن يذرين الشيد فوق رؤوسهم ليقع في عيونهم.. ولما طال الحصار ونفذ الماء والمؤن من القلعة اضطرت إلى التسليم، وتوجد وثيقة في دار الكتب المصرية عن حصار إبراهيم باشا لقلعة صانور مدة ستة أشهر.. وقد اطلع عليها الشيخ توفيق جرار عام1941 عندما كان في القاهرة.

وكان إبراهيم باشا قد توجه إلى نابلس ولحق بالثوار وقادتهم الذين فرّوا إلى جبل الخليل.. وفي القدس استمال جبر أبو غوش فأخرجه من السجن وعيّن أحد أبنائه متسلماً على القدس [1].. وعن دور أبي غوش في إضعاف ثورة نابلس قال كنغليك: " لقد كان تمرد نابلس أعنف ما صادف إبراهيم باشا، فعلى الرغم من إخماد الثورة بشدة لم يحز على طاعتهم ورضوخهم لحكمه، إلا بمساعدة أحد الإقطاعيين الذي أطلق من سجنه واسمه أبو غوش، فذهب فوراً إلى جبال بلاده وأخذ يتخلق المعاذير ويدبر المكايد ليصطاد بها عصاة الجبال، ولقد أتقن عمله بالحيلة والخديعة فمكّن

([1])الرافعي، عبد الرحمن: عصر محمد علي، ص305.

إبراهيم باشا من استئصال شأفة العصاة وتمزيقهم فكافأه على ذلك بتعيينه حاكماً على القدس[1].

سار إبراهيم باشا من القدس إلى الخليل، وكان قادة الثورة قد وصلوا اليها.

- قاسم الأحمد، عبد الله الجرار، عيسى البرقاوي، ناصر المنصور- فتصدى له أهل الخليل ثم تحصنوا بها، والتقى مع الثوار في معركة دامية استمرت ثلاث سنوات انتصر فيها عليهم ودخل البلدة وأمر بإباحتها، فكان أن نهبت البلدة وقتل من سكانها قرابة ستمائة نفس، وأسر مثل ذلك من رجالها، وأرسلهم إلى عكا[2].

- ثم غادر إبراهيم باشا الخليل واتجه إلى الكرك حيث التجأ اليها الثوار فقام عربانها وأهاليها إلى قتاله، لكنه دخلها عنوة بعد خسارة كبيرة في الأرواح، وأعمل النار فيها، وخرج النابلسيون إلى السلط وتبعهم فخرج عليه بنو صخر فهزمهم وهزم العدوان وتقدم إلى السلط ودخلها.. وما زال يتابعهم حتى قبض عليهم عند شيخ قبيلة " عنزهْ وأمر بقتل زعماء الثورة وأولادهم بعد أن أرسلهم إلى دمشق وعكا والقدس[3].

واستمر الحكم المصري في بلاد الشام قرابة تسع سنين، وفي سنة 1256هـ/1840م أجبرت الدول الأوروبية الكبرى بالتعاون مع الدولة العثمانية محمد علي باشا على سحب قواته من بلاد الشام وإعادتها إلى مصر، فعادت بلاد الشام إلى الدولة العثمانية.

ثمار الحكم الوطني:

كان للحكم الوطني في جبل نابلس مجموعة من الثمار:

الأولى: إنقاذ البلاد من الحكام والجنود الغرباء:

([1]) كنغليك: رحلة كنغليك إلى المشرق، 1834-1835م،ص109.

([2])الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج2 –ق2، ص111-112.

([3])الراميني، أكرم: نابلس في القرن التاسع عشر، ص 83 ودروزة، محمد عزة: العرب والعروبة..ج5، 162.

لما كانت الدولة تعين متسلمين غرباء كانت تعززهم بجنود الانكشارية والمغاربة والمماليك وغيرهم، وكان هؤلاء يكلفون الدولة والشعب مبالغ طائلة ن ولقد كان الشعب في تعب دائم إذ كان هؤلاء يتسلطون على الناس فلا يبقون على شيء من مال أو سلع حتى العرض كان عرضه للعدوان، فكان هؤلاء الغرباء على جانب من سوء الخلق والفظاظة لأنهم نشأوا في الثكنات وكانوا لا يتزوجون وهم مجلوبون
من الخارج وغير مربوطين بعشائر ومسؤوليات.. وقد ورد في كتب المرداوي وتاريخ لبنان للشهابي وتاريخ ولاية سليمان باشا العادل لإبراهيم العورا أمثلة كثيرة في وصف هؤلاء.

ولما شكل آل النمر ألايات السباهية في جبل نابلس من أبناء البلاد، أصبح المتسلمون يستعينون بهم واستطاعوا بالتدريج أن يخلصوا البلاد من الانكشارية والمماليك وغيرهم من الجند، ولهذا صارت الدولة تعول على أبناء العشائر القوية وتختار منهم المتسلمين[1].

الثانية: تنزيل ميري نابلس وبعض الضرائب:

نظراً لما أصاب جبل نابلس في حكم الغرباء من ظلم وخراب وفساد للأمن تخربت فيه قرى كثيرة.. فقام شيوخ جبل نابلس برفع تقارير إلى الباب العالي في استانبول، فنزل الميري وبعض الضرائب عن جبل نابلس بنسبة معقولة.

الثالثة: الحكم الشعبي المقيد بالشريعة والشورى:

كان أمراء جبل نابلس شعبيين يتقيدون بالشريعة والعرف، وكانوا يحترمون الشورى سواء كانوا في الحكم أم خارجه، فكانوا يشاورون أهل العلم وعلى رأسهم القاضي والمفتي وسائر الأمراء والشيوخ، وفي ناحيتهم يشاورون شيوخ العشائر الذي يبدأون أعمالهم بزيارتهم، فلا يبتون بأمر إلا بعد إبداء رأيهم، فقد كانوا يشربون القهوة في ديوان الأمير صباحاً كي يتشاوروا في الأمور التي طرأت ثم يخرجون لأعمالهم، وهكذا في المساء.

([1])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس..،ج2، ص 541.

لقد كان أمراء جبل نابلس متدينين يتقيدون بالشريعة ويخضعون للقضاء الشرعي ثم العرفي فكان باستطاعة أي كان مقاضاتهم أمام القاضي الشرعي وكذلك العرفي[1].

الرابعة: إخلاص الشعب وحبه لحكامه الوطنيين:

كانت بيوت الأمراء والشيوخ مفتوحة لكل قاصد وكانت أموالهم مبذولة لكل

طالب، وكانت لهم مواقفهم المشهورة ضد المعتدين.. فأحبهم الشعب وأخلص لهم.. يقول المعلم إبراهيم العورا في كتابه " ولاية سليمان باشا العادل " عن شعب جبل نابلس: " وبما أن أهالي تلك الجبال أحوالهم غريبة بطاعتهم العمياء إلى كبارهم ومشايخهم ومتأصلين فيها"، ويقول أيضا: " والموت قليل الاعتبار عندهم هذا عما خص أرواحهم أما أموالهم فهي مباحة لمشايخهم بدون حساب". .

كانوا يرون أمراءهم أفضل أمراء عصرهم، فكانونا يذكرونهم في أهازيجهم ومواويلهم، وكانوا يتقدمون لخدمتهم ومساعدتهم في جميع المواقف بدون تكليف، ولقد كان هذا الإخلاص وتلك الطاعة من أكبر الأعوان على سيادة الأمن والطمأنينة في البلاد.

لقد كانوا يهزؤون بالولاة ورجالهم وهم في أشد الضيق، ومن ذلك قول سكان صانور والجموع التي كانت تأتي من جبل نابلس لنجدة قلعة صانور عندما حاصرها إبراهيم باشا[2]:

إبراهيم باشا يا مغرور لبست الحجر طنطور

كل القرايا طاعت لك ما عدا قلعة صانور

([1])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس..،ج2، ص 544-549.

([2])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس..،ج2، ص 550-551.

الخامسة: إيجاد الفتوّة والفروسية والروح الحربية:

اهتم شيوخ جبل نابلس بتربية الشباب على الفتوة والفروسية، فاوجدوا روحاً حربية كان لها أثر كبير في الدفاع عن البلاد ضد غزوات المعتدي.. لقد كانت هذه الثمرة من أجل الثمار وأفضلها، وهي التي أكسبت جبل نابلس شهرة كبيرة.

السادسة: بروز شخصية جبل نابلس:

لم تظهر شخصية جبل نابلس منذ سمي بهذا الاسم ولم تكن له شهرة كما كانت في هذه الفترة، لقد كان قبلها مسرحاً للحكام الغرباء، ولما ظهر فيه أمراء البدو الذين ينزلون في أغواره وسهوله وأوديته كآل إسماعيل وآل عبد القادر وآل طرباي بطشت بهم الدولة الواحد تلو الآخر لأنهم كانوا مختلفين، وعاد جبل نابلس مغنماً للحكام والجنود الغرباء من لبنانيين ومماليك وأكراد وأتراك ولما ظهر شيوخ هذه الفترة في أوائل القرن الثامن عشر قاموا بالقضاء على عناصر الفوضى الثلاث الانكشارية والمماليك والبدو، كما قضوا على جميع الشيوخ القدماء الذين اشتهروا بالظلم والطغيان، فأصبح باستطاعتهم التصدي للولاة المتغطرسين فقتلوا نصوح باشا التركي، واصطدموا بظاهر العمر، وعثمان باشا الكرجي، ثم بأحمد باشا الجزار، وضايقوا جيش نابليون في زحفه على عكا واصطدموا معه في عدد من المعارك، فطار صيتهم في البلاد وأصبح لجبل نابلس مركزاً ممتازاً وأصبح الولاة يرهبونهم، وصاروا يرفضون أي تكليف يجدونه ثقيلاً عليهم، ولما حاول الجزاريون إخضاعهم ثار الجبل مدة ثلاث وعشرين سنة وعاد الولاة إلى سياسة الاسترضاء[1].

([1]) النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس..،ج2، ص 552-553.

الفصل الثالث

الإمارة في جبل نابلس

- جبل نابلس بين الارتباط والإستقلال
- مظاهر الإمارة في جبل نابلس
*اللباس والسلاح
*القصور
*القلاع
*الجيش
*الفتوة والفروسية
* القدوة الحربية
- تقاليد الأمراء وصفاتهم النبيلة
- مكانتهم الشعبية

الإمارة في جبل نابلس

كان وضع جبل نابلس في القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر مساعداً لتطبيق نظام الإمارة العام في الجبل.. فكانت المدينة مركزاً لعدد

من الأمراء وكانت النواحي مركزاً للشيوخ الكبار، وكان الأمراء من آل النمر وآل طوقان وآل القاسم وغيرهم يبنون قصورهم في مدينة نابلس إلا أن أصحاب القلاع كآل جرار والجيايسة لم يفعلوا ذلك لأنهم كانوا يفضلون البقاء في قلاعهم، وكان شيوخ آل جرار عندما تسند إليهم الدولة متسلمية نابلس ينتقلون بين قلعتهم ومدينة نابلس لتصريف أمور المتسلمية وأحيانا كان المتسلم يجلس في قلعة صانور ويضع نائباً له في نابلس يصرف أمورها كما فعل الشيخ يوسف الجرار عندما كلف صديقه صالح أغا النمر بأن يكون وكيلاً عنه في متسلمية نابلس.

ولما كان جبل نابلس عرضة لهجوم الولاة الذين يطمعون في السيطرة عليه، كهجوم أبي الذهب من الجنوب الغربي وعثمان باشا الكرجي من الشمال سنة 1188هـ.. فقد قام أمراء الجبل ببناء القلاع الحصينة كقلعة صانور، والأبراج في مداخل الأودية للدفاع عن الجبل.

وكان جميع فرسان الجبل يهبون للدفاع عنه عند تعرضه لأي هجوم من الخارج، وكان الكثير منهم يرابطون في قلعة صانور للدفاع عنها ولأنهم يعتبرون ثباتها ثباتاً لجميع جبل نابلس.. وقد جاء في تاريخ لبنان للأمير حيدر الشهابي جدول عن هوية الأشخاص الذين وجدوا في قلعة صانور حينما سلمت في شوال 1246هـ فكانوا " 367" رجلاً يمثلون "22" قرية من قرى جبل نابلس وجبل القدس[1].

وأورد الكتاب أخبارا كثيرة عن النجدات الخارجية التي كانت تأتي من نابلس لمهاجمة الجيش المحاصر فذكر منها ما يلي:

" وكان تجاه القلعة مزار يقال له " حريش " على جبل رفيع وكان يحضر في الليل أناس من أهالي نابلوس فأرسل الأمير زلام ربطوا عليهم.. وفي الليل حضر إلى ذلك المزار زلم فرموا عليهم البارود وقتلوا منهم إنسان وهرب الباقون فوجدوا مع المقتول ألفين ومايتين قرش". . وورد أيضا في التاريخ المذكور " إن البعض من
أهالي نابلوس تجمعوا وصحبتهم نحو ثلاثمائة خيال عرب قاطنين في تلك البلاد وأتوا إلى قرية عجة وقرية الفندقومية، وكان العسكر يستقي من مياه

([1])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس..،ج2، ص 386-387.

تلك القريتين وأرادوا أن يمنعوا العسكر من الورود إلى تلك المياه واجتمعوا من كل فج حتى صاروا جيشاً وافرا وداهموا الأردي بغتة، وعندما وصلوا إلى قرية عنزة التي هي بالقرب من الأوردي المنصور جعلت خيلهم تغور على من يجدوه من العسكر ساير ليستقي من الماء، ثم مصباح يوم الاثنين سارت المكارية والسياسيين يستقوا من مياه عنزة وحصبتهم أربعة خيالة من عسكر الأمير فغارت عليهم خيل العرب والنوابلسة فقتلوا منهم رجلاً واحداً وجرحوا رجلاً[1].

يتبين مما أورده أن الذين كانوا في القلعة والذين كانوا ينجدونها ويهاجمون الجيش المحاصر كانوا من مختلف بلدان جبل نابلس وجبل القدس.

جبل نابلس بين الارتباط والإستقلال:

ظروف الجبل وموقعه:

عندما قامت الدولة العثمانية بإسناد ولاية دمشق لآل العظم، وتوالى ظهور أمراء من هذه الأسرة التي جعلت من دمشق مقراً لها، وأكسبت ولايتها صفة الإستقلال الداخلي لأن ضرائبها كانت تصرف على ركب الحج وإعمار البلاد.. اصطدم آل العظم أول أمرهم بجبل نابلس ثم تفاهموا معه وعرفوا عقيلته وتحملوا منه ما لم يتحمله غيرهم حتى أصبحوا يعتبرون جبلي نابلس والقدس عصبيتهم فيتفقون معهم ضد الولاة الغرباء، وبهذا تمكن جبل نابلس من التخلص من العصيان.. وفي هذا العهد قوي جبل نابلس وتحصن، وبعد ضعف أسرة العظم في أواسط القرن الثالث عشر الهجري تسرب الضعف إلى جبل نابلس.

وكان لموقع جبل نابلس الحصين أثر كبير في رد غارات المغيرين عليه،كما كان مساعداً لأهله على الإستقلال بشؤونهم الداخلية.

أما سكان جبل نابلس قبل الحروب الصليبية فكانوا خليطاً من العرب والرومان والسامريين، ولما غزا الصليبيون البلاد قتلوا وشردوا أهلها حتى النصارى فقد شردوهم للمخالفة في المذهب، واستمرت الغارات حتى لم

([1])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس..،ج2، ص 388..عن كتاب تاريخ لبنان للمؤرخ الأمير حيدر الشهابي .

يبق في البلاد أحد من أهلها، وبعد خروج الصليبين نزلت في جبل نابلس قبائل وعشائر جميعها عربية يمكن أن تتفاهم بسهولة إلا أن نزعة القيس واليمن أضعفتهم، وفي النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادي ظهر في جبل نابلس عدد من العشائر العربية القوية التي قام شيوخها خلال مدة وجيزة بالتفاهم والقضاء على الظلم وتوحيد الجبل وكان في مقدمتهم آل جرار وآل طوقان وآل النمر وآل القاسم وآل الجيوسي.. فاستقر جبل نابلس في تلك الفترة وأصبح قلعة عربية إسلامية من قلاع الدولة الهامة التي تستطيع الوقوف في وجه الغزاة الطامعين[1].

الأسس التي قام عليها الإستقلال الداخلي:

القيام بمطالب الدولة:

كان أول ما فعله حكام جبل نابلس التعهد بكفالة قلاع الحج وحراستها برجالهم الأشداء، فكفلوا قلاع الكرك ومعان والبلقاء، وشكلوا الآليات للمحافظة على الأمن في البلاد والخروج في موكب الحج، وقد قاموا بهذه التعهدات خير قيام مما جعل الدولة تأمن جانبهم وتترك لهم إدارة حكم بلادهم... وبهذه الثقة استطاعوا أن يخلصوا البلاد من العناصر الغريبه وأصبحوا هم الأمراء والحكام الإداريون والعسكريون.

الحدّ من غطرسة الولاة ووكلائهم:

كان الولاة لا يقفون عند حدود الضرائب والمخصصات التي تفرضها الدولة بل يتجاوزونها إلى فرض مطالب مختلفة يسمونها "فردة" يفرضونها على الأفراد، وكانوا يتطاولون على الناس لأوهى الأسباب.. ولكن كانت الشكاية على الولاة من الأمور الصعبة نظراً لبعد العاصمة وصعوبة الوصول إليها، وعدم مبالاة الولاة بأوامر السلطان ووزرائه أحيانا.. فلم يكن لدى الشعب الأبي إلا طريق واحد وهو الاعتماد على نفسه وهذا ما فعله أمراء جبل نابلس، فكانوا يعصون ويتمردون بل ويطردون الوالي أو وكيله المتغطرس بطريقة معروفة وهي أنهم ينسحبون من خيمته للمذاكرة ثم ينسحبون الواحد تلو الآخر معلنين العصيان ثم يرسلون رجالهم

([1])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس..،ج2، ص 521-522.

لمهاجمة جردته " عساكره" ونهبها فلا يتخلص من جبل نابلس إلا بصعوبة، ثم لا يخضعون إلا إذا تبدل.. يقول المعلم إبراهيم العورا في كتاب " تاريخ سليمان باشا العادل " في صدر كلامه عن أحوال جبل نابلس وموقف ولاة الشام منه:

" وهكذا الوزير يبقى بحال الاستقامة ماشياً معهم حسب الترتيب المعتاد دون أدنى زيادة، وإذا نظروا منه شيئاً مخالفاً للرسوم المعتادة فلا يقبلوه ولا يطيعوه، وإذا لاحظوا أنه يريد يمشيه غصباً ينفردوا عنه وينفروا منه ويرجعوا إلى محلاتهم ويعطوا جواب العصاوة، وجملة مرات أرجعوا الوزراء بأورديهم " جيشهم" غصباً، وما اكتفوا بهذا بل أرسلوا من طرفهم من يسرق الأوردي وينهبه، ويلتزم الوزراء أن يسرعوا برجوعهم على صفة الهازمين منهم ويلتزموا بأن يقدموا الالتماس إلى ولاة صيدا لكي يساعدوهم بتحصيل مال الدورة [1].

وهكذا كانوا يثورون ويعصون وكم مرة اجتمعت عليهم جيوش ولاية الشام وولاية صيدا ودروز لبنان ومتاولة جبل عامل بقيادة أمرائهم وشيوخهم فارتدوا عن جبل نابلس خاسرين.

شمول الإستقلال:

كان استقلالهم الداخلي في جميع شؤونهم الإدارية والقضائية والاجتماعية والاقتصادية والأمنية والعسكرية..

في شؤونهم الإدارية، كان حكام جبل نابلس من أبنائه، فكان الولاة يعينونهم من آل جرار وآل طوقان وآل النمر، وأخيرا من آل القاسم وآل عبد الهادي.. وقد اكتسبوا خبرة في الإدارة وحنكة جعلت التعويل عليهم أمرا لازماً، واستطاعوا أن يحولوا دون حكم الغرباء، وقد ألف الشعب حكمهم حتى بات يسندهم بإخلاص ضد الغرباء فلا يكادون يستقرون.

وكان أمراء نابلس يخفضون الضرائب عن البلاد بدلاً من زيادتها، وكان المتسلمون جميعاً يرفضون ما يطلبه الولاة من الضرائب الإضافية مراراً..

([1])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس..،ج2، ص 524..عن كتاب تاريخ سليمان باشا العادل لإبراهيم العورا.

وفي شؤونهم القضائية، كان القضاة ونواب الشرع في نابلس منها، وكانوا من بيوت العلم فيها.. وتولى هذا العمل منهم الشيخ مصطفى التميمي سنة 1157هـ، والشيخ محمد التميمي سنة1214هـ والشيخ حامد البسطامي سنة 1216هـ والشيخ مصطفى الخماش سنة 1239 هـ، والشيخ عبد الواحد الخماش سنة1247هـ.

وفي شؤونهم الاجتماعية، فقد كان لهم عاداتهم وتقاليدهم التي يرعاها الصغير والكبير في الداخل والخارج، وكانت لهم مقوماتهم في كل شيء، ولهم أهازيجهم التي يعتزون بها، والتي تملأ نفوسهم بالقوة والمنعة، وقد بلغت الفضائل الأخلاقية والآداب العرفية مبلغاً عظيماً عندهم، وكان لهم فهم وذوق دقيق في كل شيء.

وفي شؤونهم الاقتصادية، كانت بلادهم تكفي نفسها من جميع الحاجات واللوازم، فقد كانت تستورد الشيء القليل وتصدر الشيء الكثير من إنتاجها إلى الخارج، وكان لنابلس القوافل الكبيرة المحروسة برجالها والتي كانت تصل إلى بلاد نائية، وكان لها ميناء خاص ما بين حيفا ويافا يصدرون منه إنتاجهم.

وفي شؤونهم الأمنية، فقد تمكن أمراء جبل نابلس من أن يتفاهموا مع بعضهم البعض وان يقضوا على الظلم في منطقتهم، وفي الوقت نفسه قضوا على نزعة القيس واليمن، وقد قطعوا دابر اللصوص والأشقياء، وقد أخلص الشعب لأمرائه وأطاعهم طاعة تامة، حتى إن الدولة العثمانية كانت إذا حصل في البلاد إخلال بالأمن استعانت بأبناء هذه البيوت لإعادة الأمن إلى نصابه، وكانت البلاد تعيش في رخاء، وكان الأغنياء على جانب كبير من الرحمة والسخاء فكانوا يعطفون على الفقراء ويتفقدون العمال في أوقات البطالة، وكان كل شيء وراءه مقاضاة شرعية أو عرفية تضمن جميع الحقوق.. وكان العلماء والأمراء قدوة صالحة للناس يوجهونهم التوجيه الصحيح، وكانت عاداتهم وتقاليدهم عربية إسلامية يعرفها الصغير والكبير، وكانوا يحاسبون بعضهم على الخروج والتقصير محاسبة جدية وويل لمن يخالفها، وكانوا رغم الحروب والثورات التي تقع

أحيانا لا يخرجون على الأعراف والتقاليد التي كانت راسخة بينهم.. ولهذا كانت البلاد تنعم بالأمن والرخاء[1].

مكانة جبل نابلس:

أقام شيوخ جبل نابلس إمارتهم على أساس الطاعة للسلطان وتوطيد الأمن في البلاد وحراسة الحجاج، إلا أنهم لم يرضخوا لمطالب الولاة والوزراء ولم يدفعوا سوى ما يطلب منهم، وبهذا ساروا على سياسة إظهار الطاعة للسلطان ثم حماية البلاد من غطرسة الولاة ورجال الدولة، وبهذا ضمنوا حماية شعبهم والتخلص من المآزق الحرجة..

لقد كانوا جميعاً يدعون للسلطان بالنصر، وفي نفس الوقت كانوا إذا عين عليهم حاكم غريب أو بغير رأيهم عاكسوه وقاطعوه وثاروا عليه، مع استعمال عقولهم وسلوك أشرف الأساليب للمحافظة على كيان البلاد وكرامتها، وعلى هذه الأسس قامت عزة جبل نابلس.. يقول المعلم إبراهيم العورا في كتابه " ولاية سليمان باشا العادل " عن علاقة ولاة الشام بجبل نابلس: " لأن الوالي كانت أحكامه عليهم بالمدارة فالذي يريدوه من أوامر ينفذوه والذي لا يريدوه لا ينفذوه ولا يستطيع أن يتعارضهم ولا يمانعهم" [2].

لقد حافظ جبل نابلس على كيانه وكرامته وذاد عن حماه، ونشأ أبناؤه على العزة والغيرة وكان الصغير والكبير منهم يثور لعزة بلاده وكرامتها ومهما بلغ الخصام بينهم فكانوا يتناسون كل شيء بمجرد شعورهم بزحف غريب أو وقع ظلم من الولاة.. وقد سجل لهم التاريخ مواقف مشهورة كان منها ثورتهم على إسماعيل باشا العظم ـ والي دمشق ـ لتجاوزه حدود الضريبة، ومقاومة ظاهر العمر، وعثمان باشا الكرجي، وأحمد باشا الجزار، ثم وقوفهم في وجه الحملة الفرنسية وقتلهم القائد دوماس وتمزيق فرقته، والتحرش بالجيش الإفرنسي وعلى رأسه نابليون في مدخل وادي الشعير، ومحاصرة كليبر في المرج وثورتهم على الحكم

([1])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس..،ج2، ص 532.

([2])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس والبلقاء،ج2، ص 535..عن كتاب " ولاية سليمان باشا العادل " للمعلم إبراهيم العورا.

المصري..

يقول إحسان النمر في كتابه " تاريخ جبل نابلس والبلقاء ج2" : " لقد صمد آل جرار ثلاث مرات في حصار صانور، الأولى ضد عثمان باشا الكرجي والأمير يوسف الشهابي والمتاولة، والثانية ضد أحمد باشا الجزار، والثالثة ضد عبد الله باشا الذي انسحب بعد قليل إلى عكا يائساً من الاستيلاء عليها وترك وكيله إبراهيم باشا يحاصرها، وكاد أن يرحل لولا مداخلة أسعد بك طوقان وإحسانه الظن بالوالي.. أما تسليمها إذ ذاك فإنما كان لأنه لم يكن إجماع على الحصار حتى النهاية، على أن شروط التسليم كانت شريفة إلا أن عبد الله باشا قد خان وغدر..

وكان لآل طوقان وآل النمر وشيوخ جبل نابلس الآخرين مواقف مماثلة في المحافظة على البلاد والوقوف في وجه الطامعين[1].

وكان شيوخ جبل نابلس يقفون صفاً واحداً للدفاع عن بلادهم ودحر الطامعين، ولم يحدث أن شذ أحد منهم عن هذه القاعدة إلا في ثورتين.. يقول الأستاذ إحسان النمر في الكتاب نفسه[2].

وحصلت ثورتان إحداهما على الحكم الجزاري الممثل بحكامه في البيكات طوقان، والأخرى على الحكم المصري الممثل بحكامه من آل عبد الهادي، ومن عادة الثورات أن تحصل خلالها أخطاء وشذوذ مما لا يجوز القياس عليه سائر العهود.

لقد كان شيوخ بيوت الحكم يجهلون تقديم تاريخهم، فعبث به العابثون، فتشوه تاريخ بلادنا المجيد تشويهاً سيئاً".

مظاهر الإمارة في جبل نابلس:

كانت الدولة العثمانية تطلق على أمراء جبل نابلس الألقاب العثمانية كالأغا والبيك والأفندي والباشا.. وكانت تخاطبهم بمصطلحات عربية مثل قولهم: فخر الأعيان، وفخر الأماجد، وفخر الأمراء..

([1])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس..،ج2، ص 537.

([2])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس..،ج2، ص 540.

وكان من مظاهر الإمارة علاوة على الألقاب العثمانية والعربية:

اللباس والسلاح:

كان أمراء جبل نابلس يلبسون لباس الولاة والوزراء والسلاطين فيضعون على رؤوسهم عمائم من الشال الكشميري الخفيف الوزن الغالي الثمن، وكانوا يلبسون صدرة كثيرة الأزرار مطرزة وسروال مطرز، وفوق الجميع يلبسون تقصيرة تسمى القفطان، وفي الشتاء يلبسون الفرو، فكانوا يجمعون بين الألبسة العثمانية والعربية.. وأما السلاح فكانوا يقتنون منه جميع أنواع الناري والأبيض وكذلك الخيول والخدم والأتباع.

القصور:

كانوا يهتمون ببناء القصور.. وأول ما يلفت النظر في هذه القصور الطلاقات في جدرانها العليا أو السفلى، والشرفات في أعلى جدران القصر، وكانت تستعمل لإطلاق النار أو لصب الزيت.. ويأتي بعد ذلك البوابة الكبيرة ذات الباب المصنوع من الخشب السميك المصفح بالحديد، وإلى جانبه الأسفل كرسيان من الحجر لجلوس الحرس، وإلى جانب القوس من الأعلى طلاقة " كوه " للحرس، وإلى جانب الباب من الداخل تكون غرفة الحرس وساحة الخيل والإسطبلات، ثم تلي ذلك ساحة الدواوين وغرف السلاح والسجن وغرف الضيافة والزيارة[1].

القلاع:

القلعة هي الحصن المبني على طراز القصر إلا أنها تشتمل على ساحة مسورة مع أبراج وبوابات، وليس لهذا الوصف في جبل نابلس من نموذج سوى " قلعة صانور" ـ رغم تغير أكثر معالمها ـ وهي تشتمل على مجموعة قصور مبنية على مساحة تساوي نحو عشرة دونمات أي عشرة آلاف متر مربع إلا أنّ المساحة العامة للمحيط السابق للقلعة ـ قبل هدمها ـ تساوي عشرة أمثال المساحة الحالية.

([1])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس..،ج2، ص 433،436.

وللقلعة ثلاثة أبواب معروفة وباب للسر " سري" لم يكن يعرفه إلا أهل القلعة[1].. ولها ثلاثة أبراج ضخمة أحدها بجوار الباب الرئيسي للقلعة..

أما السور فقد بني من الحجر الصلب الشيد " الكلس " والزيت، وعرض قاعدته يبلغ ثلاثة أمتار، أما ارتفاعه فيزيد على خمسة عشر متراً.. وتشتمل القلعة على عدد كبير من المغاور والآبار التي كانوا يلجأون اليها حين الحصار.

وقد أقيمت قلعة صانور على أساس سابق قديم، وهي من جهة الغرب متصلة

([1])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس..،ج2، ص 456.

بالجبل ومن هذه الجهة كانت تضرب، وتحيط بها عن بعد جبال مرتفعة أهمها وأعلاها جبل " حريش " ويوجد أمام القلعة في الجهة الجنوبية منها سهل واسع كان ميداناً لسباق الخيل والتدريب على الفروسية.

ومن الحصون والقلاع الصغيرة في جبل نابلس " قلعة صوفين" وكانت على مسافة كيلو متر من قلقيلية، وقد هدمت بالتعاون بين والي الشام ووالي عكا..

و" قلعة الجيايسة " في كور من ناحية بني صعب.

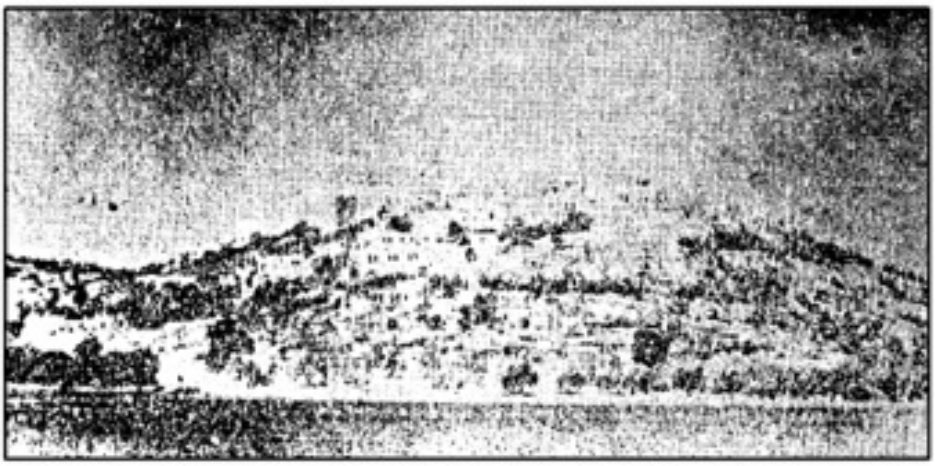

قاعة صانور رمز عزه واباء جبل نابلس

قلعة صانور مع البرج

قلعة صانور مع البرج

المصدر: النمر، احمد، تاريخ جبل نابلس والبلقاء، ج2 ص 80 ؛ احمد، ص 198.

بوابة قصر الامير يوسف النمر المعروف بدار الأغا الكبيرة

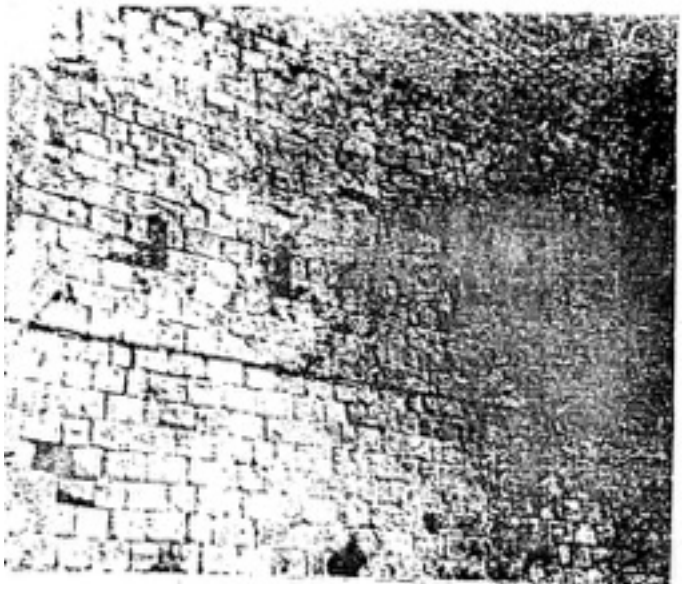

النمر إحسان:

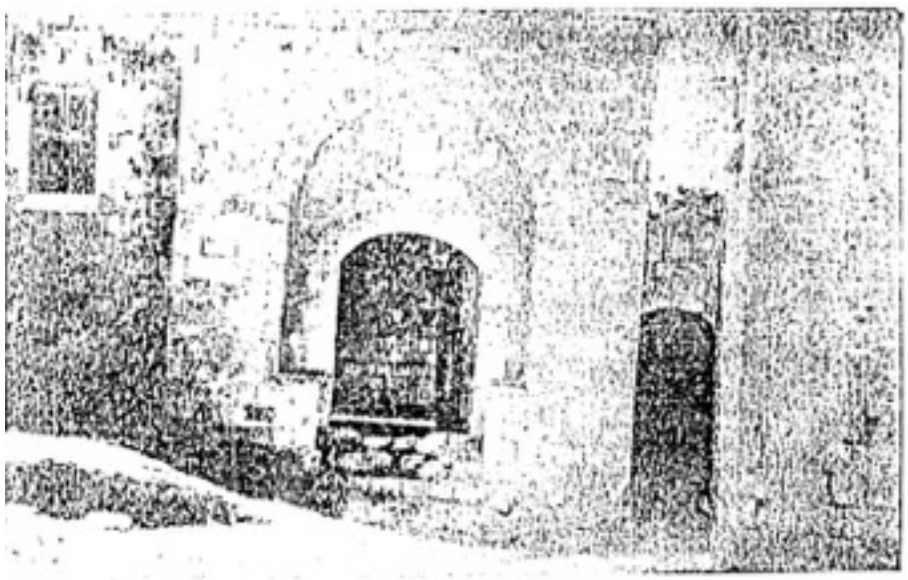

ابواب القصور في قلعة صانور

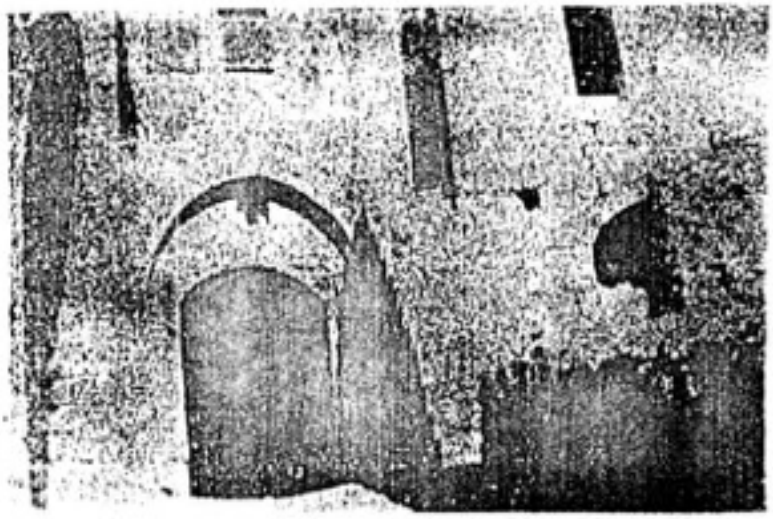

إح

النمر

القسم الباقي من برج العطاعطة في سهل قاوقون الذي راقب منه محمد آغا ال
والعطاعطة والصملة حركات نابليون وجيشه وكمنوا له في جواره

النمر

الجيش:

كان الجيش العثماني ينقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية:

1- الجنود الإقطاعيون المعروفون بالسباهية " أي الفرسان " وكان هؤلاء الجنود يمنحون إقطاعات من أرضي الدولة مقابل تلبيتهم نداء الحرب، مع تقديم عدد مناسب من الجند على نفقتهم الخاصة[1].

2- الانكشارية: وكان يتم تجنيدهم عن طريق خمس الغنائم بواسطة " الدفشرمة" ودعي قائد الانكشارية " بالأغا وعاش جنود الانكشارية في ثكنات خاصة.

3- أخلاط شتى من العساكر المرتزقة ممن استخدمهم ولاة الشام كالمغاربة وهم مشاة، والأكراد والتركمان وهم فرسان.

وقد عرفت نابلس ـ في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ـ النوع الأول من هذه العساكر، فكان هناك الجنود الإقطاعيون " السباهيون " ودعي رئيس السباهية في اللواء " ألاي بك" أو " مير ألاي " وواجب المير ألاي جمع العساكر الإقطاعية إذا طلب منه ذلك، واتضح ذلك من مرسوم الدولة إلى حسن أغا النمر بك ألاي نابلس سنة 1214هـ/1799م حيث طلبت منه أن ينضم بجموعه من الزعماء والسباهية وأن يستنفر الجرود والمتطوعين من البلاد ويسير بهم وينضوي تحت لواء قائد العساكر رجب باشا.

وعمل المير ألاي على مساعدة المتسلم في تحصيل الأموال المطلوبة منه إلى الدولة، ووقعت عليه مهمة تحضير الأدوات والأشياء اللازمة لقافلة الحج، كما كان يحافظ على الأمن، ويؤدب العصاة إذا ما اعتدوا على قوافل الجيش[2].

([1])الراميني، ص 85..سورية...، ص 48، وذكر علي، محمد: خطط الشام، ج5، ص 28.

([2])الراميني، ص 86 عن جب وبوون، ج1، ص73-74، وعن سجل المحكمة الشرعية بنابلس رقم "8"، ص 398.

عين مير ألاي نابلس في القرن الثامن عشر والنصف الأول من التاسع عشر ـ على الأغلب ـ من السكان المحليين وقد اختصت عائلة آل النمر تقريباً بهذا

المنصب دون غيرها من بقية العائلات، فقد وردت أسماء حسن أغا وأحمد أغا النمر وغيرهم.. وكان للمير الآي مركب خاص،يتقدمه الطبالون وحوله السباهية من ذوي البلطات والحربات، وكانت الدولة تعهد أحيانا ألآي نابلس بوظيفة الحكم في اللواء فيقوم بمهام المتسلم[1].

الفتوة والفروسية:

في نهاية القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر الهجري عمت ريح الفتوة والفروسية جبل نابلس جميعه، وأصبحت البلاد جميعها مسلحة، وقد بنيت فيها القلاع والقصور الضخمة، وأقيمت ميادين التدريب على الفروسية بجوار القلاع..

وكان الفرسان يمتازون على غيرهم ويتمتعون بصفات الفروسية، وأهمها:

- ترفع القوي المسلح عن أذى الضعفاء مع بذل الجهد لإنقاذهم وإسعافهم ومساعدتهم، وقد تطورت هذه الروح إلى أن شملت العزل من السلاح ولو كانوا من أهل الفتوة، وأصبح من النذالة التعرض لهم ما لم يأخذوا حذرهم وأسلحتهم.
- حفظ العهد والوفاء بالوعد ولزوم الصراحة والصدق.
- تقدير الصحبة والمحافظة على الرفيق وفدائه بالنفس والنفيس.
- الوفاء للصديق، وتفضيله في بعض الأحيان على الأخ من النسب، وكانت الصداقة عندهم والوفاء للصديق مقياساً لكل شيء وكانوا يكرمون كل من له به صلة، فكانت الصداقة محور أعمالهم وبهجة زمانهم، وكان الأصدقاء هم الرابطة بين العشائر وهم العدة والعون على نوائب الدهر، ومن لم يكن وفّا نبذوه وأوسعوه ذماً كقولهم: " مالوش صاحب، قليل الأصل، مالوش زمام" وتسقط منزلته فينغص عيشه ولا يشعر في الحياة بلذة، وكان حزنهم على أصدقائهم عظيماً فكانوا يحفظون آثارهم وصلاتهم ما عاشوا.

([1])الرامیني، ص 86..عن سجل رقم "10"، ص 292 والنمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس..ج2، ص 209.

- النجدة والإسعاف، ومن العار التقاعس عن المستنجد.
- الكرم والبذل... وكانوا بهذا مضرب الأمثال، فكانوا يبذلون كل شيء وكانت أموالهم مشاعة للعشيرة ثم البلد والديرة..

وكانوا يقدمون الهدايا لبعضهم في جميع المواقف في الأعراس والمآتم والولادة والحج، وكانوا ينقذون من يفلس ويساعدون المدارس والمعاهد.

وكان للفرسان أغان مستمدة من روح الفتوة والفروسية، كلها حماسة وشهامة ونخوة في المواويل والأهازيج.. يقلونها في السهرات وفي زفة العريس والمهرجانات العامة حسب الوقائع التي كانت تحدث[1]..

القدرة الحربية:

كانت في جبل نابلس قدرة حربية وجسارة نادرة عند أبنائه، وقد تفنن النابلسيون باقتناء الأسلحة حتى عمت جميع الناس، وتعلموا صناعة البارود، وظهر بينهم كثيرون ممن يصلحون السلاح فكثر السلاح الناري حتى كاد السلاح الأبيض يختفي. ولقد بلغ السلاح الذي عرض أمام رسول ظاهر العمر اثنتي عشرة ألف بارودة.

وكان السلاح الناري في بدايته يُعبأ (يُدكّ) بالبارود فيضطر المحارب أن يحمل كيساً فيه قطع قماش وقطع من الرصاص ويقطينة يابسة فيها كحل بارود، وكانت البارودة طويلة تساوي بطولها جسم الرجل الطويل دون رأسه، وثم نوع آخر من السلاح الناري قصير عوض المسدسات اليوم يسمى القربينة والطبنجة والرّدنية وجميعها بقدح وزناد، وكان السلاح أنواعا، يتقلد كل واحد نوعاً منه خلاف الآخر وقلما توحد بين جماعة.

أما اللباس الحربي فكان: تلاويّة على الرأس بشكل عمامة من قماش غليظ، ثم تقصيرة على الوسط وكمر "زنار" عريض ليحمل الردينة، ثم سروال، وفي الأرجل جزمة إلى نصف الساق، ويزيد السباهية بلبس الشملة وهي حرير عادي.

([1]) النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس..،ج2، ص 216.

ويضع الأمراء شملة من الشال وصدرة كثيرة الأزرار وكمر عريض وسروال، وفوق الجميس برنس يشبه العباءة.

وكان يتبع الجيش أصحاب الموال لأنهم يغيظون العدو بأقوالهم، وكذا أصحاب الشوباش وأصحاب الربابات لأنهم يحمسونهم، ويأتي بعد هذا " البناؤون" الذين كان لهم منزلة كبيرة لأنهم يهجمون مع الجرود فيهدمون الحصون أو أنهم يبنونها ويرممونها للتحصين إذا بلغهم مجيء العدو.

وكانت الخطة التقليدية في القتال أن يكون الدفاع في الأودية والممرات والجبال بعيداً عن المدن، وكان هناك تضامن تام بين سكان المدن وأهل الجبال.. وكانوا يسيرون إلى الحرب ومعهم النساء الجسورات ومنهن من كنّ محاربات، وأغلبهن يدخلن للتحميس ودفع الرجال إلى القتال.. جاء في تاريخ " ولاية سليمان باشا العادل " عن ذلك: " وعدا ذلك فإنهم يأخذون من قراياهم النساء الشابات الجميلات تمشي معهم وتحمل لهم الماء، وفي وقت اشتباك الحرب تدخل بينهم وتحرضهم على الشجاعة والإقدام برفع أصواتهن بالزلاغيط والتحريش على الثبات لحد الموت" [1].

تقاليد الأمراء وصفاتهم النبيلة:

بلغ أمراء جبل نابلس حداً عظيماً من السمو والنبل والتواضع بما كان لديهم من تقاليد حسنة وصفات نبيلة كانت تزينهم وترفع من شأنهم، وكانت الصفات هي الغالبة على معظمهم..

من هذه الصفات:

- كانت بيوتهم ودواوينهم مفتوحة للقاصدين من الزوار وذوي الحاجات الذين ينزلون في ضيافتهم الأيام والأسابيع والأشهر والسنين إلى أن تقضى حاجاتهم دون أن يروا اكفهراراً أو اشمئزازاً أو أي اشارة منفردة، وهذا ما حمل الشعب على طاعتهم والوقوف بجانبهم والتفاني في حبهم.

([1])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس والبلقاء ج2، ص 84-85.. عن كتاب تاريخ ولاية سليمان باشا العادل لإبراهيم العورا.

- كانوا يتهادون حسب المناسبات في الأعراس والشفاء من المرض وغيرها من المناسبات الطيبة فيقدمون هدايا تتناسب مع أقدارهم كتقديم الأملاك والأراضي والخيول الأصايل، وكان إذا شعر أحدهم بضائقة عند آخر يقدم له هدية تسد حاجته.
- كان لهم تقاليدهم وأعرافهم الخاصة.. ومنها الترفع عن الحلف بالطلاق، والعناية بالمصاهرة فكان بحثهم يدوم السنين الطوال، وعدم ممارسة الحرف والصناعات وهذا عائد إلى نزعة بدوية فيهم، وعدم السوم في البيع والشراء، وكتمان المسروق من بيوتهم مهما بلغ فيكتفون بالبحث سراً مهما طال الأمر..

ومن تقاليدهم التبرع لمن يقصدهم ويدخل بيوتهم ـ التي كانت مفتوحة للجميع ـ فكانوا يبذلون الشيء الكثير دون مقابل، وإن أهدوهم هدية عوضوهم بأكثر..

ومن تقاليدهم الترفع عن أخذ الدّية في القتل فإما العفو وإمّا الثأر، وكانت ديرتهم تقلدهم فلا يأخذون الدّية..

ومنها الترفع عن أخذ مال الغير وإن اضطروا استقرضوا سراً، وقد يرهنون قطعة سلاح سراً، فلا يهنأ لهم بال ما لم يدفعوا هذا الرهن..

ومنها عدم بيع شيء من موجودات قصورهم وبيوتهم مما يدخلها من المؤن والغلال، فهي إمّا أن توزع للفقراء أو تبقى حتى تتلف..

ومن التقاليد المحافظة على كرامة الزائر والجليس والمرافق، فمن مس كرامته قاوموه وأدبوه وقاضوه.

وكان من أجلّ تقاليدهم حماية المستجير ولو كان بعيداً، وكانوا يسمونه " الطنيب" واستجارته "الطنب" فكانوا يفدون كل شيء دونه ويحمونه ويساعدونه على المطالبة بحقه إذا كان مهضوماً، وإذا كان مطروداً حموه إلى أن يظهر الحق..

وكانوا يعتبرون أنفسهم مسؤولين عن حماية كل من في حوزتهم لا في ديرتهم فقط بل خارجها أيضا فيطالبون بحقوقهم المادية والمعنوية مهما

كلفهم الأمر ومهما كانت منزلة المعتدي، وهذا ما حمل الشعب على الإخلاص لهم وطاعتهم لما كان يرى من بذلهم وتضحياتهم في سبيل المحافظة على كرامته.

وكان من تقاليدهم مشورة كبار السن المجربين، وإيجاد حاشية من الأتباع الذين يسمونهم " الفداوية" لتنفيذ ما يريدون، يربونهم تربية طيبة فلا يكادون يخرجون عن الأفعال التي يطلبونها قيد شعرة، وإن ظهر من أحدهم شذوذ طردوه وكانوا يعتبرون أنفسهم مسؤولين عن سمعة البلاد بأسرها فلا يطيقون أن يسمعوا عنها ما يشين[1].

مكارمهم ونبلهم:

كان من أهم صفاتهم المحافظة على كلمتهم فإذا قطعوا عهداً أو وعدوا وعداً أو باعوا أو اشتروا فلن يتراجعوا مهما كانت خسارتهم، وهذا اكسبهم ثقة غالبة واطمئناناً كان سبباً في علو مكانتهم.

ومنها القعود للحق وقد كان مدار التزكية وبه يمتازون.. فكانوا رغم ما هم عليه من القوة والمنزلة والجاه لا يهضمون حقوق الناس لا سيما الضعفاء.

ومن صفاتهم العطف على الخصم إذا أملق أو مرض مع الكتمان وعدم التباهي.. وكان من أجل صفاتهم الكرم وما كان كرمهم مجرد إطعام الناس وملء البطون، بل كانوا مشبعين بروح الكرم فكانوا يستقبلون الزائر أو الضيف بالبشاشة عملاً بالقواعد العامة عندهم التي منها: " البشاشة خير من القرى.. لاقيني ولا تغديني.. الكشرة طرد للضيف"، وكانوا يضبطون أنفسهم ما دام الضيف موجوداً فلا يظهرون أي عنف ولا يرفعون صوتهم على الخدم والأتباع ومن أظهر شيئاً من هذا بأن ضرب خادمه أو ابنه أو صرخ عليه عدّة الضيف طرداً له، وقد يخرج من البيت ولا يقبل القرى وبهذا تكون فضيحة ودلالة على اللؤم..

ومن صفاتهم الصراحة وعدم المواربة مهما كلفهم الأمر، فلم يكن في

([1])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس..،ج2، ص 463-466.

تصرفاتهم شيء من الخبث ولا الجدل أو المجاملات الفارغة.. وإنما كانوا مثال النبل والصراحة.

وكانوا يتصفون بالشجاعة بكل معانيها ومواقفها وهي الخصلة التي أكسبتهم القلوب ورفعت منزلتهم بين الناس، وكانوا يحرصون على إظهار شجاعتهم وجرأتهم في المواقف لا بالمظاهر، وأن لا يشوب هذه الشجاعة غدر ولا مكر ولا ادعاء وفشر.

وكانوا شرفاء في خصامهم فما كانوا يحطون من كرامة خصمهم فلا يشتمونه ولا يهدمون كرامته بل كانوا إذا ذكر رفعوا من شأنه ولهم في هذا نظر.. منه أنه لا يقال أنهم يخاصمون من دونهم فإن هم غلبوه افتخروا لغلبهم كبير وان غلبهم فلا حطة عليهم لأنه كبير، وفوق هذا فما كانوا يستغلون ضعفه إذا ساعدتهم الظروف..

وكان على جانب عظيم من الأنفة والإباء فلا يخضعون ولا يذلون ولا يشكون مهما نزل بهم وبلغ منهم الضيق.

وكانت منازل الأمراء تتفاوت بنسبة عفوهم وصفحهم وتساهلهم وشعبيتهم ومحافظتهم على الأعراض وشعائر الدين والتقاليد، وبالعكس كانت تسقط بعدوانهم وتهاونهم، لقد كانوا خير قدوة للشعب، وكان الشعب يكبرهم ويعظمهم ويقلدهم فلا يجد أمام ناظريه أفضل منهم فعمت صفاتهم الجميع.

حبهم للعلم والعلماء:

اهتم أمراء وشيوخ جبل نابلس بالعلماء وكانوا يقربونهم ويكرمونهم وينزلون عند إرادتهم.. وقد ظهر في جبل نابلس نخبة طيبة من العلماء الذين بلغ بعضهم درجة قاضي قضاة..

وكان من أشهر العلماء في هذه الفترة الشيخ عبد الغني النابلسي، والشيخ محمد الصمادي، والشيخ عبد الغفور الجوهري، وشيخ الإسلام كمال أبو بكر الاخرمي، والشيخ مصطفى الجعفري، والقاضي الشيخ عبد الفتاح التميمي، والمفتي المدرس الشيخ عبد الله الشرابي، والمفتي الشيخ عبد الغني بن مكية، والمفتي الشيخ أحمد البسطامي، والمحدث الشيخ أحمد العقرباوي، والشيخ محمد هاشم الجعفري، والشيخ إبراهيم

الجينيني العزوقة[1].

مكانتهم الشعبية:

في هذا العهد تكونت شخصية جبل نابلس وأصبح لشعبه ثقة قوية ببلدهم وأمرائهم، فوقفوا مع أمرائهم في السراء والضراء يدافعون عن وطنهم ويحرسونه من الطامعين، وكان لوقوفهم وثباتهم أثر كبير في رد المعتدي..

فلما اصطدم جبل نابلس بظاهر العمر، اعترف مؤرخه ميخائيل الصباغ بأنه اكتفى من جبل نابلس بأن يترك له ما في يده وهو الناصرة وحيفا وما يتبعهما.

فصالحوه وسبب هذا التفاهم حنق ولاة الشام وصيدا وأبو الذهب في مصر فجيشوا وهاجموا جبل نابلس وانضم إليهم الدروز والمتاولة، وردهم شعب الجبل خاسرين.

واصطدم جبل نابلس بأحمد باشا الجزار، الذي حاول أن يحكم الجبل بمماليكه وأنصاره فثار عليه، فجاء بنفسه وحاصر صانور مرتين ثم اضطر إلى الانسحاب وأمر رجاله أن يقتلوا كل من يصادفوه من جبل نابلس.. ولما زحف نابليون نحو عكا انقلب الجزار يستنجد ويستعطف كما جاء في قصيدته للشيخ يوسف الجرار:

قل له لا تحفظ الزلات يا كاسب الثنا مضى الذي مضى منّا زمانه وفات

ولما جاءت الحملة الفرنسية إلى فلسطين بقيادة نابليون الذي لم تهزم له راية في مئة معركة ولم يفلت من مكايده أحد فأغاظه جبل نابلس.. واعترف بهذا الكاتب الفرنسي المعروف العلامة " ادوارد لوكرو" الذي جعل

([1])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس..،ج2، ص ص55-60.

عنوان كتابه " الجزار قاهر نابليون" وفي الكتاب اعترافات صريحة عن قلق القائد كليبر من تجمعات جبل نابلس.. ولما أرسل إليهم القائد دوماس ليخضع جبل نابلس، قام شعب الجبل بقتل الكثير من رجاله وخيوله دون أن يستطيع القصاص منهم، وحتى دوماس نفسه قد قتل وعاد باقي رجاله يجرون أذيال الخيبة..

ولما جاء إبراهيم باشا المصري ليخضع جبل نابلس ثار عليه شعب الجبل وقد اعترف بالمضايقة واستنجد بأبيه[1].

الفصل الرابع

مشيخة جبل نابلس

- الشيخ يوسف الجرّار.. " شيخ الجبل "

- نسبه وإمارته
- العوامل التي ساهمت في بناء شخصيته
- أبرز صفاته
- أبرز أعماله
- الوقوف في وجه الحملة الفرنسية
- وفاة سلطان البر

- قلعة صانور.. " قلعة الجبل"

- بنو جرار من اليمن إلى البلقاء
- بنو جرار من القسطل إلى جبل نابلس
- بناء القلعة
- شيوخ القلعة في العهد العثماني {1720-1840}
- شيوخ القلعة في كتب التاريخ
- شيوخ آل جرار بعد العهد المصري

([1])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس..،ج2، ص 484-485.

• شيوخ آل جرار في أواخر العهد العثماني

- ملاحق الفصل الرابع

1. وثيقة تاريخية
2. قصيدة هزمت نابليون
3. كتاب من والي الشام إلى متسلم نابلس
4. مرسوم والي الشام للشيخ أحمد أغا الجرار
5. مرسوم الوالي بتعيين الشيخ عبد الله الجرار
6. شجرة نسب

الشيخ يوسف الجرّار.. " شيخ الجبل "
1770 -1808م

نسبه وإمارته:

ينتسب الشيخ يوسف الجرار إلى قبيلة الشقران الأزدية، التي كانت منذ القرن الثالث عشر الميلادي تنتشر وتنتقل بين البلقاء في الأردن والرطبة في العراق وبصرى في بلاد الشام.. وكان جده الأكبر الشيخ ناصر ابن جرار أبرز شيوخ البلقاء في أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر الميلادي.. وكان يتخذ من قلعة القسطل ـ التي كانت تسمى بقلعة ابن جرار ـ مركزاً له..

وفي أواخر القرن الحادي عشر الهجري الموافق لأواخر السابع عشر الميلادي انتقل والده الشيخ محمد الزبن " ابن جرار" من القسطل ـ إلى مرج ابن عامر بجبل نابلس، وصار أميراً على اللجون[1].. ثم أسس قلعة صانور وجعلها قاعدة له..

وبعد وفاة الشيخ محمد الزبن عام1772 تولى الإمارة ابنه الشيخ يوسف.. وكان قد عُيّن في أواخر عهد والده متسلماً لجنين عام1770، وبقي متسلماً لها قرابة أربعين سنة، وفي عام1774 تولى متسلمية نابلس وجمع

([1])دروزة، محمد عزة: العرب والعروبة... ج5ص 108.

بينها وبين متسلمية جنين ثمانية عشر عاماً[1]، وفي عام 1808م انتقل إلى رحمة الله تعالى وكان وقتها يتولى المتسلميتين ويوحّد بينهما.

العوامل التي أسهمت في بناء شخصيته:

أولاً: عامل البيئة:

في أرض البلقاء.. وجبالها العامرة المطّلة على فلسطين، وبيدائها الفسيحة الممتدة الآفاق حتى العراق، وقلاعها الحصينة، التي لعبت دوراً بارزاً في حرب الصليبين والتتار.. عاش بنو جرار منذ القرن الثالث عشر الميلادي وحتى أواخر القرن السابع عشر حيث انتقلوا من قلعة القسطل إلى منطقة جنين في جبل نابلس.. وفي منطقة جنين.. بمراكزها الإستراتيجية التي تكثر فيها المرتفعات والأودية والكهوف، وجبالها الشامخة التي تعلوها الأشجار الحرجية، وأوديتها الخضراء التي تظللها شجرة الزيتون المباركة، ومروجها الخصبة التي تفيض بالخير، وبلدانها العامرة التي تمتلئ بالحيوية والنشاط، وقبائلها العربية الأصيلة التي نشأت أبناءها على الفتوة والفروسية، وربّتهم على النخوة والشهامة والخلق الإسلامي الكريم.. في هذه البيئة عاش الشيخ يوسف الجرار أبيّ النفس صلب العود قوي الشكيمة سيداً في قومه..

ثانياً: عامل الوراثة:

عاش الشيخ يوسف في كنف والده الشيخ محمد الزبن، وتربى على العادات العربية الأصيلة من كرم وشهامة، ونجدة للضعيف وإغاثة للملهوف، وشبّ على ركوب الخيل والطرد، وتدرب على الفروسية والقتال، وكان يحضر مجالس العشيرة في ديوان والده الشيخ، ويأخذ عنها عاداتها وتقاليدها وأعرافها وتعاليم دينها.. فورث القيادة الحكيمة وقوة العزيمة وصلابة الإرادة وحب الحرية والإستقلال.. ونشأ نشأة ريفية، فيها الثبات والصبر، والحنكة والمهارة، والجرأة في الحق..

ثالثاً: عامل الدين:

([1]) النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس..،ج1، ص 277-296.

كان لتعاليم الإسلام أثر بارز في شخصية وحياة الشيخ يوسف.. ويبدو ذلك واضحاً في تدينه وتقواه وحبه لعمل الخير ورعاية الفقراء والمساكين، وفي دفاعه عن وطنه ولجوئه إلى الله سبحانه بالدعاء وطلب النصر على الأعداء.. كما يبدو هذا الأثر في تقديره للعلماء الذين عاصروه وكانوا يترددون عليه وفي مقدمتهم الشيخ محمد السّفاريني والشيخ محمد الصمادي والشيخ عيسى صوفان، فكان يكرمهم ويقربهم ويستشيرهم.

أبرز صفاته:

اتصف الشيخ يوسف بمجموعة صفات جعلت جبل نابلس بأكمله يلتف حوله ويرى فيه الأنموذج الطيب للحاكم الصالح الذي يحمي شعبه من الظلم ويسهر على راحته.. وأبرز هذه الصفات:

- التقوى والاستقامة في حياته العامة والخاصة، فقد جمع بين المنبت الطيب والنشأة الكريمة وعرف بين الناس بالأخلاق الحميدة والسيرة العطرة.
- الكرم وإغاثة الملهوف.. كان ديوانه مفتوحاً ليل نهار على مدار الأيام، يؤمّه كبار القوم وضعافهم.. كان مفتوحاً للقريب والبعيد، وللمواطن والغريب.. يبذل الخير للجميع، فسارت بكرمه الركبان.
- الثقة والمحبة المتبادلة.. فكانت الثقة والمحبة متبادلة بينه وبين قادة ومشايخ الجبل، بل وبينه وبين أهل الجبل جميعاً، فما أن وجّه إليهم نداءه في حرب الفرنسيين حتى هبّ فرسان الجبل وقادته جميعاً لم يتخلف منهم رجل واحد يقدر على القتال.
- الإرادة القوية.. كان يتمتع بعقيدة راسخة، وعقلية متزنة، ومعنويات عالية، وشخصية قوية نافذة تتحمل المسؤولية بلا تردد.. فكان إقدامه على حرب نابليون ـ الذي يملك جيشاً ومدافع وأسلحة حديثة ـ مجازفة تدل على هذه الإرادة القوية.
- الشجاعة والعدل والحكمة.. كان مثال النبل والشجاعة مع الحكمة والسياسة والحنكة وبعد النظر.. كان مجلسه عامراً بشيوخ الجبل وحكمائه، يستشيرهم ويكرمهم ويأخذ بآرائهم، وكان يعدل بني الناس ويحمي المظلوم ويأخذ الحق من الظالم.. فكان لهذه الصفات أثر كبير

في وفود كثير من الناس عليه رغبة في جواره.. وكثيراً ما كان المتنازعون من أبناء جبل نابلس وغيرهم يأتونه ليقضي بينهم بالحكمة والسداد، ومما زاده حباً بين الناس ما كان يبذله من أموال في تحمل بعض المغارم التي كان يقضي بها.. فذاع أمره وانتشر صيته واشتهر فضله عند العام والخاص، واحترمه الناس جميعاً وأجلّوه، واحترمه سلاطين آل عثمان وولاتهم وأطلقوا يده في المنطقة الممتدة من شمال بيسان ومرتفعات الناصرة حتى منازل بني حسن بجوار رام الله، ومن منحدرات الكرمل الجنوبية وساحل المتوسط حتى مياه الأردن، وعهدوا إليه بجباية أموالها، مما كان له الأثر في تقويته عسكرياً وعمرانياً، وتوطيد دعائم حكمه، حتى غدا الشيخ يوسف سيد هذه المنطقة وغدا عصره العصر الذهبي لجبل نابلس[1].

هذا وقد أورد كثير من الكتاب والمؤرخين في كتبهم الكثير من صفات هذا الشيخ الحميدة وأعماله الجليلة، والتي يمكن الرجوع اليها في تلك الكتب، ومنها:

1. تاريخ جبل نابلس والبلقاء.. للأستاذ المؤرخ إحسان النمر، وقد أفرد في كتابه صفحات مطولة للحديث عن صفات الشيخ يوسف وأعماله.
2. العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي ـ الجزء الخامس.. للأستاذ محمد عزة دروزة.
3. بلادنا فلسطين ـ الجزء الثاني والثالث.. للأستاذ مصطفى الدباغ.
4. تاريخ فلسطين.. للأستاذ المؤرخ عمر صالح البرغوثي.
5. الغرر الحسان.. للمؤرخ الأمير حيدر الشهابي.
6. تاريخ الشيخ ظاهر العمر.. لميخائيل الصباغ.
7. أعلام فلسطين في أواخر العهد العثماني.. للأستاذ عادل مناع.

أبرز أعماله:

أولاً: بناء قلعة صانور:

([1])جرار، عبد الهادي: تاريخ ما أهمله التاريخ، ص 86.

كان الشيخ محمد الزبن قد بدأ بناء منازله في صانور،وبعد إتمام البناء أحاط البلدة بسور متوسط الارتفاع كان أساساً لسورها التاريخي الذي أقيم فيما بعد..

ولما تولى المشيخه يوسف الجرار عام 1772 م كان أول ما قام به إتمام منازل البلدة وإنشاء السور وإقامة القلعة لتكون قاعدة لجبل نابلس ورمزاً لشموخه وإبائه، وحصناً يمتنع به أبناء الجبل في الأزمات.. وبنى بها قصراً كتب على بابه الرئيسي[1]:

كن رزيناً إذا أتتك الرّزايا وصبوراً إذا أتتك مصيبة

فاللّيالي من الزمان حبالى مثقلات يلدن كل عجيبه

وما زالت بقايا القصر موجودة إلى اليوم.

واستعان الشيخ يوسف ببناء القلعة بأصدقائه وأنصاره، وأمدّه شيوخ جبل نابلس بالأموال والعتاد ومهرة العمال، وخاصة آل القاسم وآل ريان وآل النمر و آل الجيوسي.. وتم بناء السور والقلعة عام1188هـ/1774م.

ثانياً: نشر الأمن والعدل في جبل نابلس:

كان الشيخ يوسف إداريا حكيماً، يعمل على جمع كلمة البلاد، فقد استمال جميع الأسر والعشائر بسياسته الحكيمة، وكرمه وعدله وحبه للخير، فلما تولى متسلمية جنين ثم جمع بينها وبين متسلمية نابلس، قام بنشر الأمن والعدل في جبل نابلس طيلة المدة التي حكم فيها الجبل.. ففي عهده عمّ الأمن جميع البلاد، وتم تخليصها من الظلمة والجبارين الذين كانوا ـ من قبل ـ يعيثون فيها الفساد، وأصبح جبل نابلس ملجأ لكل

([1])الشهابي، الأمير حيدر: الغرر الحسان، ص 801، ومصطفى الدباغ: بلادنا فلسطين، ج3-ق2، ص 119.

مظلوم، ولما سمعت به القبائل رحل كثير منها إلى منطقته لمجاورته.. فكان عهده عهد الأمن والاستقرار، والفتوة والفروسية في جبل نابلس[1].

ثالثاً: الاهتمام بزراعة الأرض وعمارتها:

اهتم الشيخ يوسف بالزراعة واستصلاح الأراضي البور وتشجيع المزارعين على زراعتها، وقد أكرمهم الله بغلال كثيرة كانت تكفيهم وتزيد كثيراً عن حاجتهم فيقدمونها لكل محتاج.

رابعاً: توحيد جبل نابلس في صف واحد:

تولى الشيخ يوسف متسلمية جنين عام1770 واستمر فيها حتى وفاته عام 1808م، فتسلمها مدة أربعين سنة تقريباً جمع خلالها بين متسلمية جنين ومتسلمية نابلس مدة ثمانية عشرة عاماً، وقد توفي وهو يجمع بين المتسلميتين..

ففي زمانه توحد جبل نابلس لأول مرة[2]، وتجلّت هذه الوحدة بأجمل صورها حيث اختفت الخلافات بين القيس واليمن لأنه جمع قبائل الجبل في صف واحد للوقوف في وجه الغزاة والطامعين.. ولهذا فإننا نجد له علاقات صداقة ومودة ومصاهرة مع جميع قبائل جبل نابلس البارزة في ذلك الوقت وخاصة مع آل القاسم وآل ريان وآل النمر وآل الجيوسي وغيرهم[3].

خامساً: البذل في سنين الجدب والمجاعة:

حدث في عهد الشيخ يوسف أن قلّت الأمطار عام 1786 إلى 1788 م، وأجدبت الأرض وحدثت مجاعة كبيرة، فبذل الشيخ يوسف من ماله وجهده ووقته في رعاية الفقراء والمحتاجين[4]، في جبل نابلس وغيره، ما

([1])دروزة، محمد عزة: العرب والعروبة... ج5ص 111-112.

([2])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس..،ج1، ص 244وعادل مناع: أعلام فلسطين، ص 74.

([3]) جرار، عبد الهادي: تاريخ ما أهمله التاريخ،ص 87.

([4]) دروزة، محمد عزة: العرب والعروبة..ج5، ص 111.

جعل خصومه يذكرون له هذه المأثرة، ولم يكن بذله من باب الشهرة وانتشار الصيت، فقد ورد أنه كان يرسل من يضع أكياس الحبوب ـ من قمح وذرة وشعير ـ على أبواب المحتاجين في الصباح الباكر دون إشعارهم ومعرفتهم بالذي أحضرها لهم[1].. هذا، وقد فتح خزائنه لجيش الدولة في بلاد الشام عدة أشهر يأخذون منها ما يحتاجون من القمح والغلال..

يقول الأستاذ إحسان النمر عن سنين الجذب والمجاعة هذه في كتابه " تاريخ جبل نابلس والبلقاء" [2].

"حدث أثناء تولي الشيخ يوسف الجرار أن قلت الأمطار سنة 1201هـ/1786م فارتفعت الأسعار وتقاطر الناس على جبل نابلس من البلقاء وجبلي القدس والخليل، فحصلت مجاعة باع الناس فيها أثاث بيوتهم وأملاكهم، وفقدت الغلال والماعز والضأن، وانقطعت الأسباب، وسادت الفوضى في عموم بلاد الشام، ودخل فصل الشتاء سنة 1202هـ/ 1788 بلا مطرٍ وجفت بعض الينابيع وغاصت مياه الآبار، وارتفعت الأسعار ارتفاعاً فاحشاً وزادت إلى عشرين مثلاً، واشتد الضيق وتعطلت الأعمال وكثر النهب والسلب ومات الناس في الشوارع، وما زالت الحال تشتد إلى أن وصلت الغلال التي استوردها التجار من جزيرة مالطة، وبعد المجاعة تفشى وباء جارف أهلك الناس بالآلاف، فاضمحلت أحوال العباد وتناقصت الأيدي العاملة..

وبذل الشيخ يوسف الجرار " سلطان البر" كل ما استطاع في سنين المجاعة فسارت بكرمه الركبان حتى شهد له بذلك أحمد باشا الجزار بعد عشر سنين في قصيدته المشهورة التي بعثها يستنجد به لحرب الفرنسيين، والتي يقول فيها:

تلقى بها سبع الفلا سيد الملا بسنين الغلا صيته علينا فات

([1]) جرار، وليد شاعران من جبل النار، ص 21.

([2])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس..ج1، ص 203-204.

سادساً: علاقات الشيخ يوسف وأحلافه:

قام الشيخ يوسف بتوطيد علاقاته مع القبائل العربية المجاورة.. فكانت له علاقات طيبة بعشائر جبل الجليل والقدس والخليل والبلقاء وعجلون وغيرها من بلاد الشام.. وكانت له صداقة وأحلاف مع آل ماضي في نواحي حيفا، وعشائر الصقر والهنادي في شرق وشمال فلسطين، وعشائر بين صخر وعباد والسردية والمهاودة والشريدة وغيرهم في البلقاء وعجلون وبادية الأردن.. كما كانت له صداقات متينة مع آل العظم في الشام والموالي في حلب[1].

أما علاقاته مع الولاة والسلاطين.. فكانت سياسته إعلان الطاعة للسلطان دائماً، وكان يرى أن طاعة السلطان واجبة ولا يجوز الخروج على الخلافة.. وبهذا يمكنه مخالفة الولاة وعدم طاعتهم إذا ظلموا، وكانت علاقته جيدة بولاة الشام وخاصة آل العظم لأنهم كانوا يفهمون أحوال نابلس ولا يحاولون فرض سيطرتهم المباشرة عليه، ولما كان بعض الولاة لا يكتفون بالضرائب المقررة ويرهقون الشعب بطلباتهم الغير محدودة، كان لا يذعن لمطالبهم فيرفضها ويعلن العصيان من أجل إلغائها.. يقول المعلم إبراهيم العورا في كتابه " تاريخ ولاية سليمان باشا العادل" عن أحوال جبل نابلس[2].

" وبما أنهم تابعون إياله الشام وأحوالهم مع ولاة الشام في ذلك الوقت مشهورة لأن الوالي دايماً أحكامه عليهم بالمداراة والذي يريدوه من أوامره ينفذوه والذي لا يريدوه لا ينفذوه ولا يستطيع أن يتعارضهم أو يمانعهم أحد"، ثم يقول:

" وهكذا يبقى الوزير بحال الاستقامة ماشياً معهم حسب الترتيب بدون زيادة، وإن نظروا منه شيئاً مخالفاً للرسوم المعتادة فلا يقبلون ولا يطيعون، وإذا
لاحظوا أنه يريد أن يمشيه غصباً ينفردوا عنه ويرجعوا إلى محلاتهم ويعطوا العصاوة وجملة مرات أرجعوا الوزراء بجيوشهم غصباً". .

([1])جرار، عبد الهادي: تاريخ ما أهمله التاريخ،ص 87.

([2])النمر، إحسان: ج2، ص 375-376.. عن كتاب " تاريخ ولاية سليمان باشا العادل".

ويقول الأستاذ إحسان النمر: " بعد رجوع أبو المرق - والياً على دمشق - في أول سنة 1220هـ/1805م، سافر يوسف أغا الجرار وحسن أغا النمر إلى دمشق فولى أبو المرق متسلمية نابلس ليوسف أغا الجرار واشترط أن يدفع عشرين ألف قرشاً من فردة نابلس لخزينة والي الشام، ولما رجع لنابلس امتنع عن دفع المبلغ، فأنزله الوالي إلى النصف أي لعشرة آلاف قرشاً فلم يلتفت لذلك وبقي في المتسلمية إلى أن مات سنة 1222هـ / 1808م" [1].

سابعاً: حماية جبل نابلس من الولاة والطامعين:

كان جبل نابلس هدفاً لعدد من الولاة الطامعين الذين كانوا يرغبون في إدخاله تحت سيطرتهم والاستيلاء على خيراته.. وفي عهد الشيخ يوسف تعرض جبل نابلس لهجوم من الشيخ ظاهر العمر، ومن عثمان باشا الكرجي، ومن أحمد باشا الجزار..

الشيخ يوسف.. وآل زيدان:

كان نفوذ بني زيدان يمتد من شمال بيسان ومشارق مدينة طبرية إلى عكا.. ولما تولى الشيخ ظاهر العمر مشيخة قومه بزغ نجمه حتى ساد على جميع الأجزاء الشمالية من فلسطين في أقضية طبرية والناصرة وصفد وعكا وحيفا، كما امتد نفوذه إلى إقليم جبل عامل في جنوب لبنان. وقد فكر هذا الشيخ بالخروج عن طاعة السلطان العثماني والإستقلال بالبلاد.. وأخذ يعتدي على المناطق المجاورة له ويضمها إلى منطقته.. ولما قام بالاعتداء على مناطق في مرج ابن عامر ونواحي حيفا تتبع لنفوذ آل جرار وعشيرة الصقر وآل ماضي.. قام هؤلاء بإعداد جيش لاسترداد المناطق التي اعتدى عليها الشيخ ظاهر، وتوجه الجيش إلى مرج ابن عامر بقيادة الشيخ إبراهيم الجرار، والشيخ ابن ماضي، والشيخ رشيد الجبر أمير عرب الصقر.. ولكن قوات الشيخ ظاهر وضعت كميناً في مرج ابن عامر للشيخ إبراهيم
الجرار وتمكنت من قتله.. ولما علم الشيخ يوسف بقتل أخيه جهز حملة

([1])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس..،ج1، ص243.

كبيرة وشن هجوماً على مقر الشيخ ظاهر في بلدة شفا عمرو، ولكن الشيخ ظاهر فرّ من البلدة، فهدم قصره وعاد إلى مقره في قلعة صانور.

وشعر ظاهر العمر بالخطأ الذي وقع فيه بقتل إبراهيم الجرار وأخذ يفتش عن مخرج.. فأرسل رجلاً محنكاً من رجاله إلى صانور بصفة " حلاق " ليتقصى الأخبار، وكان هذا الرجل شاعراً.. وبعد فترة قضاها في صانور أرسل إلى الشيخ ظاهر قصيدة يحذره فيها، وينصحه بأخذ جاهة للشيخ يوسف والصلح معه، فذهب ظاهر إلى الموالي ـ شيوخ حلب في تلك الفترة ـ وكانت بينهم وبين الشيخ يوسف صداقة متينة، ووسّطهم للصلح، وذهب ظاهر ووجوه عشيرته مع الجاهة واستقبلهم الشيخ يوسف في قرية جبع المجاورة لقلعة صانور.. وما زال المكان الذي نزلوا فيه يعرف لحد الآن بـ" حبلة ظاهر". . وبعد الصلح الذي تم بين الطرفين حدثت زيارات وتوطدت العلاقة والاحترام المتبادل بينهما.

الشيخ يوسف.. وعثمان باشا الكرجي:

عندما اغتصب عثمان باشا الكرجي ولاية الشام من آل العظم، تضايق مشايخ جبل نابلس من هذا الاغتصاب واعتبروا الكرجي ناكراً للجميل ومخالفاً لأعراف ذلك العصر الإقطاعي النبيل، وقام جبل نابلس بتأييد محمد باشا العظم، وقام الشيخ يوسف الجرار وآل النمر وعلماء نابلس بالاتفاق مع ظاهر العمر ضده، ورابط الشيخ يوسف بجموع جبل نابلس في مرج ابن عامر لصد هجوم الكرجي بجيش الشام ولبنان، وزحف محمد أبو الذهب حليف الكرجي من مصر على عكا وجبل نابلس..

وزحف الكرجي من الشمال عام1774 م واصطدم بجموع جبل نابلس في المرج بقيادة الشيخ يوسف الذي انسحب وحاصر في صانور إلى أن قضي على أبي الذهب، ثم هجمت الجموع على الكرجي من خارج القلعة ومن داخلها واضطروه على الانسحاب بعد أن تكبد جيشه خسارة عظيمة ولاقى الأهوال في الأودية والسهول أثناء انسحابه[1].

الشيخ يوسف.. واحمد باشا الجزار:

([1])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس..،ج1، ص 197-201.

بعد أن أصبح الجزار والياً على عكا، حاول إخضاع جميع أقاليم ونواحي فلسطين وخاصة جبل نابلس المشهور بشجاعة أهله وبأسهم، ولجأ الجزار كعادته إلى الحيلة والخديعة لاستدراج شيخ جبل نابلس وزعيمه الشيخ يوسف الجرار، فأرسل إليه الهدايا ودعاه لزيارته في عكا مراراً.. وكان الشيخ يتقبل الهدايا ويعتذر عن الزيارة، ولما فشلت جميع المحاولات، صمم الجزار على إخضاعه بالقوة.. وأرسل عدة حملات إلى قلعة صانور وبلغت مشارفها وأخذت تحاصرها وترميها بالقذائف ولكنها ارتدت عنها خائبة، وفي صيف 1791م قاد الجزار بنفسه حملة قوية، وبعد حصار امتد ثلاثة أشهر رجعت الحملة فاشلة.

وفي سنة 1208هـ حاول إغراء الشيخ صالح السليمان شيخ حمولة الجرادات بمتسلمية جنين بدلاً من الشيخ يوسف فرفض فسمه[1].. وفي سنة 1209هـ/1794م هاجم صانور ولغمها فانفجر اللغم بعساكره فانسحب عنها.

ولم يتمكن الجزار طيلة الفترة التي ضم فيها جبل نابلس إلى حكمه، أن يخضع هذا الجبل لسلطانه.

وقد أدرك فداحة الأخطاء التي ارتكبها ضد الشيخ يوسف فعاد يستسمحه ويستنجد به لصد الزحف الفرنسي عن البلاد عام 1799م.. فأرسل قصيدة للشيخ يوسف في قلعة صانور- يستنجد به ويقول فيها:

تلقى بها سبع الفلا سيّد الملا بسنين الغلا صيته علينا بات

قل له لا تحفظ الزلاّت يا كاسب الثنا مضى الذي مضى منا زمانه وفات

([1]) دروزة، محمد عزة: العرب والعروبة..ج5، ص 58.

أجتنا الفرنساوي تدهك الحصى سلاطين سبعة مع سبع كرات()

فهب الشيخ يوسف لنجدته، وأظهر من كرم الأخلاق مع الجزار، وشدة البأس والثبات في قتال الغزاة ما أقر به عيون المسلمين وأقض مضاجع المستعمرين.

الوقوف في وجه الحملة الفرنسية:

عندما وصلت الحملة الفرنسية إلى فلسطين، واحتلت يافا واتجهت إلى عكا أرسل الجزار قصيدة إلى الشيخ يوسف الجرار يستنجد به على حرب الفرنجة أعداء الإسلام والمسلمين، فاستجاب الشيخ يوسف لدعوة الجزار وأرسل كتبه ورسائله إلى شيوخ القبائل في جبل نابلس، وإلى شيوخ القبائل والبلدان المجاورة يستصرخهم ويحثهم على الاستعداد للدفاع عن الوطن..

ووصلت جموع القبائل إلى قلعة صانور قبل أن يصل نابليون إلى جبل نابلس قادماً إليه من يافا وسالكاً الطريق البري المار بكفر سابا وقاقون.. فأرسل الشيخ يوسف بعض تلك الجموع إلى مدينة عكا عن طريق وادي الليمون تقوية لحاميتها.

وأرسل قسماً آخر في غارات مفاجئة تباغت جند الحملة في كمائن نصبوها لهم، فكانوا يباغتون مؤخرة الجيش ويفتكون بها.. وقد قامت هذه الجموع بحرق ميمنة جيش نابليون في أحراش عزون، ومتابعة فلولهم في وادي قاقون..

وقاد الشيخ يوسف أكثر الجموع إلى مرج ابن عامر حيث حاصر فرقة القائد كليبر بالقرب من جبل طابور وضيق عليهم الخناق، وأنهك قوات كليبر وكادت تستسلم لولا نجدة نابليون لها وقصف القوات الإسلامية بالمدافع التي لا قبل لهم بها، فاضطروا إلى الانسحاب إلى جنين..

ولما انسحب نابليون بمن تبقى من قواته عن قلعة عكا، واصل رجال جبل نابلس هجومهم على مؤخرة الجيش المنسحب، ونصبوا الكمائن له حتى غادر البلاد مهزوماً وعائداً إلى مصر بعد أن ترك نحو ثلث جيشه

قتيلاً على أرض فلسطين.

وفاة سلطان البر:

عرف سلاطين بني عثمان وولاتهم في بلاد الشام هذا الموقف للشيخ يوسف الجرار، وعرفوا له مواقف من قبل كان أبرزها ما بذل من جهد ومعونة للفقراء والمحتاجين، وحتى لجيش الدولة نفسها في سنين الجدب والمجاعة.. فقدموه على جميع الشيوخ ووسّعوا نفوذه وسلطانه، وأطلقوا عليه اسم " سلطان البر" [1].. ودعاه السلطان سليم الثالث إلى اسطنبول وأكرمه إكراما يليق بمنزلته.

وبعد أن أقبلت الدنيا على الشيخ يوسف.. قوة عسكرية، ونفوذا سياسياً ورخاء مادياً، وسمعة عطرة في كل مكان.. توفاه الله عام1222هـ/1808م.

يقول الأستاذ إحسان النمر في كتابه " تاريخ جبل نابلس والبلقاء" تحت عنوان " وفاة " سلطان البر" [2]:

وبقي في المتسلمية إلى أن مات سنة 1222هـ/1808م عن أشبال ثلاثة هم: داود أغا والحاج أحمد أغا والشيخ عبد الله بعد أن سجل لهم مجداً تالداً ومكانة عالية، وأظهر عزة جبل نابلس ومكانته بأسمى مظاهرها، وقد مثل دور آل طرباي وزاد عليهم عمله المتواصل مع آل النمر والجيايسة وسائر الشيوخ، فدام جبل نابلس في عهده متحداً، فوفّق إلى الصلح بين نابلس وظاهر العمر، ثم ردّ الشهابي والكرجي، وبذل كل ما بوسعه لمساعدة الفقراء والمحتاجين في المجاعة فسارت بكرمة الركبان، وقد خاصم الجزار الذي عاد يستنجده بقصيدة هي مفخرة من مفاخر جبل النار، ثم ضايق كليبر في المرج، وتمرد على الدولة وأحرج البيكات وأنجد الجيايسة، ثم فاز بمتسلمية نابلس ولم يكترث بتكاليف والي الشام فعاش ومات أبياً وقوراً.

([1])دروزة، محمد عزة: العرب والعروبة..ج5، ص 110-111، وعادل مناع: أعلام فلسطين،ص74.

([2])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس..،ج1، ص 243.

ولما توفي الشيخ يوسف قام السلطان في اسطنبول بتكليف والي الشام بإرسال بلاطة من الرخام لتوضع على القبر تكريماً لصاحبه.. تحمل شعار السلطنة ومكتوب عليها عبارة تقول:

يوسف الجرار ذو المجد العظيم... تلقاه الله في جنائن النعيم

وعندما احتل الانجليز جبل نابلس عام1918م ذهب إلى صانور ضباط فرنسيون وانجليز وسألوا عن القبر وبعد أن عرفوه عادوا مرة أخرى دون أن يراهم أحد من أهل القرية وأخذوا البلاطة.. وبعد الاحتلال الاسرائيلي للضفة الغربية عام1967، ذهب إلى صانور بروفسور أمريكي " باحث اجتماعي" وسأل عن قبر الشيخ يوسف وذكر لأهل البلدة أنه شاهد البلاطة التي كانت على القبر في
متحف باريس.

قلعة صانور.. " قلعة الجبل"

كانت قلعة صانور قاعدة لجبل نابلس ومقراً لقيادته خلال القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر الميلادي، وكان شيوخ القلعة ـ في تلك الفترة ـ من آل جرار الذين قدموا إلى فلسطين من البلقاء في أوائل القرن الثامن عشر، قد قاموا بتشييد القلعة وتحصينها،وجعلوها مقراً رئيسياً لهم بجبل نابلس.

بنو جرار من اليمن إلى البلقاء:

ينتسب بنو جرار إلى قبيلة الشقران.. والشقران بطن من الصّبّر، من غسان، من القحطانية، وهم بنو شقران بن عمرو بن صريم بن حارثة بن عدي بن عمر بن مازن بن الأزد[1].. يقول القلقشندي في كتابه " نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب"[2]: الشقران بطن من الصبر من غسان من القحطانية وهم بنو شقران بن عمرو بن صريم.. بن مازن بن الأزد، ويقول في صفحة 141 من المؤلف المذكور: وسموا الصبر لصبرهم في الحرب، وفيهم يقول الأخطل:

([1])ابن دريد: الاشتقاق، ص 285، وابن عبد ربه: العقد الفريد ج2، ص 78.

([2])القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ص 305.

فسائل الصبر من غسان إذ حضروا والحزن كيف قراه الغلمة الجشر[1]

وقال السويدي في مؤلفه " سبائل الذهب في معرفة قبائل العرب" [2]:

" وذكر الحمداني إن بالبلقاء طائفة منهم وباليرموك منهم الجم الغفير وبحمص منهم جماعة"، وحمولة الشقران وآل جرار في بلاد جنين ونابلس من أعقاب هذا البطن الأزدي[3].

ومن بني عمرو بن مازن: عبد المسيح بن عمرو بن ثعلبة، صاحب خالد بن الوليد، ومنهم عبد المسيح الجهبذ، ومنهم سطيح الكاهن، وهو ربيعة بن ربيعة، من بني غسان: بنو جفنة بن حارثة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن ثعلبة بن امرؤ القيس بن مازن بن الأزد، ومنهم ملوك غسان بالشام وهم سبعة وثلاثون
ملكاً ملكوا ستمائة سنة وست عشرة إلى أن جاء الإسلام[4].

وقال ابن الكلبي[5]: وغسان ماء باليمن قرب سد مأرب كان شرباً لولد مازن بن الأزد بن الغوث نزلوا عليه فسموا به، ويقال: غسان ماء بالمشلل قريب من الجحفة والذين شربوا منه سموا به فسمي به قبائل من ولد مازن بن الأزد وقد ذكرتهم الشعراء.. قال حسان، وقيل سعد بن الحصين جد النعمان بن بشير:

با بنت آل معاذ: إنني رجل	من معشر لهم في المجد بنيان
شم الأنوف لهم عز ومكرمة	كانت لهم من جبال الطود أركان

([1])الحزن: قبيلة، والجشر: الذين يعزبون عن إبلهم.

([2])السويدي: سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، ص 64.

([3])الدباغ، مصطفى: القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطين، ص 166.

([4])ابن عبد ربه: العقد الفريد ج3، ص 387.

([5])الحموي، ياقوت: معجم البلدان – المجلد الرابع، ص 203-204.

إمّا سألت فإنّا معشر نجحب الأزد نسبتنا والماء غسان

خرج ابن جرار من اليمن مع جماعة من قبيلته الشقران في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، فنزلوا مكة المكرمة ومن مكة اتجهوا إلى حايل ثم استمروا إلى مدينة حلب ومنها انتقلوا إلى الشام[1].. واستقروا في قصبة حوران " بصرى الشام " ومنطقة اليرموك..

وكان ابن جرار شيخا للشقران في بصرى الشام، وكان الشقران فيها قبيلة كبيرة قسم منها مسلم وآخر نصراني، وعرف ابن جرار بهذا الاسم لأنه كان إذا تقلد سيف الإمارة كان السيف يجر على الأرض[2].. وقيل أن هذا الاسم قديم عرف به منذ خرج من اليمن..

ثم انتقل ابن جرار مع قسم من قبيلته واستقر بالقرب من القسطل.. وفي أواخر القرن الثالث عشر الميلادي منح الظاهر بيبرس " قلعة القسطل" [3] لشيخ الشقران، وكانت بقايا قلعة قديمة فحصنها واتخذها قاعدة له[4].

وتنقّل الشقران وانتشروا في بادية الشام والأردن، بين جبال البلقاء والرطبة في العراق، وبين اليرموك وبصرى الشام، وتناقلت أخبارهم شفوياً، يرويها الخلف عن السلف وقد ضاع معظمها ولم يدون منها إلا

([1]) الصويص، أبو حنا ميخائيل سلامة: شريط مسجل بصوته.. استمعت للشريط بتاريخ 15/8/1989م.

([2])الشقطا، الشيخ عبد الله: رسالة رابطة آل الأشقر، ج 3، ص 6.

([3]) ورد في كتاب " آثار الضفة الشرقية"، لبرامكي وديمتري، ص 46 أن القسطل تحريف لكلمة "Castale" الافرنجية، بمعنى " قلعة". . تقع على مسافة 30كم للجنوب من عمان، وعلى مسيرة خمسة كيلو مترات للشمال من الجيزة، ترتفع 740م عن سطح البحر، وينسب بناء القسطل إلى الملك الغساني الحارث بن جبلة "529-569م" وأما بقايا حصنها فيعود إلى قلعة رومانية شيدت من الحجارة الضخمة.
وورد في كتاب " بلادنا فلسطين " للدباغ، ج8ق2، ص :327 " وإلى الغساسنة ينسب بناء القسطل والزرقاء وأذرح والجرباء، ومعان القديمة وغيرها في شرق الأردن كما ذهب بعضهم إلى أنهم هم بناة بعض قصور الصحراء في البادية الأردنية.

([4]) جرار، عبد الهادي: تاريخ ما أهمله التاريخ، ص 80

القليل، ومما وصل إلينا منها أن زعيم عشيرة الشقران في أوائل القرن السادس عشر الميلادي الأمير صالح بن عبد الله كان من بين أمراء الديار الشامية الذين رحبوا بالسلطان سليم الاول العثماني الذي انتزع البلاد من السلطان قانصوه الغوري بعد معركة مرج دابوق سنة 1516م.

كما أعلن أولئك الأمراء الولاء والطاعة لهذا الفاتح حينما قابلوه في مدينة دمشق في خريف ذلك العام، وقد أقرّ السلطان كلا منهم في عمله على أن يعلنوا الولاء والطاعة ويدفعوا الضرائب السنوية المطلوبة منهم..

وقد حافظ شيوخ الشقران على ولائهم للدولة العثمانية ولممثليها في بلاد الشام، وظلوا يحرسون قوافل الحج بين دمشق والمدينة ويصدون عنها أي غزو تقوم به القبائل البدوية[1].

ولم يقف انتشار الشقران وتنقلهم عند بادية الشام والأردن خلال هذه القرون التي عاشوها، بل تعداها إلى مناطق كثيرة، فكان بعضهم ينتقل إلى فلسطين وإلى جنوب الأردن، ويسكنها فترة من الزمن ثم يعود إلى البادية..

وقيل أن جماعة منهم رحلت من الأردن في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي إلى شمال الجزيرة العربية، ثم انتقلوا إلى شمال السودان، واستقروا في كردفان ودارفور والنيل الأبيض، وقد ورد ذكرهم في عدد من الكتب التاريخية.. فقد ذكر المؤرخ نعوم شقير[2] أن " بنو جرار" من أشهر القبائل العربية التي نزلت شمال وشرق كردفان وأنهم من العرب الأبّالة { يقتنون الإبل }، ويكثر في بلادهم النعام والغزلان..

وورد في كتاب " تشحيذ الأذهان" [3] أن " بنو جرار" من أقوى قبائل كردفان
ودارفور، وأنهم بدو مستقرون قرب بلدة الطويشة..

([1]) جرار، عبد الهادي: تاريخ ما أهمله التاريخ، ص 80.

([2])شقير، نعوم: جغرافية وتاريخ السودان، ص 71.

([3]) التونسي، محمد بن عمر: تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، ص 140، وص 346.

وورد في كتاب السلالات العربية السودانية أنهم سكنوا دارفور في القرن السادس عشر بالقرب من الفاشر، وعرفوا بالشجاعة والمغامرة..

وكان زعيم بني جرار " نوباوي"، وخلفه في رئاستهم ابنه محمد ود نوباوي الذي حاصر الخرطوم وفتحها مع المهدي أميرا وسميت باسمه منطقة " ود نوباوي" بأم درمان[1].

وفي الأردن اطلعت في صيف 1988 على شجرة نسب قديمة للشقران في بيت رئيس المجلس القروي ببلدة " ارميمين " قام بنقلها وتدوينها السيد سلطي الصايغ عام1969م عن جلد غزال، وقد ترك شجرة النسب هذه الشيخ سالم الوهبان لأولاده سليم وميخائيل وسالم الصايغ الغساني في بلدة بشمون في لبنان عن أصل الغساسنة في بلاد الشام.. كما وجدت عنده ختماً للشيخ سالم الوهبان يرجع تاريخه إلى عام 1338..

والشجرة تتحدث عن عمر الغساني ابن هاني الغساني الذي خلف اثنا عشر ولداً.. ثمانية منهم كانوا في البلقاء بالأردن، وأربعة سكنوا فلسطين، وهم:

علمي في حيفا، ومنذر في جنين، وفرح في الخليل، وسفيان في غزة.. وقد نقلت عن الشجرة أحد فروعها وهو الذي يتعلق بمنذر الغساني الذي سكن جنين:

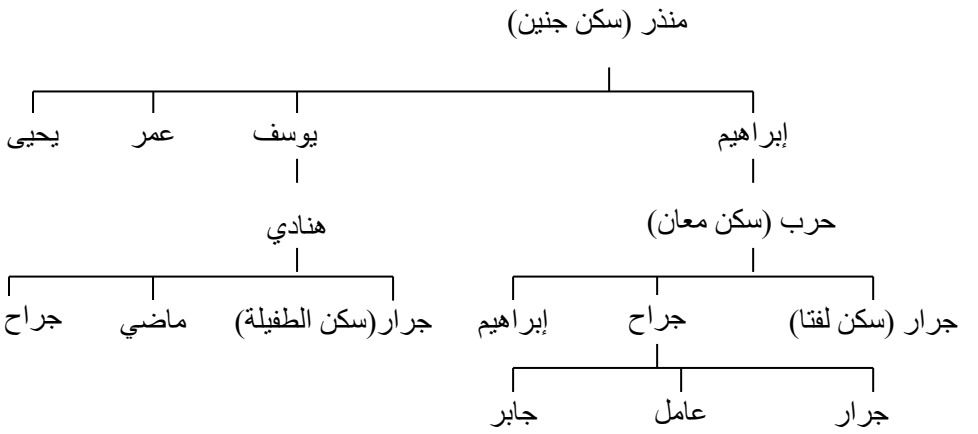

(1)النجاتبي عامر: السلالات العربية السودانية في النيل الأبيض، ص 85-87.

ويروي الشيخ عبد الله الشقطا[1]إن ابن جرار رحل مع عربه من بصرى الشام واستقر في القسطل بالبلقاء.. وأن ابن جرار فلح وزرع واغتنى وكثرت غلاله فأشاد الحواصل وملأها، وحكم وامتدت سطوته حتى وصلت الرطبة في العراق.. وكانت القسطل بقايا قلعة رومانية قديمة فأشادها وحصنها وأصبحت تعرف باسمه " قلعة ابن حرار" [2].

ومن شيوخ بني جرار في القسطل الذين وردت أخبارهم وتناقل عرب البادية قصصهم وأشعارهم، الشيخ العنقري ابن جرار، وقصته مع عرب الفضول ومع الشيخ ابن هذال ـ من عربان العراق ـ معروفة، وخاصة قصة زواج العنقري ابن جرار من سارة بنت ابن هذال[3]..

ومنهم الشيخ ناصر ابن جرار الذي كان من أبرز شيوخ البلقاء في أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر الميلادي، وكان شيخاً لعشيرة الشقران ومركزه قلعة القسطل، وكان عربه ينتشرون وينتقلون من جبال البلقاء حتى الرطبة في العراق وبصرى في بلاد الشام.. وما زال عرب البادية حتى اليوم يروون قصصه ويتحدثون عن كرمه ونشاطه وشجاعته، ويذكرون قول الشاعر في عشيرته:

سقى الله قوماً بالموقر دارهم وفي قسطل الفيحاء ذات المحارب

ويحفظون الكثير من أشعاره وعلاقاته مع قبائل السردية والفضول وغيرهم ممن كانوا يجاورون ديرته.. ومن مشايخ العرب الذين يحفظون هذه القصص والأشعار.

الشيخ عبد الله الشقطا من قبيلة الصويصات بالفحيص.. والشيخ إبراهيم الزاهري من شيوخ عشائر الحجايا.. والشيخ الوقور إمام مسجد

([1])الشقطا، الشيخ عبد الله: رسالة رابطة آل الأشقر، ج 3، ص 6.

([2]) كان عند مدخل القلعة حجر كبير، عليه كتابة تبين تاريخ بناء ابن جرار للقلعة، وقد شوهد الحجر حتى عام 1986م ثم اختفى، فربما أخذه بعض السياح الذين يزورون القلعة.

([3])مقابلة مع حنا جريس السماوي في الفحيص بتاريخ 30/7/1987.

أبو علندا، وقد زرته في بيته عام1973م وسجلت ما يحفظ من هذه الأشعار.. والسيد أبو حنا ميخائيل سلامة الصويص، والسيد حنا جريس السماوي من الفحيص، وقد سجلت بعض القصص والأشعار التي سمعتها منهم..

ومن القصص والأحداث التي تروى عن الشيخ ناصر، قصته مع شيوخ عرب السردية[1].. وقد ذكر الشيخ عبد الله الشقطا، والسيد أبو حنا ميخائيل سلامة الصويص قصة السردية مع ابن جرار كاملة[2].. والتي تجلى فيها كرمه وشجاعته وانتهت بزواجه من " سعدى" ابنة أميرهم فواز ابن ملاك..

وكان عرب السردية ينزلون شرقي القسطل، وكان أن أمحلت أرضهم سنوات متتالية فجاعت السردية وقضت سنتها على أكل اللحوم، واجتمع شيوخ القبيلة للمشورة وأرسلوا " سعدى" ابنة أميرهم هدية لابن جرار لتعيش السردية على غلاله سنة المحل والجوع[3]، وكانت سعدى مشهورة بجمالها وحكمتها..

وان عدداً ـ ليس بالقليل ـ من شيوخ البادية في الأردن يحفظون هذه القصة بتفاصيلها ويحفظون أشعار ابن جرار فيها.. وما زالوا إلى اليوم يعلمونها أبناءهم، وخاصة وصية ابن جرار لابنه حماد التي قالها عندما

([1]) يقول وصفي زكريا في كتابه " عشائر الشام " ج2، ص 70-72: السردية من أجلّ العشائر وأكرمها محتداً وهم يدعون النسبة إلى بني مخزوم وأنهم جاءوا من حوران زمن الفتح، وقد تنازعوا في القرن العاشر مع السرحان وانتزعوا السيادة منهم وصاروا حكام بادية حوران وعجلون، واشتهر من زعمائهم في القرن الثاني عشر الشيخ محفوظ الذي كان يزود ركب الحج بالجمال ويتعهد بحمايته، والسردية فرسان مغاوير عندهم شمم وغرور بنسبهم وماضيهم، وكانت منازلهم حول قرية " القرية " وبكه وأم الرمان،وهم الآن على حدود الأردن وينتجعون في الشتاء الأزرق.

([2]) الشقطا، الشيخ عبد الله، رسالة رابطة آل الأشقر ج3، ص 7-16، والسيد أبو حنا ميخائيل سلامة الصويص: شريط مسجل بصوته.

([3])جاءت ثلاث سنوات محل وكان ابن جرار فاتح مضافته لكل محتاج.

قرر اللحاق وحده[1] بعرب السردية، بعد أن خدعوه وتفضوا عهدهم معه.. والتي يقول فيها:

وصية ابن جرار لابنه حماد[2]

يالله على ما قال ابن جرار ناصر	التوى لولب الدُّنيا عليه ودارْ
الناس بهمّين وأنا بثلاثة	وشظّيتني() يا بين خمس مُرّارْ
أول مُرْ كل ما قلت أنا ألحقُه	كن ركض على جنح الغراب وطار
ثاني مُرْ كل ما قلت أنا ألحقه	خلّى القصور العاليات دمار
ثالث مر كل ما قلت أنا ألحقه	يدع العِصيّ القاسيات قصار
رابع مرة هو بنت عمُّه حليلتُه	كَوَتُه على روس الضلوع بنار
خامس مر عِزوتُه يوم تفرّقوا	أجاويد ربعه يا جُملة الأمّار()
وقلت يا مين بيد الله حيلكُم	مضى الأمر وانتوا نايمين قطار()

***

(1) كان ابن جرار يحمل هماً كبيراً.. وذلك أنه كان في سنة خلت قد فقد رجاله الأقوياء في إحدى المعارك وليس لديه من الفرسان من يعاونه على اللحاق بالسردية فقرر اللحاق بهم وحده.. وكان معروفاً عن السردية أن " خيالهم بعشرة " وها هو يتعقبهم وحيداً.. بعد أن خدعوه وأخذوا ما يحتاجون من الغلال وهربوا في الليل، ومعهم " سعدي".

(2) الشقطا، الشيخ عبد الله، رسالة رابطة..ص 13-14، والسيد أبو حنا: شريط مسجل.

أوصيك يا حمّاد منّي وصيّه وصيّة مع الرّاوي تفرْ فرارْ

أوصيك يا حماد على هاشِل العِشا0 يوم ردي الخال صكّ الدّار

أوصيك يا ما ترافق اللّي ما أنت مثله ولا هو مثلك يعطيك عقب الموزمات حقار

بِدلّيك بالبير من لا ينشلَكْ البير هاوي والحبال قصارْ

دارك يا حماد دار ثرية القل ظلمة والغناه نهار

أوصيك يا حماد على حشمة ظنيبك لا بد جارك ما يجاوِرْ جار

لابد بعد الهرج اللي ما بينك وبينه تحمّلْ على عوج الرّقاب وسار

جود بلا موجود عسر على الفتى ومال بلا جودات قِنْية عار

أوصيك بوعدّين0 لا تركنوا له يا ورق زاهي بغير ثمار

يعطيك من طرف اللّسان حلاوه وباقي الهرج يدهنُه بقمار0

أنا مثل عيد0 على الدار بارك يَحِنّ إذا مرّنْ عليه بكار

أنا مثل يتيم وراء الناس قاعد يلوج بعين والدموع غزار

أنـا مـثل طـير قَـصْقص الـبينْ يراعي بعينُه الطّير يومٍ طار
ريشُه

أنا مثل عطشان عالْبير وارد يروش0 الرّشا والحبال قصارْ

أبوكِ يالدّنْيا غَرور ولو زَهَتْ ومن أمّن الدُّنيا فذاك حمار

يا ويح ما غنّى ابن جرّار قصيده من البِين والحسرات ذاق مَرارْ

وبعد الشيخ ناصر عاش أبناؤه ومن بقي من أبناء عشيرته في القسطل فترة من الزمن ثم انتقلوا أفراداً وجماعات إلى أماكن أخرى..وانتقال القبائل العربية من مكان إلى مكان أمر عادي ومعروف بين القبائل قد يكون لسبب وقد يكون بلا سبب، ولكننا لا نعرف الأسباب الحقيقية التي دفعتهم إلى ترك القسطل والهجرة إلى أماكن أخرى...

فقد خرج حمدان ابن حماد الناصر من القسطل إلى حوران وبقي فيها فترة من الزمن ثم عاد ونزل في برج الخيار أحد أبراج قلعة السلط، وهو جد عشيرة العواملة التي تعيش في السلط إلى اليوم..

أما أخوه محمد الزبن فقد خرج من القسطل في أوائل القرن الثاني عشر الهجري، الموافق لأوائل القرن الثامن عشر الميلادي، ونزل في منطقة جنين بفلسطين.. وقيل أن لهما أخوان آخران هما "حمد " الذي سكن منطقة إربد وينتسب إليه الرواشدة فيها، و "حميد" الذي ينتسب إليه آل أبي طالب في السلط.

وانتقل عرب ابن جرار ـ الشقران ـ من القسطل إلى بلدان كثيرة فمنهم من نزل السلط والفحيص وغيرها من بلدان الأردن،ومنهم من انتقل

إلى فلسطين واستقر في عدد من بلدانها.

بنو جرار من القسطل إلى جبل نابلس:

في أوائل القرن الثاني عشر الهجري، الموافق لأوائل القرن الثامن عشر الميلادي،غادر القسطل الشيخ محمد الزبن ابن الشيخ حماد الناصر ابن جرار متوجهاً إلى جبل نابلس، وكان يصطحب معه بعض غلمانه وأنعامه.. وأخذ ينتقل من مرعى إلى مرعى طلباً للكلأ والماء حتى بلغ السهل الواقع بين بلدتي قباطية وعرابة بمنطقة جنين حيث استقر به المقام في هذا السهل.. وكان الشيخ محمد شاباً في مقتبل العمر يتدفق حيوية ونشاطاً وكرماً.. فأحبه الناس واحترموه، وانتشر صيته بين أبناء القرى المجاورة وبين القبائل البدوية التي كانت تقيم في هذا السهل بعض أشهر السنة انتجاعاً للماء والمرعى.. وغدت مضاربه مقصداً لكثير من أهل القرى المجاورة وغيرهم، وأصبح يعرف عندهم باسم الشيخ محمد المشرقي...

وكانت عشيرة النزالية في عرابة صاحبة النفوذ في منطقة الشعراوية الشرقية.

فلما رأى هؤلاء أن " محمد المشرقي" القادم حديثاً إلى المنطقة يتمتع ببعض مظاهر المحبة والاحترام والسمعة الطيبة بين أبناء القرى المجاورة، عز عليهم أن ينازعهم هذا البدوي سلطانهم ونفوذهم، فقرروا التخلص منه بأي وسيلة، وأخذوا يتربصون به.. وفي ذات يوم دعوه عندهم للعشاء، وباغتوه وحيداً في مضافتهم وانهالوا عليه طعناً بالخناجر وضرباً بالعصي وتركوه جثة هامدة، ورموا جثته في أطراف القرية تحت أشواك الصبر.. وقام أحد الحاضرين بإبلاغ أحد غلمانه بما حدث فذهب إليه ووجد فيه بقية نفس، فلفه بعباءته وحمله على ظهره وسار به ليلاً ينشد له العون والعلاج، حتى آنس ناراً عند إحدى التلال الجبلية، ولما بلغها فإذا هي خباء بدوي تنزله امرأة متقدّمة في السّن.. ولما رأت ما به من طعنات سارعت لعلاجه والسّهر عليه، وأنزلته في الخباء تتكتم أمره خشية الوصول إليه، كما أحضر له الغلام طبيباً عربياً من قرية جبع المجاورة فجلس معه يعالجه. وقضى الشيخ محمد ثلاثة أشهر بين الحياة والموت حتى كتب الله

له الحياة من جديد.

وعرف الشيخ أعداءه الذين غدروا به، فصمم على الثأر والانتقام، وغادر خباء المرأة البدوية النازلة بجوار بلدة " صانور" مسرعاً إلى قومه في أرض القسطل وقص عليهم أخباره وما أصابه من مكروه، ولما رأوا ما بجسده من طعنات قرروا الثأر وأخذوا يستعدون للزحف، وقاد الحملة إخوته، وساروا حتى بلغوا سهل عرابة الشرقي في أوائل الربيع من ذلك العام، وكان أهل القرية منهمكين في أعمالهم وزراعتهم فباغتوهم وقضوا على معظمهم..وبهذا ثأرت عشيرة الشقران لابنها " محمد المشرقي " وأنزلته منازل القوم.

وأقام الشيخ محمد في عرابة فترة من الزمن وأقام معه عدد من أبناء عمومته وعشيرته، وعاد الباقون إلى البلقاء، وكان آل طرباي والمهاميط في جنين ومرج ابن عامر في أواخر عهدهم وضعفهم، فقامت السلطنة العثمانية بتعيين محمد الزبن متسلماً على اللجون { منطقة جنين وبيسان}، فانتقل من عرابة إلى مرج ابن عامر وبقي في عرابة من الشقران الحاج أحمد الجرار وأبو بكر الصالح.

بناء القلعة:

كانت تراود الشيخ محمد الزبن أمنية وهي تخليد ذلك المكان الذي شهد جراحه وعلاجه والذي سارع أعرابه لمساعدته، وكان ذلك المكان هو موقع بلدة صانور الحالية..

كانت هذه البلدة في مطلع القرن الثامن عشر الميلادي، بقايا أطلال لقرية كانت يوماً ما آهلة بالسكان تنعم ببعض مظاهر الحضارات القديمة التي تدل عليها الآثار الموجودة في موقع البلدة وما حولها..

إن موقع هذه البلدة الجميل وما يحيط بها من التلال والجبال الخصبة والحصينة التي تطل على سهل واسع "مرج صانور" تغري رجال الحرب،كما تغري أصحاب السائمة للسكن والإقامة فيها، وخاصة الذين سبق أن عاشوا في مثل هذه المواقع التي تصلح لبناء " قلعة حصينة". .ولذا فقد انتقل الشيخ محمد الزبن بحلاله ومضاربه إلى هذا

الموقع، وبدأ يقيم منازله عند قمّة هذا التل حتى أتم بناء عدد من الدور، وأحاطها بسور متوسط الارتفاع كان أساساً لسورها التاريخي الذي أقيم فيما بعد.

وبعد وفاة الشيخ محمد الزبن تولى المشيخة بعده ابنه الشيخ يوسف الجرار، وكان أول ما قام به هو إتمام منازل البلدة التي بدأ يفد اليها كثير من أعوانه والراغبون في جواره..

ولما كان النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي عصر ضعف في الدولة العثمانية مما شجع المغامرين والطامحين في الخروج عليها واستقلال كل في ولايته، وهكذا فعل علي بك الكبير في القاهرة، وظاهر العمر ثم أحمد باشا الجزار، والأمراء الشهابيون في بلاد الشام، ولكي يحتفظ هؤلاء الخارجون بولايتهم عمدوا إلى إنشاء القلاع والحصون وبناء الأسوار حفظاً لسلامتهم..

ومع أن الشيخ يوسف الجرار لم يفكر في الخروج على طاعة السلطان إلا أن الأحوال العامة في بلاد الشام جعلته يصمم على تحصين قاعدته في صانور، سيما وأن والده قد مهد له وضع أسس سور يحيط بالبلدة من جميع أطرافها[1].

([1])جرار، عبد الهادي: تاريخ ما أهمله التاريخ، ص 88

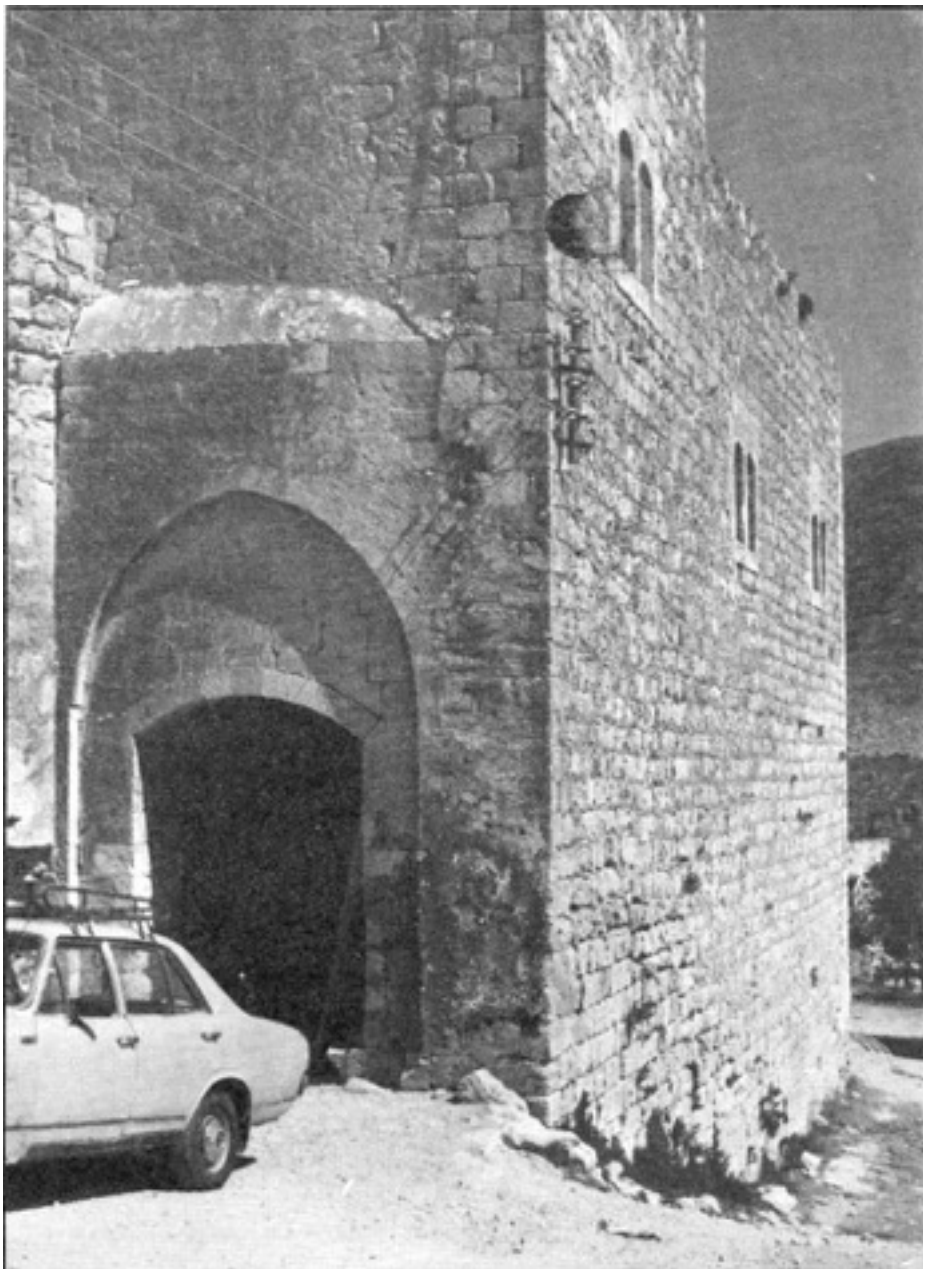

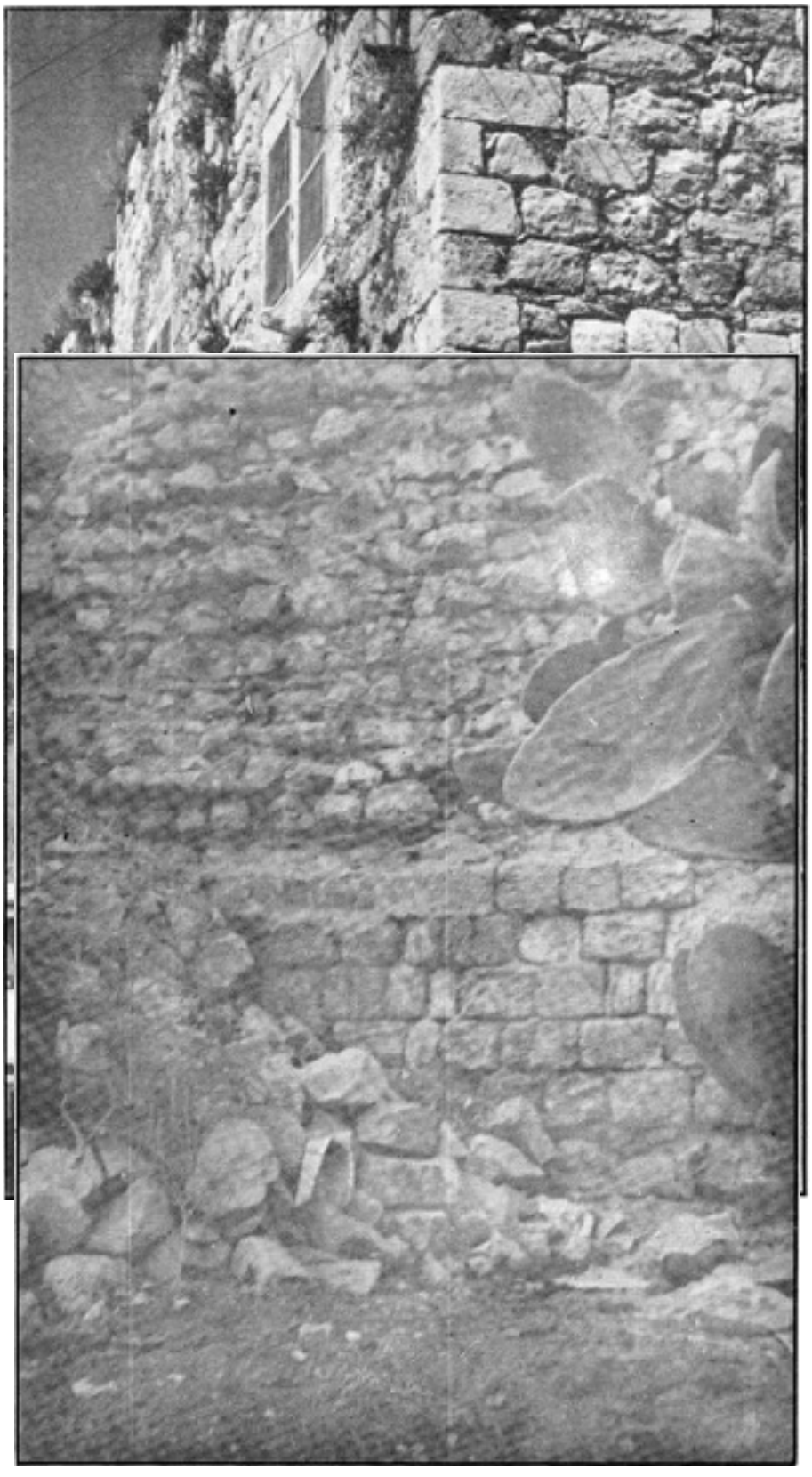

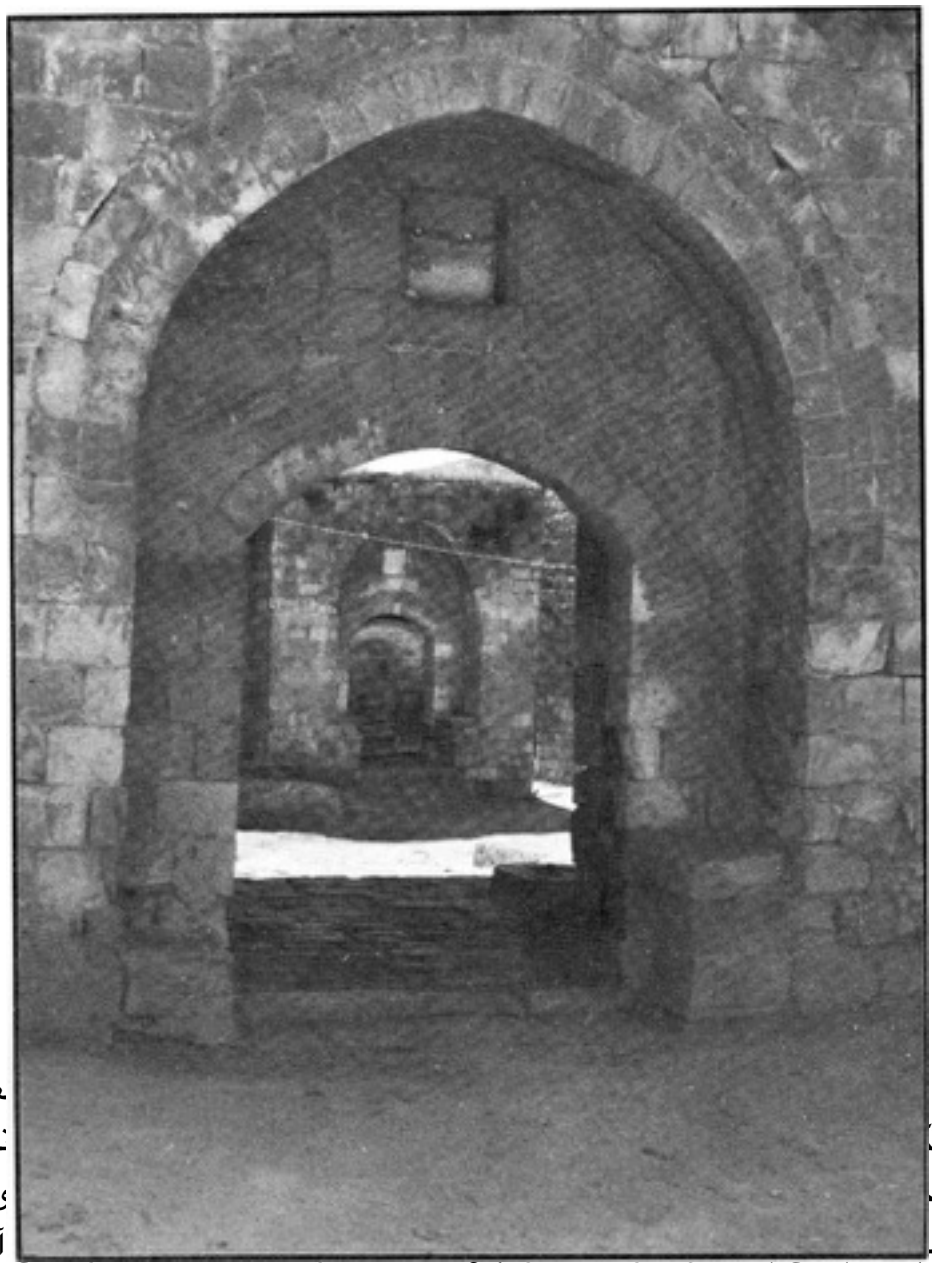

القاسم والنمر والجيوسي..

وتم بناء السور والقلعة عام 1188هـ/1774م...

وقد بني السور من الحجر الصلب بالشّيد " الكلس " والزيت، وتبلغ عرض قاعدته ثلاثة أمتار، أما ارتفاعه فيزيد على خمسة عشر متراً..

وللقلعة ثلاثة أبواب معروفة وباب سري ـ ويعرف حتى اليوم بباب السر ـ لم يكن يعرفه إلا أهل القلعة.. ولها ثلاثة أبراج ضخمة أحدها بجوار الباب الرئيس للقلعة.. وتشتمل القلعة على عدد كبير من المغاور والآبار التي كانوا يلجأون إليها وقت الحصار.

وقد أقيمت قلعة صانور على أساس سابق قديم، وهي من جهة الغرب متصلة بالجبل، ومن هذه الجهة كانت تُضرب.. وتحيط بها عن بعد جبال مرتفعة أهمها وأعلاها جبل " حريش ".

ويوجد أمام القلعة في الجهة الجنوبية منها سهل واسع كان ميداناً لسباق الخيل والتدريب على الفروسية.

وقد ورد وصف لهذه القلعة في كثير من المراجع التاريخية، يقول الأستاذ إحسان النمر في وصفها[1].

"القلعة هي الحصن المبني على طراز القصر إلا أنها تشتمل على ساحة مسوّرة مع أبراج وبوابات.. وليس لهذا الوصف في جبل نابلس من نموذج سوى " قلعة صانور" ـ رغم تغير أكثر معالمها ـ وهي تشتمل على مجموعة قصور مبنية على مساحة تساوي نحو عشرة دونمات أي عشرة آلاف متر مربع، إلا أن المساحة العامة للمحيط السابق للقلعة ـ قبل هدمها ـ تساوي عشرة أمثال المساحة الحالية". .

وقال عنها باز: وكانت هذه القلعة " ذات متانة وليس لها نظير وكانت دايماً نصب عين والي الإيالة"[2].

ووصفها أبو شقرا بقوله: " كانت راسخة القواعد والجدران، رحيبة الفناء غنية بالماء حشد فيها الجرار المؤن والذخائر[3].

وقال عنها الدباغ: "صانور بلدة عربية قديمة تقع في الجهة الجنوبية من جنين بانحراف قليل نحو الغرب وعلى مسافة 20 كم منها، أقيمت على تلة مشرفة على المرج المسمى باسمها، ترتفع 400 متر عن سطح البحر،

([1])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس..،ج2، ص 456.

([2])باز، رستم، مذكرات رستم باز، ص 28.

([3])أبو شقرا، يوسف خطار: الحركات في لبنان..، ص 18.

وكانت تمر من بقعتها الطريق الرئيسية الوحيدة بين بلاد نابلس والجليل في العصور الماضية.. وفي صانور مدرسة تأسست عام1305هـ أيام العثمانيين، ويندر أن تجد بين رجال هذه القرية من لا يلمّ بالقراءة والكتابة، وبعد النكبة أضحت مدرستها إعدادية كاملة"[1].

وقد زار القعلة المؤرخ ناجي حبيب مخوّل ودوّن ما شاهده فيها فقال[2]:

" في 30/3/1978م ذهبت إلى هذه القلعة التاريخية بنفسي وقد شاهدت هناك الثغور بسورها الذي أحدثته قنابل مدافع الذين حاصروها، وأن هذا السور لم يبق قائم منه إلا نحو " 400" متر من الغرب والجنوب وعلى علو 8 أمتار في بعض المحلات، ولا تزال بعض أبراج هذه القلعة ظاهرة بوسط هذا السور البالغ عرضه نحو 3 أمتار للدفاع عن البلدة التي داخل السور، والتي تعتبر قلعة.. ولا يزال جامع صانور ـ القديم ـ داخل هذا السور إلى الوقت الحاضر.. وهذا ما شاهدته بنفسي".

([1])الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ص 127.

([2]) مخول، ناجي حبيب، عكا وقراها،ج1، 2، ص 87-90.

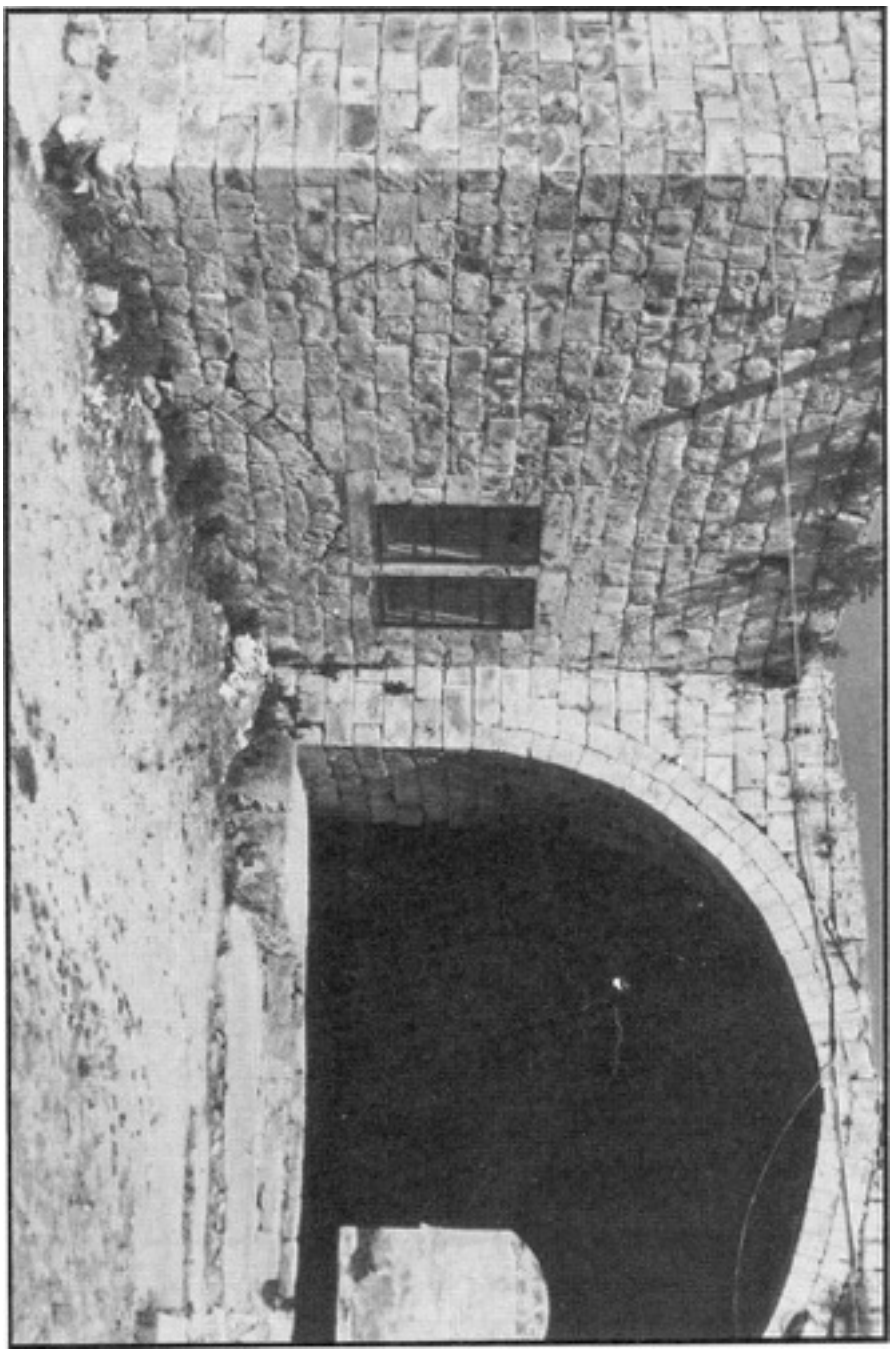

شيوخ القلعة في العهد العثماني { 1720ـ 1840م}:

الشيخ محمد الزبن: {من أوائل القرن الثامن عشر حتى 1772م}:

وهو الذي قدم من القسطل في أوائل القرن الثامن عشر الميلادي ونزل في بلدة عرابة بمنطقة جنين، ثم انتقل إلى مرج ابن عامر حيث قامت السلطنة العثمانية بتعيينه متسلماً على اللجون[1]{ منطقة جنين وبيسان}، واستمر متسلماً إلى ما قبل وفاته عام1772م، وهو الذي عمّر الداثر من صانور وحصنها فصارت قلعة منيعة[2] واتخذها مقراً له، وهو الذي حاصره عثمان باشا الصادق الكرجي والي الشام سنة1178هـ/1764م، وقد استنجد هذا الوالي بالأمير يوسف بن ملحم الشهابي حاكم لبنان على فتحها، فتوجه الأمير بجيش من جبل الشوف وتوابعه، والتقى بالوالي في الطريق وسار معه وحاصرا القلعة زمناً طويلاً وعادا مخذولين[3]...

وفي زمن الشيخ محمد تم القضاء على مظاهر الظلم والجبروت في جبل نابلس، ومن تلك المظاهر أن المشاقي ـ شيخ ياصيد ـ اغتصب أملاك آل رشيد وذبحهم جميعهم ـ في صير ـ ولم تبق إلا امرأة مع طفلها احتمت بالشيخ محمد.. وكان المشاقي أكبر ظالم في جبل نابلس[4]، فقام الشيخ محمد بحمايتها والقضاء على المشاقي.. يقول إحسان النمر في كتابه " تاريخ جبل نابلس"[5]: " إن محمد أغا النمر اتفق مع الشيخ محمد الجرار وقضوا على المشاقية والنزالية عام 1728م".

الشيخ إبراهيم الجرار:

([1])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس..،ج1، ص 71- 74، ص160

([2])الشهابي، الأمير حيدر: الغرر الحسان، ص 800.

([3])الشهابي، الأمير حيدر: الغرر الحسان، ص 63، والشدياق، طنوس: أخبار الأعيان في جبل لبنان ص 382.

([4])يروى عن المشاقي أنه كتف رجلاً في جوار عتيل – بعرق بطيخ، ـ وأرسله وحيداً، إلى ياصيد، ولما رأته ابنه المشاقي تنبأت بزوال مشيخة أبيها.

([5])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس..،ج1، ص 131.

وهو ابن الشيخ محمد الزبن، وكان قد تحالف مع الشيخ ابن ماضي والشيخ
رشيد الجبر أمير الصقر عام 1735م ـ في حياة والده ـ وقاد جموع جبل نابلس إلى مرج ابن عامر لصد اعتداءات الشيخ ظاهر العمر على أراضي المرج، ولكن الشيخ ظاهر تغلب عليهم في تلك المعركة حيث نصب لهم كمائن، ووقع الشيخ إبراهيم في كمين منها وقتل، وقد أرخ ميخائيل الصباغ في كتابه " تاريخ الشيخ ظاهر العمر " هذا الحدث بسنة 1735م[1].

الشيخ يوسف الجرار {1772-1808م}:

تولى المشيخة بعد وفاة والده الشيخ محمد الزبن عام 1772 م، وكان قد عين في أواخر عهد والده متسلماً لجنين عام 1770م، وجمع بينها وبين متسلمية جنين ثمانية عشر عاماً.. وأصبح شيخاً لجبل نابلس ولقب " بسلطان البر"، وفي زمنه توحد جبل نابلس في ظل أمير واحد.. وقد كتبت عنه بالتفصيل في بداية هذا الفصل.

الشيخ داود اليوسف الجرار:

وهو الابن الأكبر للشيخ يوسف.. تسلم متسلمية جنين بعد وفاة والده عام 1080م، وتوفي بعد والده بثمانية أشهر.

الشيخ أحمد اليوسف الجرار {1809-1819م}.

تولى المشيخة بعد وفاة أخيه عام 1809م، وعين متسلماً لجنين وبقي متسلماً لها حتى توفي عام 1819م، وجمع بينها وبين متسلمية نابلس مدة سبع سنوات في أعوام 1811-1816،و1819 وتوفي وهو يجمع بني المتسلميتين[2].. وقد وردت أخباره في كتاب " أعلام فلسطين " لعادل مناع، وذكر أنه كان من مشايخ جبل نابلس البارزين في العقد الثاني من

([1]) دروزة، محمد عزة: العرب والعروبة..ج5، ص 183.

([2])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس..،ج1، ص 303، 277، 296،و إبراهيم العورا: تاريخ ولاية سليمان باشا العادل، ص 290، 310.

القرن التاسع عشر[1]..كما ورد في كتاب الرحالة س ـ بكنجهام - ترجمة سليمان موسى، الذي زاره في قلعة صانور، وكان
يحمل له رسالة توصية من رئيس الدير في الناصرة.. يقول بكنجهام: " ولقيت من الشيخ كل احترام وإكرام قبل أن أسلمه الرسالة، فاستقر في نفسي انطباع بأن هذا الحاج الزعيم رجل كريم طيب القلب أكثر من أي شخص عرفته حتى الآن بين العرب والأتراك الذين التقيت بهم، ولكي يزيد من إكرامه لنا وفضله علينا، فإنه أصر أن يرسل معنا واحداً من رجاله إلى نابلس لكي يضمن سلامتنا من الأخطار التي قد نصادفها".

وتابع الرحالة وصفه للبلدة وأهلها وأراضيها وما شاهد في طريقه إلى نابلس من اهتمام الأهالي بالزراعة، وأنّه شاهد في نابلس النساء يغطين وجوههن بخمر ملونة، ويلقين على الرأس والكتفين مناديل ذات ألوان صفراء فاتحة، وذكر أن الرجل الذي أرسله الشيخ أحمد بقي معه في نابلس حتى عاد معه إلى صانور في 17 شباط 1816، ثم تابع رحلته[2].

وورد ذكر الشيخ أحمد الجرار في كتاب إحسان النمر "تاريخ جبل نابلس " وبعد أن أورد الكثير من صفاته وأعماله قال: " وتم تعيين الحاج احمد أغا اليوسف متسلماً لنابلس عام 1235هـ/1819م، ومات بعد بضعة أشهر من تاريخ تعيينه، وبموته فقد جبل نابلس أميرا خطيراً قوي النفس والعصبية شجاعاً عزيزاً وفقد آل النمر أكبر نصير، وفقد آل جرار كبيراً لم يرزقوا بعده مثله، وبموته فقدت نابلس حاكماً وطنياً مهاباً، فتوالى عليها حكم المتسلمين الغرباء الذين لا حول لهم ولا قوة"[3].

الشيخ عبد الله اليوسف الجرار {1820-1837م }:

وهو النجل الثالث للشيخ يوسف، تولى المشيخة بعد وفاة أخيه الشيخ أحمد وتولى متسلمية جنين عام 1820م[4].. وتولى متسلمية نابلس عام

([1]) مناع عادل: أعلام فلسطين، ص 71.

([2]) سليمان موسى: جريدة الرأي الأردنية في 23/10/1985م

([3])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس..،ج1، ص 284.

([4])مناع عادل: أعلام فلسطين، ص 71،73.

1828 – 1829م وعام 1830 – 1831م..

عرف الشيخ عبد الله بالجرأة والكرم ولم يؤت حظاً من السياسة والدّهاء.. وقد كثرت الأحداث في زمانه، فكان صريحاً واضحاً مع كل حدث من هذه الأحداث.

كانت علاقة الشيخ عبد الله طيبة وقوية مع جميع مشايخ جبل نابلس.. وفي عهده أخذ الشيخ حسين عبد الهادي المتنفذ في قرية عرابة يظهر على مسرح الأحداث، وأخذت مكانته تمتد وتتسع في أيام حملة إبراهيم باشا المصري على بلاد الشام، وقد عرف الشيخ حسين بحنكته ودهائه وكيده، وقد كانت بينه وبين الشيخ عبد الله الجرار أسباب المودة وكثيراً ما كان الشيخ عبد الله يستأنس برأيه وتدبيره..

هذا في الوقت الذي كان هو يكيد في بلاط سليمان باشا العادل لصديقه الشيخ عبد الله، حتى كادت تتوتر العلاقات بين الوالي والشيخ عبد الله لولا توسط الشيخ نمر الماضي- شيخ بلدة إجزم وسهل حيفا الساحلي ـ بينهما، فقد كشف الشيخ نمر عن الحقيقة وأزال ما كان يشكو منه سليمان باشا العادل[1].

أهم الأحداث في عهد الشيخ عبد الله:

أولاً: الشيخ عبد الله.. ووالي عكا عبد الله باشا:

بعد وفاة سليمان باشا العادل خليفة الجزار سنة 1822م تولى الحكم بعده مملوكه عبد الله باشا، وبعد سبع سنوات من توليه زيّنت له نفسه حكم البلاد حكماً فردياً مباشرا يقضي به على حكم الأمراء والشيوخ المتنفيذين، ولذا توترت العلاقات بينه وبين الأمراء والشيوخ.. وفي سنة 1828-1829م حصل الشيخ عبد الله الجرار على متسلمية نابلس ولكنه لم يسرع في تقديم الطاعة لعبد الله باشا والي عكا.

فطلب الوالي من آل جرار تسليم قلعتهم فأبوا، فأرسل عدة حملات للاستيلاء عليها، ولكن تلك الحملات التي استمرت حتى سنة 1830م بائت جميعها بالفشل، إذ أن جميع أنصار الشيخ عبد الله في جبل نابلس هبوا لنجدته، وفي أواخر سنة 1830 م قرر عبد الله باشا فتح قلعة صانور

([1]) جرار، عبد الهادي: تاريخ ما أهمله التاريخ، ص 92.

وهدمها، واستعان بالأمير بشير الشهابي، فأتى بجموع جبل لبنان وعساكر عكا وفاجأ صانور وحاصرها، ولما طال الحصار وزاد على الثلاثة أشهر وقلت الإمدادات للقلعة المحاصرة، وتدخل بعض مشايخ جبل نابلس للصلح وتسليم القلعة، اضطر عبد الله الجرار لتسليمها بشروط، منها: المحافظة على سلامة القلعة، وأن يغادر آل جرار ومن معهم بعيالهم وجميع متاعهم إلى ثلاث قرى هي: جبع وطلوزة وعصيرة، ولكن عبد الله باشا خدعهم وخان العهد وأمر بهدم أسوار القلعة وأبراجها وبعض مبانيها، وأخذ الشيخ عبد الله الجرار أسيراً إلى عكا[1]، وقام الأمير بشير بإرسال بوابة القلعة الرئيسية إلى عكا رمزاً لهذا الانتصار وقفل راجعاً إلى عكا حاسباً أنه يقدم للباشا خدمة يشكر عليها، ولكن الباشا رأى أن في فتح الأمير بشير للقلعة وعجزه هو عن فتحها إضعافا من مقامه، فأرسل إليه بأن لا يدخل عكا وقال: قولوا لهذا النصراني أن لا يواجهني، فغضب الأمير بشير من هذه المعاملة وصمم على الانتقام من عبد الله باشا، وعاد إلى لبنان[2].

ولما تواترت الأخبار عن تجهيزات محمد علي باشا لفتح بلاد الشام قام الوالي بإطلاق سراح عبد الله الجرار، وعينه في حزيران من سنة 1831م متسلماً على نابلس.

ثانياً: الشيخ عبد الله.. وإبراهيم باشا المصري:

عندما زحف إبراهيم باشا المصري على فلسطين وحاصر عكا، وقف الشيخ عبد الله الجرار موقف الحياد إذ كان يرى في هذا الزحف خروجاً على طاعة الخليفة وتفرقّة لكلمة المسلمين. فاغتنم منافسوا الشيخ عبد الله هذا الموقف وصوروه على أنه معاد للفتح المصري وأخذوا يكيدون له،ولكن انهماك إبراهيم باشا في معارك بلاد الشام، صرفه عن هذه المشاكل الداخلية، سيما وأن معظم السكان قد أظهروا الطاعة والولاء.

وفي الوقت الذي زحف فيه الجيش المصري على البلاد سنة 1831م

([1]) مناع عادل: أعلام فلسطين، ص 73،وإحسان النمر: تاريخ جبل نابلس..ج1، ص 310-313.

([2])مخول، ناجي حبيب، عكا وقراها،ص 87-90.

اتصل الشيخ حسين عبد الهادي بإبراهيم باشا ووضع نفسه في خدمته، وعرف إبراهيم باشا هذا الموقف للشيخ حسين وعينه حاكماً لمدينة عكا بعد فتحها وأطلق يده في جميع الديار الفلسطينية، وعين إخوانه حكاماً لمعظم المدن الفلسطينية واستمروا في حكمها حتى جلاء القوات المصرية عن بلاد الشام عام 1839م.

وعهد إبراهيم باشا بمشيخة مشاريق الجرار للشيخ عبد الله الجرار[1] واستمر
فيها حتى عام 1834م..

وفي عام 1834م أخذت أمور البلاد الشامية تضطرب وذلك لما وضعه إبراهيم باشا من أنظمة وقوانين أثارت سخط الشعب، وأخذت بوادر الثورة تجتاح البلاد الشامية من أقصاها إلى أقصاها..

وكان التذمر من الحكم المصري عاماً في جميع جبل نابلس، ولذا فقد تنادى منادي الشيوخ وعقدوا مؤتمراً لبحث الموقف وقرروا الثورة على إبراهيم باشا في جميع أنحاء الجبل، وحشد الثوار رجالهم في دير الغصون بقيادة زعمائهم " قاسم الأحمد، عبد الله الجرار، عيسى البرقاوي، ناصر المنصور" واشتبكوا مع إبراهيم باشا في قتال عنيف كان فيه النصر لإبراهيم باشا[2] الذي تقدم إلى وادي الشعير والتقى في قلب الوادي بجموع جرار فكسرهم وهربوا وتحصنوا بقلعة صانور- وكان الشيخ عبد الله قد أعاد بناءها - فحاصرهم فيها بجيش يزيد جنده على عشرة آلاف مقاتل تساندهم فرق المدفعية الثقيلة التي أقامها على الهضاب والمتاريس المجاورة للقلعة. وامتد الحصار مدة تزيد على ثلاثة أشهر استبسل خلالها المدافعون، وكانوا كلما تهدم ركن من أركان السور يسارعون إلى ترميمه، ولكن كثرة القتلى ونفاذ المؤن والماء والعتاد جعل القلعة تستسلم بعد أن تهدم قسم كبير من السور والأبراج والبيوت..

([1]) الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين،ج3-ق2، ص125..عن المحفوظات الملكية المصرية 1/129.

([2])الراميني أكرم نابلس في القرن التاسع عشر، ص 81.

وكان قادة جبل نابلس قد هربوا بعد معارك زيتا ودير الغصون ووادي الشعير، إلى جبل الخليل، فتبعهم إبراهيم باشا إلى الخليل ثم إلى الكرك والبلقاء، وقبض عليهم وأرسل بعضهم إلى عكا والبعض الآخر إلى دمشق، وقيل أنه قتلهم جميعاً[1].

وبعد وفاة الشيخ عبد الله تفرق أبناؤه وأبناء إخوته وأبناء عمه في عدد من القرى المجاورة.. في جبع وميثلون والجديدة والفندوقومية وسيريس والزاوية وغيرها وبقي قسم منهم في صانور، وبدأ عهد جديد وأصبح في كل قرية عدد من الشيوخ بعد أن كانوا جميعاً يلتفون حول شيخ واحد.

وبدخول إبراهيم باشا جبل نابلس انتهى عهد الإقطاع النقي النبيل في جبل نابلس، الذي كانت فيه البلاد تنعم بالوحدة والاستقرار، وبدأ عهد الاضطراب والظلم والفساد وأصبحت الرئاسة فيه بيد غرباء استغلوا الأوضاع أسوأ استغلال، وأطلّت نعرات القيسية واليمنية برؤوسها من جديد، وحدثت فتن وحروب أهلية اشترك فيها جميع عشائر جبل نابلس، وكان لإبراهيم باشا المصري دور كبير في إثارة الفتن ونشر الفساد وتحريض أبناء البلاد على بعضهم البعض لتثبيت حكمه.

شيوخ القلعة في كتب التاريخ:

لقد وردت سيرة وأخبار شيوخ آل جرار في عدد من الكتب والمراجع التاريخية.. ومن هذه الكتب:

- كتاب الغرر الحسان.. للأمير حيدر الشهابي.
- تاريخ الشيخ ظاهر العمر لميخائيل الصباغ.
- تاريخ ولاية سليمان باشا العادل.. لإبراهيم العورا.
- إبراهيم باشا في سورية.. لسليمان أبي عز الدين.
- تاريخ حملة إبراهيم باشا على سورية.. للسيد عز الدين الحلبي.
- تاريخ فلسطين.. للأستاذ المؤرخ عمر صالح البرغوثي.
- بلادنا فلسطين ج2،ج3.. للأستاذ مصطفى الدباغ.

([1])مناع عادل: أعلام فلسطين، ص 73.

- تاريخ جبل نابلس والبلقاء.. للأستاذ إحسان النمر.
- العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي ج5.. للأستاذ محمد عزة دروزة.
- أعلام فلسطين في أواخر العهد العثماني.. للأستاذ عادل مناع.
- نابلس في القرن التاسع عشر.. للأستاذ أكرم الراميني.

وقد تتبع هذه السيرة ـ في عدد من المراجع التاريخية ـ الأستاذ المؤرخ محمد عزة دروزة في كتابه " العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي من القرن الثالث إلى الرابع عشر الهجري في سورية الوسطى " ـ الجزء الخامس، صحة 108 -129، فكتب تحت عنوان:

بنو جرار في منطقة جنين ونابلس[1]:

" هذه الأسرة كان لها بروز في مجال الحكم والزعامة الإقطاعية في منطقة نابلس مدة غير قصيرة، وفي كتاب " تاريخ جبل نابلس والبلقاء " شيء غير يسير من سيرتها، كما أن ذكرها ورد أكثر من مرة في " الغرر الحسان" و" تاريخ ولاية سليمان باشا" والي عكا، وفي كتاب " تاريخ الشيخ ظاهر العمر" تأليف ميخائيل الصباغ.

إن هذه الأسرة تنتمي إلى فرع قبيلة أزدية اسمه " الشقران"، وكانوا في القسطل ـ البلقاء ـ في القرن الحادي عشر الهجري إلى ما قبل، ثم انتقلوا مع شيخهم الشيخ محمد الزبن إلى مرج ابن عامر، وصار الشيخ زبن أميرا على اللجون في أواخر القرن الحادي عشر، وفي بلاد حارثة اصطدموا بحمولة المشاقية والنزالية ثم اتفق الشيخ محمد الجرار شيخهم مع محمد أغا النمر فقضوا على الحمولتين وكان ذلك حوالي سنة 1141هـ/1728م..

وفي سيرتهم دلالة على ما كانوا عليه من قوة بأس منذ الأصل برزوا بفضلها في مجال الزعامة والإمارة بعد حلولهم في مرج ابن عامر ثم استمروا متصفين بذلك في سيرتهم.. وهكذا يكون كيانهم وبروزهم على

([1]) دروزة، محمد عزة: العرب والعروبة..ج5، ص 108-112.

غير غرار كيان وبروز بني النمر وبني طوقان، أي أنهم كانوا ذوي عصبية قبلية خاصة كانت سندهم في ذلك الكيان والبروز.

ويبدو أنهم برزوا لأول مرة حينما صارت لزعيمهم إمارة اللجون في أواخر القرن الحادي عشر الهجري، ثم برزوا لثاني مرة حينما استولوا على أقطاعات النزالية والمشاقية في أواسط القرن الثاني عشر.

وفي عام 1754م قام الشيخ محمد الزبن ببناء قلعة صانور، وأتم بناء القلعة الشيخ يوسف الجرار سنة 118هـ/1774م.

أما المظهر الثالث لبروزهم فكان متسلمية الشيخ يوسف الجرار لجنين والتي كانت عام 1770م واستمرت حتى وفاته في أوائل عام 1808م.

وكان تاريخ متسلمية الشيخ يو سف الجرار لنابلس والتي تعد المظهر الرابع القوي لبروز الأسرة في مجال الحكم سنة 1774م، والتي استمرت حتى عام 1204هـ/1789م، أي أنه بقي متسلماً لنابلس طيلة خمس عشرة سنة متصلة، وهو رقم قياسي لم يصل إلى نصفه احد من بني النمر ولا من بني طوقان بدون انقطاع، وظل بعدها متسلماً لجنين التي كان متسلماً لها قبل متسلمية نابلس.

وإنّ اجتماع متسلمية نابلس وجنين في عهدته يدلان على ما كانت هذه الأسرة تشغله من حيز وما كانت عليه من قوة بأس.

وذكر المؤلف أخبار انحباس المطر والمجاعة التي حلت في فلسطين ونابلس سنة 1201هـ/1876م وما بذله يوسف أغا الجرار من جهود في سبيل تخفيف كرب الناس.

وفي سنة 1208هـ/1793م حاول الجزار ـ الذي شملت ولايته إيالة الشام وبالتبعية جبل نابلس والذي ثبّت بني طوقان في حكم نابلس وبني صعب أن يستبدله بشيخ حمولة الجرادات فأبى هذا، فبقي الحاج يوسف في متسلمية جنين إلى أن مات عنها سنة 1222 هـ أوائل 1808م، وهذا رقم قياسي أكبر حيث امتدت متسلمية الشيخ يوسف الجرار قرابة أربعين عاماً في جنين، وهذا وذاك يدلان على ما كان لهذه الأسرة من نفوذ وتمكن.

ولقد اتفق بنو الجرار وبنو النمر وبنو الجيوسي على العصيان ـ عصيان الجزار ـ بسبب عزل الحاج يوسف عن نابلس وتثبيت حكم بني طوقان في نابلس وبني صعب، غير أن هذه الحركة تجمدت بسبب الزحف الافرنسي الذي جعل الجزار يعتذر إلى الحاج يوسف بقصيدة تثير الجباـ كما يقول إحسان النمر في كتابه تاريخ جبل نابلس ـ وأن الأسر الثلاث اندمجت في حركة ضد الزحف وأن بني الجرار رابطوا على رأس جموع الشمال في مرج ابن عامر، وكان أحمد طوقان متسلم نابلس وعلي النمر منضمين إليهم".

ويتابع الأستاذ دروزة كلامه فيقول: وعين أحمد أغا اليوسف الجرار متسلماً لنابلس سنة 1219هـ/1804م وقد ورد نص مرسوم الوالي بذلك في كتاب إحسان النمر، وهو موجه إلى النائب والمفتي وقائمقام الأشراف ومفخر الأماجد والأعيان الحاج أحمد أغا الجرار المتوكل من طرفه بمتسلمية نابلس، وكان ذلك في

حياة أبيه متسلم جنين، وهكذا جمع لبني الجرار ثانية متسلمية نابلس وجنين، ثم عين الوالي سنة 1220هـ/1805م الحاج يوسف لمتسلمية نابلس بالإضافة إلى متسلمية جنين ومات عنهما سنة 1222هـ/1808م[1].

وقد قال مؤلف جبل نابلس عن الحاج يوسف بمناسبة وفاته أنه سجّل لأسرته وبنيه مجداً خالداً ومكانة عالية وأظهر عزة جبل نابلس ومكانته بأسمى مظاهرها، وعدد مواقفه في حركة الزحف الفرنسي، ومناهضته للجزار، والتمرد على الدولة ومخاصمة بني طوقان وإنجاد الجيايسة حينما زحف عليهم كتخذا والي الشام.. فعاش ومات أبيا وقوراً، وما تقدم من سيرة الحاج يوسف تجعله جديراً بهذا المدح.

ولقد روينا عن مؤلف جبل نابلس إن الجزار حينما زحف نابليون على فلسطين وعكا أرسل إلى الحاج يوسف يعتذر له بقصيدة تثير الجبان، ووصفها بأنها مفخرة من مفاخر جبل نابلس، وقد يبدو من هذا أنه كان الأقوى والأبرز بين مشايخ جبل نابلس حتى اختصه الجزار من دونهم بالاعتذار والاستنجاد.

وذكر المؤلف أن موسى طوقان هو الذي عين خلف للحاج يوسف في متسلمية نابلس، أما متسلمية جنين فقد ظلت في يد بني الجرار، ومما ذكره أن نفوراً وقع بين داود الجرار- أحد أولاد الشيخ يوسف - وموسى طوقان وأن هذا مس كرامة الأول وحاول اغتياله فأسرع بالعودة إلى الشمال وجمع جموعه وهجم عل نابلس.

وخرج موسى طوقان لدفعه ولكن داود هزمه ثم تبعه حتى دخل بجموعه بوابة نابلس، ثم رأى إن الموقف قد يتطور فعاد بجرود أهالي جنين دون أن يصطدم مع أهالي نابلس، حيث يدل هذا على استمرار بني الجرار على الاحتفاظ بقوة بأسهم وعزتهم بعد موت الشيخ يوسف الذي كانوا يقلبونه بسلطان البر.

وفي سنة 1226هـ/1811م كتب العلماء وشيوخ العشائر للوالي كتاباً اشتكوا فيه متسلم نابلس موسى طوقان، وذكروا اضطهاده للناس وأنه سبب الشر المباشر في نابلس، واقترحوا عزله وتعيين أحمد أغا الجرار

([1])دروزة، محمد عزة: العرب والعروبة..ج5، ص 113.

مكانه، فعزله الوالي وعين أحمد الجرار متسلماً، وهكذا عاد حكم نابلس إلى بني الجرار مما فيه الدلالة على قوتهم. غير أن موسى طوقان عاد إلى المتسلمية مرة أخرى[1].

ثم ذكر المؤلف خبر تعيين احمد أغا الجرار لمتسلمية نابلس مرة أخرى عام 1235هـ/1819م، وأورد نص مرسوم والي الشام الموجه إلى النائب والمفتي ونقيب الاشارف وإلى افتخار الاماجد الكرام الحاج احمد أغا الجرار متسلم نابلس وفيه أمر لهم بمطاردة موسى طوقان والقبض عليه، وهكذا عاد حكم نابلس ثانية إلى بني الجرار.

ولم تطل متسلمية الحاج احمد هذه المرة حيث توفي بعد قليل من تعيينه، وقد قال المؤلف فيه أن جبل نابلس فقد بموته أميرا خطيراً قوي النفس والعصبية شجاعاً عزيزاً، وفقد آل النمر أكبر نصير، وفقد آل جرار كبيراً لهم لم يرزقوا بمثله، وفقدت نابلس حاكماً وطنياً مهاباً.

وذكر مؤلف جبل نابلس خبر تعيين الحاج عبد الله الجرار- وهو الابن الثالث للحاج يوسف - متسلماً لنابلس سنة 1244هـ/1828م بدلاً من أسعد طوقان.

وقد أورد نص مرسوم والي الشام بذلك الموجه إلى أحمد أغا النمر قائد الألاي والذي يطلب منه فيه التعاون معه، وساق المؤلف أخبار الخلاف الذي وقع في سنة 1246هـ/1830م بين والي الشام ووالي عكا، ووقوف الشيخ عبد الله وشيوخ جبل نابلس بجانب والي الشام.. ثم قيام عبد الله باشا والي عكا بتجريد قوات الولاية وقوات لبنان وحصار قلعة صانور والذي أدى في النهاية إلى هدم القلعة.. ثم قام والي عكا بتعيين الشيخ عبد الله متسلماً لنابلس بعد عزل أسعد طوقان في أوائل عام 1247هـ/ 1831م، وأمده بالقوة لمطاردة أسعد طوقان والقبض عليه.. ولما توانى في القبض عليه وترك له المجال للإفلات، اغتاظ الوالي وعزل الشيخ عبد الله من المتسلمية وعين مكانه الشيخ محمد القاسم[2].

ثم استعرض الأستاذ دروزة الكلام الذي ورد في تاريخ الأمير حيدر

([1])دروزة، محمد عزة: العرب والعروبة..ج5، ص 114-115.

([2])دروزة، محمد عزة: العرب والعروبة..ج5، ص 116.

الشهابي فقال: " آل جرار عيلة وافرة أصلها من بلاد البلقاء، وهي تقطن في قرية صانور وقرى أخرى، وان جدهم حينما جاء لأول مرة سكن في عرابة ثم تفرقوا في القرى، وان جد الموجودين الآن هو الشيخ محمد الذي عمر الداثر من قرية صانور وجعلها قلعة وحصنها، وهو الذي حاصره عثمان باشا الكرجي والي الشام سنة 1764م
مع الأمير يوسف الشهابي وارتد زحفهما بدون نتيجة.
وأن الشيخ يوسف الجرار زاد عليها وبني بها سرايا وكتب على البوابة هذين البيتين:

كن رزيناً إذا أتتك الرزايا وصبوراً إذا أتتك مصيبة

فالليالي من الزمان حبالى مثقلات يلدن كل عجيبة

وأن أحمد الجزار حينما جمعت له ولاية الشام مع ولاية صيدا وعكا سار بذاته سنة 1209هـ/1794 وحاصر الشيخ يوسف الجرار في صانور ولم يقدر على تملك القلعة وصنع لهم لغماً وطلع البارود على عسكره فارتحل عنها.
وعندما أنعمت الدولة العثمانية بولاية القدس والخليل وجبل نابلس على عبد الله باشا والي عكا، وطلب الوالي من بيت الجرار تسليم قلعتهم فأبوا وأغلقوا الأبواب فأمر الوالي بمحاصرتها وطلب من الأمير بشير الشهابي نجدة بقيادة أحد أولاده فأرسل إليه ما طلب، ثم طلب منه الحضور بالذات فسارع إليه واقترح أن يتولى الأمر بنفسه فوافق الوالي منشرحاً، وسار الأمير وكتخذا الوالي ونصبوا المعسكر تجاه صانور وقصفت القلعة مراراً بدون تأثير كبير.. وتابع المؤلف ذكر تفاصيل الحصار، الذي انتهى بالاتفاق وخروج بني الجرار من القلعة بعيالهم وأموالهم إلى قرى ثلاث اختاروا السكنى فيها وهي جبع وطلوزة وعصيرة، وأن الأمير بشير قدم لهم ثمانمائة مشال ـ دابّة ـ لحمل عيالهم وأرزاقهم وأرسل ابنه الأمير خليل محافظاً عليهم إلى أن وصلوا القرى المختارة..
وألحق المؤلف بآخر السياق قائمة بعدد الذين كانوا في قلعة صانور

وقت تسليمها، والقرى التي ينتسبون إليها، وكان العدد 367منهم 42 من بني الجرار والباقون من قرى مختلفة من جبل نابلس وجبل القدس، وكان عددهم قبل الحصار أكثر من "1200" فمات منهم من مات وقتل من قتل وهرب من هرب أثناء الحصار حتى نزل عددهم إلى "367"، وكان من بين المدافعين عن القلعة الشيخ قاسم الأحمد ـ شيخ بلاد جماعين ـ على رأس مجموعة من جماعين[1].

ويتابع الأستاذ دروزة حديثه فيقول:

" هذا ومهما يكن في السيرة من ثغرات فالواضح منها أن بني الجرار كانوا من الأسر البارزة القوية في جبل نابلس، وكانت لهم عصبية قبلية فكانت سندهم في بروزهم في مجال الحكم والزعامة المحلية، وأنهم شغلوا حيزا كبيراً في أحداث هذا الجبل الإقطاعية منذ أواخر القرن الحادي عشر إلى أواخر القرن الثالث عشر الهجري، ولا يزال بنوها إلى اليوم يحتفظون بشيء من وجاهتهم وذكرياتهم الإقطاعية، وهم متوزعون في قرى عديدة في قضاء جنين، ولا تزال ناحية برأسها تتألف من عدد كبير من القرى تحمل اسمهم حيث تسمى " مشاريق الجرار" كأثر من آثار ذلك الحيز والبروز" [2].

شيوخ آل جرار بعد العهد المصري:

بعد وفاة الشيخ عبد الله انتشر آل جرار في عدد من القرى، وأصبح لكل قرية أو مجموعة قرى عدد من الشيوخ.. وسوف أتحدث عن أبرزهم وخاصة الذين ورد ذكرهم في بعض المراجع التاريخية..

ففي قرية جبع كان في مقدمتهم:

الشيخ اسعيد الداود[3]:

([1]) دروزة، محمد عزة: العرب والعروبة..ج5، ص 124-126..عن الشهابي: تاريخ الأمير حيدر ص 817.

([2]) دروزة، محمد عزة: العرب والعروبة..ج5، ص 129.

([3])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس..،ج1، ص 277-294.

بعد هدم قلعة صانور في أواخر عام 1930 على يد قوات عكا ولبنان، انتقل الشيخ اسعيد إلى قرية جبع المجاورة لصانور وانتقل معه أبناؤه وعدد من أبناء عمومته وأصبح شيخاً لآل جرار في جبع وشيخاً بارزاً من شيوخهم في المنطقة وقد ورد ذكره في عدة مناسبات في كتاب إحسان النمر(تاريخ جبل نابلس والبلقاء".

الشيخ إبراهيم بن الشيخ عبد الله { 1841-1856}[1].

تولى زعامة عشيرته في قرية جبع وما حولها وقد أخذت منها الأحداث وخاصة تشريد إبراهيم باشا المصري لشيوخها ولذا فقد اتسم عهده بالتداوي وإعادة البناء والتعمير وجمع الشمل، وقد ساعده على ذلك ما أسبغته الدولة العليه من تكريم وتقدير لمشايخ آل جرار وجبل نابلس، لموقفهم إلى جانب الخلافة في وجه الحملة المصرية، وقد أنعم السلطان عبد الحميد الاول {1839-1853م}بلقب الأغوية على شيوخ آل جرار، كما رفع عنهم الأموال المطلوبة للدولة لمدة خمس سنوات.

وفي زمنه بدأت علاقات طيبة بين آل جرار وآل طوقان.

الشيخ أحمد اليوسف الجرار[2]:

وهو حفيد أحمد أغا اليوسف الأول.. حاول في الخمسينات من القرن التاسع عشر إعادة آل جرار إلى زعامتهم وحمكهم في جبل نابلس، ولكنهم انقسموا على أنفسهم ودخلوا في صراعات جبل نابلس، ومما أضعف موقفهم أن العثمانيين استعادوا الحكم المركزي المباشر لسلطتهم على جبل نابلس.

ففي هذه الفترة التي تلت رحيل إبراهيم باشا المصري عن بلاد الشام، اشتد التنافس والتناحر بين الذين أيدوه ووقفوا معه وبين الذين عارضوه، وكان أشد هذا التنافس في جبل نابلس.. إذ كان لموقف الشيخ حسين عبد الهادي المؤيد لإبراهيم باشا أثر سيء في نفوس شيوخ جبل نابلس، وخاصة وأن إبراهيم باشا قتل جميع قادة جبل نابلس.. ومما زاد

([1]) جرار، عبد الهادي: تاريخ ما أهمله التاريخ، ص 96.

([2])مناع عادل: أعلام فلسطين، ص 72.

الأحوال سوءاً قيام إبراهيم باشا بتعيين محمود عبد الهادي ابن الشيخ حسين حاكماً لمدينة نابلس بدلاً من آل القاسم، ومحاولته مضايقة آل طوقان الذين كانوا يتمتعون بنفوذ كبير في المدينة..

وعمت الفتنة جبل نابلس بأكمله.. واشتد التنافس والتناحر بين آل طوقان أصحاب النفوذ في نابلس وآل عبد الهادي الذين بدأوا ينافسونهم ويضايقونهم، كما اشتد التنافس بين آل جرار وآل عبد الهادي، إذ اتهم شيوخ آل جرار الشيخ حسين عبد الهادي وأولاده بأنه حرضوا إبراهيم باشا على حصار قلعة صانور وهدمها والفتك بشيوخها، وبدأ التنافس بجمع الأنصار والأعوان وإنشاء الصفوف، وقد عم البلاء جميع قرى جبل نابلس وامتد خارجه، وانقسم الناس إلى فريقين متخاصمين، وكان أشد هذا التناحر بين سنة 1845-1872م، إذ حدثت بين الطرفين حروب وفتن ما لبثت أن انتهت أو هدأت وتم الصلح وإزالة أسباب العداوة.. وإن كان قد حدث بعدها بعض القلاقل والمناوشات فإنها لا تعدو أن تكون أموراً عادية تحدث عادة بين الناس ثم تنتهي[1].

وقد ورد ذكر الشيخ أحمد اليوسف في كتاب الدباغ بقوله: " وعرفنا من آل جرار أيضاً " الشيخ أحمد " الذي صادفه القنصل الانجليزي في أواسط القرن الماضي في جبع" [2].

وفي صانور كان شيوخ آل جرار:

الشيخ قاسم الداود[3]: { من أوائل الأربعينات حتى عام 1878}:

تولى مشيخة عشيرته بعد وفاة عمه الشيخ عبد الله الجرار.. وفي عهده قامت الدولة العثمانية بتكريم مشايخ آل جرار ومشايخ جبل نابلس عامة لموقفهم إلى جانب الخلافة في وجه الحملة المصرية، وقام السلطان عبد الحميد الأول برفع الأموال المطلوبة من مشايخ آل جرار لمدة خمس سنوات مساعدة من الدولة لترميم قلعة صانور، كما أطلقت الدولة يدهم في

([1]) جرار، عبد الهادي: تاريخ ما أهمله التاريخ، ص 96.

([2])الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين،ج3-ق2، ص125..عن تقرير القنصل الانجليزي، الجزء الثاني ص 155 Records From Jerusalem Chronicles.

([3])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس،ج1، ص349، 384، وج2، ص 369.

جميع المشاريق حتى عرفت البلاد التي تمتد من شمال نابلس إلى جنين، والتي تمتد شرقاً حتى نهر الأردن، عرفت " بمشاريق الجرار" [1].

وفي عهد السلطان عبد العزيز الأول {1853-1875م} قامت الدولة العثمانية بإصلاح شؤون البلاد إدارياً وقضائياً، فوضعت مجلة الأحكام الشرعية، كما وضعت قوانين التجارة والمرافعات، وأنشأت المجالس البلدية.. أما جهاز الإدارة فقد أدخلت عليه بعض التعديلات، وحولت جنين إلى مركز قائمقامية.. وعينت الشيخ قاسم أغا الداود مديرا لقائمقامية جنين وبيسان،واستمر فيها إلى أن توفاه الله عام 1878م، وقد ورد ذكر الشيخ قاسم في كتاب إحسان النمر " تاريخ جبل نابلس والبلقاء" في مجالات كثيرة.

وقد اشتهر في زمن قاسم الداود ابنه " نمر " الذي اتصف بصفات نادرة من الكرم والشجاعة، حتى لقب بـ" نمر المشاريق"، وعين عضواً بمجلس الإدارة في نابلس.

الشيخ يوسف الحاج أحمد:

وهو ابن محمد الحاج أحمد ابن إبراهيم ابن الشيخ محمد الزبن، وكان من مشايخ آل جرار البارزين في صانور، وله جهود كبيرة في إعادة بناء القلعة بعد هدمها وقد أقام مساكنه ومساكن إخوانه على جزء كبير من السور الغربي والجنوبي للقلعة، وما زالت بوابة القلعة التي تدخل على مساكنهم قائمة حتى اليوم.

الشيخ قدورة المفلح { 1863-1896م}:

وهو عبد القادر بن محمد بن مفلح بن إبراهيم بن محمد الزبن، وصفه الأستاذ عبد الهادي جرار في كتابه " تاريخ ما أهمله التاريخ " بقوله: " كان عبد القادر " قدورة " بن الشيخ مفلح أكبر إخوته سناً وأكثرهم جرأة وأشدهم فتكاً وأبسطهم يداً.. وقد عين الشيخ قدورة مديراً لقائمقامية جنين عام 1878م وبقي فيها خمس سنوات ثم تركها عام 1883م وعاد إلى

([1])الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين،ج2، ص 425، ج3، ص119

صانور يتفقد شؤونه ومصالحه الخاصة[1].

الشيخ إبراهيم المحمد الحاج أحمد الجرار:

ورد ذكر الشيخ إبراهيم في كتاب إحسان النمر " تاريخ جبل نابلس والبلقاء " أنه كان من شيوخ آل جرار[2].

وفي ميثلون كان الشيخ خليل الداود يقوم بنفس الدور الذي يقوم به مشايخ آل جرار في جبع وصانور.

وفي الجديدة برز البطل " أبو عوف " الذي قاد معركة دير الغصون وانتصر على خصومه، ولما عاد في الليل وحيداً، وقع في كمين قرب سيلة الظهر وقتل.

أما في برقين فقد برز الشيخ عوض الجرار في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر.. وهو عوض أغا بن محمد بن أحمد بن الشيخ غازي شيخ آل جرار في برقين، والشيخ غازي هو الذي اشترك في معركة مرج ابن عامر عام 1799م ضد الفرنسيين.

وقد عرف عوض أغا بالعمل المثمر المستمر والنشاط الزراعي مما أتاح له تكوين ثروة كبيرة مكنته من كسب مجد وكلمة بناهما بكرمه وحلمه وتفقده للمحتاجين[3].

وكان عوض أغا الجرار، ورضوان أغا الجرار، والحاج أسعد الطاهر السليمان ـ من شيوخ الجرادات ـ والحاج محمد المنصور، والشيخ سعيد مرعي، ومصطفى العبوشي، ومصطفى المفلح، وسليم أحمد عبد الهادي.. كانوا الأعضاء المنتخبين للمجلس الإداري في جنين حتى آخر العهد العثماني[4].

وقبل أن ننتقل من هذه الفترة الزمنية إلى فترة أخرى لا بد أن ننوه

([1]) جرار، عبد الهادي: تاريخ ما أهمله التاريخ، ص 98-100.

([2])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس،ج1، ص350وج2،ص369.

([3]) جرار، عبد الهادي: تاريخ ما أهمله التاريخ، ص 100.

([4]) النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس،ج3، 17.

بـأمـر هـام.. وهـو أن الدولـة العثمانـية أصـدرت خـلال هـذه الفترة " قـانـون الطابو"، وطلبت من شيوخ العشائر تسجيل جميع الأراضـي فـي البلدات التابعة لنفوذهم بأسمائهم.. فلم يستجب آل جرار لهذا الطلب، ولم يسجلوا أرضاً بـأسمائـهم فـي كثير من البلدان زيادة على غيرهـم ممن يسكنون معهم.. حتى أراضـي قرية صـانور- قاعدتهم الرئيسية- تركوها للمزارعين الذين سكنوا بجوارهم في القرية ولم يسجلوا لأنفسهم شيئاً منها.

شيوخ آل جرار في أواخر العهد العثماني:

يـعتبر الـنصف الـثانـي مـن الـقرن الـتاسـع عشـر آخـر أيـام الإقـطاع السياسـي والعسكري فـي بلاد الشام إذ أن الدولة العثمانية أخذت تولي الإصـلاحـات الإداريـة والاجـتماعية والثقافية اهـتمامـها. وقـامـت الـحكومـة العثمانية بـإنشاء الكليات والمدارس السلطانية فـي كثير مـن المدن، كما أنشـأت مـدرسـة خـاصـة فـي الأسـتانـة لتعليم أبناء شيوخ القبائل وزعماء الـعشائـر، وأخـذت تـشجع أبـناء هـؤلاء الـشيوخ لإرسـال أبـنائـهم إلـى هـذه المدرسة متكفلة بجميع نفقاتهم ومصاريفهم، فاستجاب فريق من العشائر والعائلات لنداء الدولة، وأنكر فريق آخر هذه البدعة ورفض أي نداء، وكان شيوخ آل جرار ممن رفضوا الدعوة، ولم يشعروا بفداحة ما ارتكبوا إلا في الثلاثينات من هذا القرن، فانطلقوا يرتادون مختلف المعاهد العلمية لاحقين بالركب الحضاري والمرتع الثقافي أسوة بغيرهم من أبناء البلاد.

وفـي هـذه الـفترة كـان لآل جـرار شـيوخ كـثيرون وكـان مـن أبـرزهـم: الـشيخ محـمد الـيوسـف والـشيخ الـحاج محـمود الـقاسـم، والـشيخ فـياض القدورة، والشيخ يوسـف الـحسن فـي صـانـور، والشيخ محـمد الداود فـي جبع، والشيخ يوسف الحاج إبراهيم في ميثلون.. والشيخ محمود يوسف الجرار في برقين، والشيخ توفيق الحاج أسعد في البارد " الهاشمية". .

وكان لهؤلاء الشيوخ دور كبير في المحافظة على الأمن في منطقتهم، كما كانت لهم مواقف كريمة في نجدة الضعيف وإغاثة الملهوف ونصرة المظلوم.. ولهذا فقد كانت دواوينهم مقصداً لكل محتاج أو مظلوم..

وكـان لـهم دور ومـشاركـة فـي إدارة مـنطقتهم.. ومـن ذلـك مـا ورد فـي الحولية السنوية لولاية بيروت عام 1908م بـأن محمود أغا القاسم كان

العضو المنتخب لمجلس إدارة القضاء عام 1908[1]، كما قام الشيخ فياض القدورة والشيخ محمد اليوسف بتمثيل منطقة جنين في المؤتمر السوري الأول الذي عقد في دمشق سنة 1920م..

وقد تطوع عدد من شبابهم في جيش الثورة العربية الكبرى، وكان على رأسهم الشيخ يوسف الحاج إبراهيم - شيخ آل جرار في ميثلون - ولكن بعد أن نكثت بريطانيا بعهودها ومواثيقها للشريف حسين، وأيقنوا عام 1918م من خيانة بريطانيا لقضيتهم، قرروا مقاومة النفوذ البريطاني في بلادهم[2].

ملاحق الفصل الرابع

ملحق رقم "1"

([1])الدباغ، مصطفى: الموجز في تاريخ الدول الإسلامية وعهودها في بلادنا فلسطين، ج 2، ص 148.

([2]) جرار، عبد الهادي: تاريخ ما أهمله التاريخ، ص 101-102.

وثيقة تاريخية

ما زال الغرب يطمع في الشرق للاستعمار والاستعباد والشرق يدفع الغرب بحفظ الاستقلال وقد حاول نابليون بونابرت أن يفتح سوريا ويتجه الى الهند ليؤسس امبراطورية فرنسية عظيمة فسار بجيشه حتى وقف على اسوار عكا الحصينة وقاومها بزعامة الوزير أحمد باشا الجزار وحماه عربا رجبا وأرسل هذا الشعر يستحث النجدة من مشايخ جبل نابلس الشيخ يوسف أغا الفرار فقال :

يقول الماجد الطلي فاض مناه
ياخاد يا بني على صيد حمته
رباعيه لاظاها سبل الهبا
تهدي هداك الله بني رسايلي
اقطع بها روح يا خار وقبل
نابلي على جنين مع رابق الضحى
طوالق يا الشريح للانس الوفي
نابلي بها سبع الفلا سيد الملا
قول له لا تحفظ الزلان يا سيد الشا
اجينا الفرنسا وي عندهك بالضحى
بحدودها جوا معا وبنوه كا بس
أردت منكم حملة عسارية
تطوعوا كرادوس الفرج في جوحكم

بدوح جري بني على الفلات
نجد والسبر للانس الدرات
قسبن هبوب الريح بالقلوات
مرفوم يا خط من العبرات
نابلي على بلاد قبها القنوات
نابلي بها حلالي وقصور مبنيات
قبل على ضانور قبها دبات
بسنين الفلا صبة علينا بات
مضى الذي مضى منا زمان وفات
سلاطين سبعة مع سبع كرات
وندحوا فداه بل الاسلام مطفيات
يوم الوغا لا تحبل من خوفات
وتخلوا عيون الضد مطفيات

فلما وصل هذا الشعر إلى الشيخ يوسف الجرار أرسل قصيدة من وزنها وقافيتها إلى مشايخ جبل نابلس وهذا نصها :

يقول أبو داود من فؤاده ملوح ... أحمس في قلبي لهيب النار لهبات

حلى مكاتيب أحسنا من بعيد ... من أفندينا الذين أبرشمات

فضيحتي اضمر جلي خاطري ... قريتهن تزلن دموعي ساكبات

سلة الكفار أجونا صابلين ... رادهم برعود الجوامع داويات

يا محبين السزاوي احماط البلا ... يا محبين أنتم رب الأمانات

أن طوفان اسجدوا لسيفكم ... واعتلوا بظهور حصانكم عاليات

أن الغرها الغور الكاسرات ... عدلوا صفوفكم هالبا سلاوات

محمد الفقان اجمع بي الرجال ... اجمع الأبطال من كل الجهات

أحمد القاسم بالبت جمسور ... أنت قدوم الصفوف الماشيات

هيا باعطوه تعليمي ونا ... واحترز عالحرب في حكما نيات

أحمد الجابر بالبت البطاح ... في نهار النفع يوم الهوزجات

أولاد صالح هالأسود الغاشمين ... بايعين أرواحهم هالغاليات

أنت باغازي فاخر الشركسين ... بين رجلين في جمال الحصانين

اجنوبي يا أسد يوم الكراد ... حنا بجاد الزمان صور المحوصنات

عبد الغاوي نوخي لا تعطي ونا ... أنت كشار الطوح المقبلات

وياخوا السبع عبوا اجمعين ... مثل عنبان الغلا الخاويات

سيروا على عكا وياخوا الكلم ... لازموا الحرب صبحا ومسا

احفظوا أوطانكم يا مسلمين ... كلنا اسلام على الدين الثبات

من قتل ناخذ ابوه ... ومن سلم منا حقي بالغرات

الأرحم الله الزبر المعتبر ... مثل عنتر في زمان الطاهلات

قال أبو داود من قلب صرير ... ما بجي في حاضر إلا الشتات

فلبى دعوته هؤلاء المشايخ وجمعوا رجالهم وسارعوا إلى عكا وحاربوا المستعمر وطردوهم شر طردة وشتتوا شملهم فأصل فلسطين بين الغازين وحرروا الجيش الفرنسي الذي سحق أمامه جميع الشعوب الأوروبية وأسروا رجاله وانتهبوا ذخائره وعاد منهزما إلى بلاده .

محمود العابدي : أوابد من التاريخ ، ص ٦٦ ـ ٦٧
عن المشرخ عمر صالح البرغوثي . وقد تسلمها العابدي منه في دار العلم بالقدس ، عام ١٩٦٤ م .

أريد منّك فزعة عامرية يوم الوغى ما تهاب من خوفات

فلما وصلت القصيدة إلى يوسف أغا الجرار، أرسل قصيدة من وزنها وقافيتها، تتألف من عشرين بيناً إلى جميع مشايخ جبال نابلس، يطلب منهم المبادرة فوراً إلى التصدي لمهاجمي عكا وطردهم عن أسوارها، وقد جاء في القصيدة قوله:

يقول أبو داود من فؤاد ملوّع أحسّ في قلبي لهيب اللاهبات

ملّة الفرنج أجونا صايلين مرادهم يدعو الجوامع دامرات

وبعد أن يخاطب آل طوقان وآل النمر ومحمد العثمان وآل العطعوط والجيوسي وآل صالح وعبد الهادي، يقول:

سيروا على عكا جميعاً كلّكم لازموا الحرب صبحاً ومسات

واحفظوا أوطانكم يا مسلمون كلنا إسلام على الدين الثبات

من قتل منا فهذا يومه ومن سلم منا حظي بالفاخرات

ولبى الجميع الدعوة، وقاتلوا جيش نابليون الذي دوّخ أوروبا، وهزموه وأجبروه على الفرار..

فإذا أخذنا بعين الاعتبار أن حصار عكا قد وقع 1799م أدركنا طبيعة الظروف التي كانت تسيطر على العرب في هذه المنطقة بشكل خاص، وأن أي عون لم يكن متاحاً للمدينة المحاصرة إلا هذا العون الذي جاء من أبناء البلاد وبه استطاعت أن تقهر جيش نابليون وتجبره على العودة إلى مصر.

ومن صياغة القصيدتين ولغتهما العامية، يمكن الاستنتاج، أنّ عصور الظلمة كانت قد نالت الكثير من ثقافة الأمة، لكنها لم تستطع أن تنال من أصالتها.. فظلت للشعر مكانته، حتى وإن تدنّى كفنّ، وظلت للعروبة طاقتها على بعث قيم العزة في نفوس أبنائها، كما أن الجوامع ظلت مصدر إيمان وثقة بالنفس وبالحق الذي يسقط الشهداء دفاعاً عنه.

ولعلّ مطلعي القصيدتين.. " يقول". . يحمل الدلالة على مدى انتشار الأدب الشعبي وتأثيره على الناس وأهم من هذا، أنّ إرادة القتال لدى الجزار باشا كما لدى الآخرين هي التي حسمت الموقف، وردت نابليون على أعقابه.. ترى هل تعود للشعر مكانته، فيؤلب الجموع العربية للتصدي بالإرادة ذاتها للغزاة الجدد ؟.

المصدر: جريدة صوت الشعب الأردنية 16/12/1984م.

ملحق رقم "3"

لمة

محبو

إحس

ملحو

سله

وعمد

ات

الكرا

يان

المتوكل الان

من طرفنا بمتسلمية نابلس الحاج أحمد أغا الجرار ومير ألاي حالاً حسن أغا

النمر زيد مجدهم وساير الوجوه والتجار والأهالي على وجه العموم تحيطون

علماً أنه بهذا الاثنى بحسب ما صدر من موسى بك طوقان من الأمور المنافية لرضى الله تعالى ورضانا وعدم استقامته على نهج الاستقامة برؤية
سائر الخدمات المبرورة العايدة بطريق الحاج الشريف وخاصة اضمحلال أحوال الرعية بمدة متسلميته من أوجه شتى لزم عزلناه من متسلمية نابلس مجرداً صهونا للرعايا وراحة الفقراء والمساكين ووكلنا بالمتسلمية المرقومة من
طرفنا قدوة الاماجد المكرمين الحاج أحمد أغا الجرار فتكونوا معه يداً واحدة
ورأياً واحداً في صيانة الفقراء والرعية ودفع أسباب التعدي من كل وجه وتبادروا برويه سائر الخدمات المبرورة العايدة للطايف الحجازي المبارك وتحصيل الأموال المرتبة واستيرادها حسب العادة والدأب القديم ونعرف وكيل المتسلمية المذكورة أنه لعلمنا برشدك وسدادك وحسن امتزاجك وكلناك بالمتسلمية المذكورة وكافة أمور البلد لحين حلول ركابنا بمحروسة وتنصب متسلماً مستقلاً من طرفنا

من سجلات المحكمة الشرعية بنابلس.

فالمراد تحسن سلوكك وامتزاجك مع الجميع وتصرف مزيد سعيك واهتمامك بما فيه رضى الله تعالى ورضانا بحفظ وصيانه الرعايا وديعة الله تعالى باري البرايا وان شاء الله تعالى جميعكم تشاهدوا من لدنا مزيد الالتفاف التام بكافة ما فيه رفاه حالكم فبناء على ذلك أصدرنا لكم بيورلدينا هذا من ديوان الشام وصيدا وطرابلس وسر عسكر الحجاز عن

يد رافعه إن شاء الله تعالى بوصوله ووقوفكم على فحواه تعملوا بموجبه وتتحاشوا مخالفته وتعتمدوه غاية الاعتماد والسلام في 5ش 1219
(وعليه ختم الولاية المعتاد)

إحسان النمر تاريخ جبل نابلس والبلقاء،ج1، ص 241 -243.

ملحق رقم " 5"

مرسوم الوالي لأحمد أغا بتعيين الشيخ عبد الله الجرار

قدوة الأماثل والأقران مير ألاي حالاً أحمد أغا النمر زيد قدره.

بعد السلام التام بمزيد العز والإكرام نبدي إليكم أنه بتاريخه وجهنا متسلمية نابلس على افتخار المشايخ أخينا الشيخ عبد الله الجرار المكرم ووجهنا له شرطنا منها وحررنا لكم أحرف المودة فالمراد بوصوله إليكم تكونوا والشيخ عبد الله الجرار الموصى إليه يداً واحدة وحالاً واحداً بالاتفاق والاتحاد وإنجاز الخدمات العايدة لدى سعادة أفندينا ولي النعم

الدستور الوقور(1) المعظم طال بقاه بكافة الخدامات المرضية، حيث تكونوا أنتم والمتسلم المومى إليه يداً واحدة وجسماً واحدا وإن شاء الله تعالى حين حلول ركاب أفندينا المعظم بهذه الديار تنالون كل ما يسر خاطركم ويقر نواظركم يكون معلومكم.

الحاج عثمان

في 23 رجب سنة 1244.

مير ميران قائمقام
والي الشام

إحسان النمر تاريخ جبل نابلس والبلقاء،ج1، ص 308.

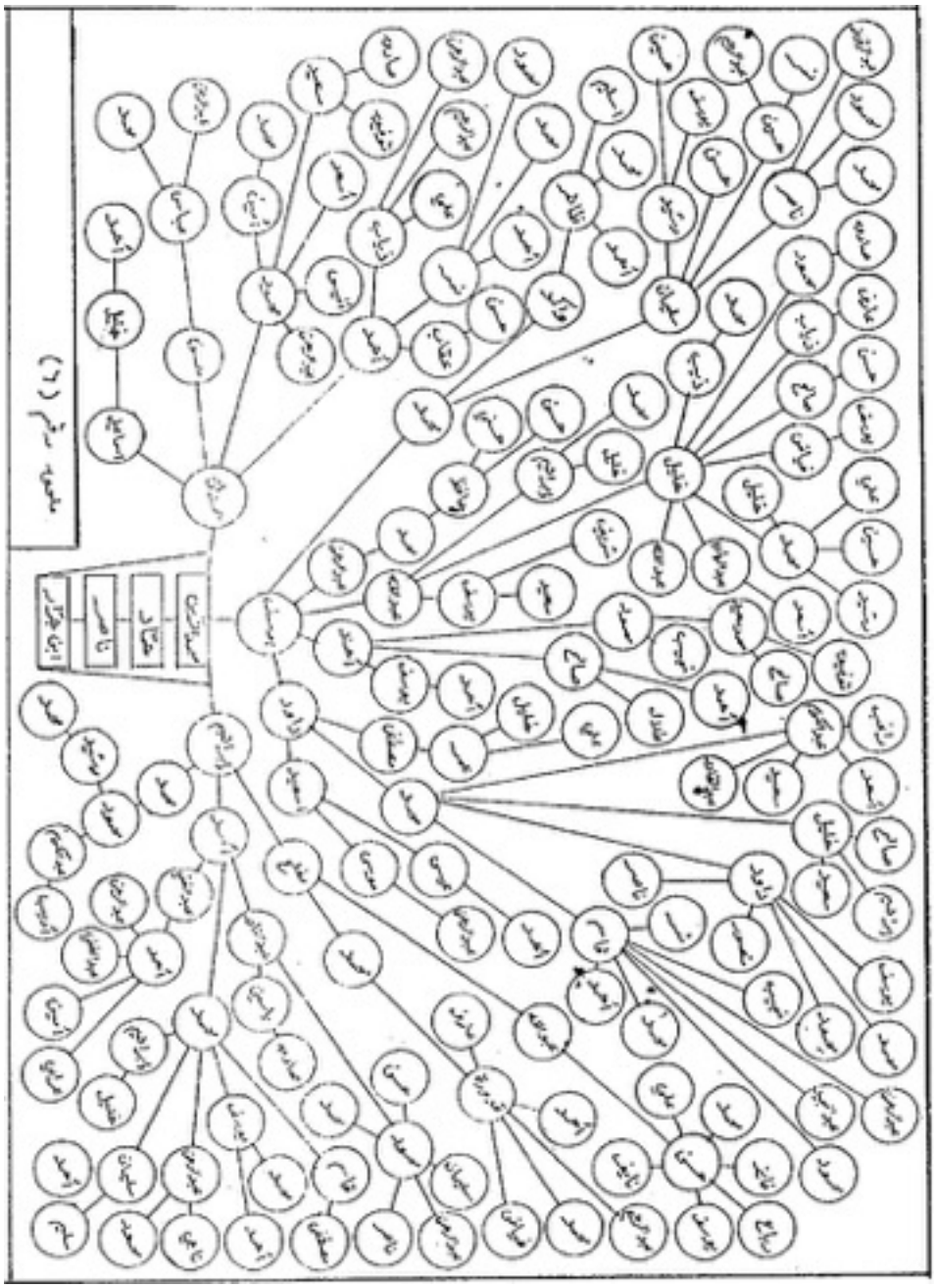

الفصل الخامس

دور جبل نابلس في مواجهة الحملة الفرنسية

- طلب النجدة من جبل نابلس:
  - رسالة الجزار ـ والي عكا ـ إلى الشيخ يوسف الجرار
  - مراسيم الدولة إلى الولاة والمتسلمين

• رسالة حامية يافا إلى مشايخ جبل نابلس

- استعداد جبل نابلس:

• رسالة شيخ الجبل إلى مشايخ جبل نابلس
• رسائل شيخ الجبل إلى مشايخ البلدان المجاورة
• وضع خطة للقتال

- حشد أبناء الجبل لقتال العدو

-معارك جبل النار:

* معركة عزون.. وتسمية " جبل النار"
* معركة قاقون
*معركة مرج بن عامر

- هزيمة نابليون ورحليه عن فلسطين:

* الأسباب المباشرة للهزيمة
* خطيئات نابليون في فلسطين
* رحيل نابليون عن فلسطين

دور جبل نابلس في مواجهة الحملة الفرنسية

طلب النجدة من جبل نابلس:

عندما اتجه نابليون بحملته من مصر إلى فلسطين، وصل إلى جبل نابلس مجموعة رسائل ومراسيم تطلب النجدة وتدعوا مشايخ الجبل إلى الاستعداد لحرب نابليون.. ومن أهم هذه الرسائل:

رسالة أحمد باشا الجزار إلى الشيخ يوسف الجرار:

عندما حاصر نابليون مدينة يافا لاحتلالها والتوجه منها إلى الشمال لحصار قلعة عكا.. أرسل الجزار قصيدة إلى الشيخ يوسف الجرار شيخ

مشايخ جبل نابلس يطلب النجدة والوقوف في وجه الخطر الكبير الذي يهدد البلاد والعباد..

ولما وصلت قصيدة الجزار إلى الشيخ يوسف الجرار كتب قصيدة مماثلة وجهها إلى أمراء ومشايخ جبل نابلس يستنهض الهمم للجهاد..

وقد وردت القصيدتان في عدد من الكتب والمصادر التاريخية والصحف.. كما أن الكثيرين من كبار السن في جبل نابلس يحفظون القصيدتين، فهما بالنسبة إليهم تمثلان تاريخاً وجهاداً عاشه آباؤهم وأجدادهم..

قصيدة الجزار[1]

يقول الماجد اللي فاض ما به بدمع جرى مني على المقلات

يا غادياً مني على صيد حية() تجد السرى() لا تأمن السروات

رباعية لا ظامها ميل العبا تسبق هبوب الريح بالفلوات

تهدي، هداك الله خذ لي رسالتي مرقومة بالخط من العبرات

إقطع بها مرج ابن عامر وقبّل تلفي على بلاد فيها نخوات

([1])وردت القصيدة في عدد من المصادر منها:

- النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس والبلقاء،ج1، ص209-211، و2، ص 27-29.
- العابدي، محمود، أوابد من التاريخ، ص 66-67.
- البرغوثي، عمر صالح: تاريخ فلسطين.
- جرار وليد: شاعران من جبل النار، ص 20-21.
- عودة الله محادين: جريدة شيحان الأردنية، العدد 13سنة 1984م.
- عبد الرحيم عمر: جريدة صوت الشعب في 16/12/1984م.

تــلفي عــلى جــنين مــع رايــق الضحى — تلقى بها علالي وقصور مبنيات

طُق لها بالسّرع لا تأمن الونى — قبّل على صانور فيها وبات

تلقى بها سبع الفلاسيّد الملا — بسنين() الغلاصيته علينا فات

قل له لا تحفظ الزّلاّت() يا كاسب الثّنا — مـضى الـذي مـضى مـنّا زمـانُـه وفات

أجتنا الفرنساوي تدهك الحصى — سلاطين سبعة مع سبع كرات

يهدّوا جوامعنا ويبنوا كنايس — ويدعوا قناديل الإسلام مطفيات

أريد منك حملة عامرية — يوم الوغى ما تهاب من خوفات

تـقطّعوا كـراديـس الـفرنـج فـي جموعكم — وتخلّوا عيون الضد مطفيات

ثانياً: مراسيم الدولة إلى الولاة والمتسلمين وأهالي الشام:

أصدرت الدولة العثمانية مراسيم إلى الولاة والمتسلمين وأمراء الألاي وجميع أهالي الشام تحث على الجهاد.. ووصلت فرمانات السلطان سليم الثالث في أواسط شهر ربيع الآخرة سنة 1214هـ إلى الشيخ يوسف الجرار " متسلم جنين" [1]، وإلى أحمد بيك طوقان " متسلم نابلس " وإلى حسن يوسف أغا النمر " بك ألاي نابلس". . ووزعت الدولة منشوراً إلى

([1])مناع، عادل: أعلام فلسطين، ص 74.

أهالي الشام، عددت فيه مساوئ الفرنسيين ومساوئ ثورتهم وبينت مواقفهم من الأديان، وحثت السكان على الجهاد وقالت: " فالآن يا حماة الإسلام ويا كماة المسلمين ويا أبطال الحرب والضرب يا مسلمون.. يا مؤمنون.. يا مقرون بالوحدانية.. كونوا على قلب رجل واحد وارفعوا من بينكم الشقاق وبدلوه بالحب في الله[1].

وعينت الدولة رجب باشا والي سيواس قائداً ليافا فكتب لأمراء " الألايات" يطلب الانضمام إليه.. كما وصل مرسوم من الدولة إلى حسن أغا النمر " بك ألاي نابلس سنة 1214هـ/1799م طلبت منه أن ينضم بجموع السباهية ويستنفر الجرود والمتطوعين ويسير بهم وينضوي تحت لواء قائد العسكر رجب باشا[2].

ثالثاً: رسالة حامية يافا إلى مشايخ جبل نابلس:

وصلت رسالة من حامية يافا إلى مشايخ جبل نابلس تطلب النجدة.. فخرج الشيخ يوسف الواكد الجيوسي والشيخ محمود أبو عودة الجيوسي والشيخ خليل البرقاوي والشيخ غازي البرقاوي بجموع بني صعب وهاجموا الافرنسيين في يافا.. فردتهم ميمنة الجيش الافرنسي، فانسحبوا ورابطوا في وادي عزون[3].

استعداد جبل نابلس:

عندما وصلت رسائل الجزار وحامية يافا ومراسيم الدولة قام الشيخ يوسف الجرار بتوجيه رسالة إلى مشايخ جبل نابلس، ورسائل أخرى إلى مشايخ البلدان المجاورة، طلب فيها الاستعداد لقتال العدو.

رسالة شيخ الجبل إلى مشايخ جبل نابلس:

([1]) عزلتوا اسكندر بك " بكاريوس" : المناقب الإبراهيمية والمآثر الخديوية، ص 9.

([2])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس،ج1، ص216-217.

([3]) النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس،ج1، ص217.

لما وصلت قصيدة الجزار إلى الشيخ يوسف أعد قصيدة من وزنها وقافيتها ووجهها إلى مشايخ جبل نابلس وبعث أبناءه يحمل كل واحد منهم نسخة إلى مشايخ الجبل وأمرائه.. وهذا نصها[1]:

يقول أبو داود من فؤاد ملوّع — أحسُّ في قلبي لهيب اللاهبات

علي مكاتيب أجتنا من بعيد — من أفندينا لفين امبرشمات

فضيتهن إنسرّ عليّ خاطري — قريتهن نزلت دموعي ساكبات

ملّة الكفار أجونا صايلين — مرادهم يدعوا الجوامع دامرات

يا جميل السّتر إذا حاط البلا — يا مهيمن أنت رب الكائنات

آل طوقان اسحبوا لسيوفكم — واعتلوا بظهورهن هالغاليات

آل النمر هالنمور الكاسرات — عدلوا صفوفكم هالباسلات

محمد العثمان0 إجمع لي الرجال — إجمع الأبطال من كل الجهات

أحمد القاسم0 يا ليث جسور — أنت قيدوم الصفوف الماشيات

([1])وردت هذه القصيدة في نفس المصادر التي وردت فيها قصيدة الجزار.

الجيوسي0 أسد في يوم الطراد حامي الزينات سور المحصنات

هيّا يا عطعوط0 لا تعطي ونا واعتزم عالحرب في عكا نبات

احمد الجابر0 يا ليث البطاح في نهار النقع يوم الموزمات

أولاد صالح0 هالاسود الغانمين بايعين أرواحهم هالغاليات

أنت يا غازي0 فغازي المشركين بيع روحك في مجال الصّافنات

عبد الهادي0نوض لا تعطي ونا أنت كسّار الجموع المقبلات

ويا نوابلسة هبّوا أجمعين مثل عقبان الفلا الخاويات

سيروا على عكا جميعاً كلكم ولازموا الحرب صبحاً ومسات

احفظوا أوطانكم يا مسلمون كلنا إسلام على الدين الثبات

من قتل منّا فهذا يومه ومن سلم منا حظي بالفاخرات

والطموهم لطمة الزير العنيد مثل عنتر في زمان الجاهلات

قال أبو داود من قلب شجيع ما بقي لي عالحرب إلا الثبات

رسائل شيخ الجبل إلى مشايخ البلدان المجاورة:

كان الشيخ يوسف يعرف أن قتال الفرنسيين يحتاج إلى استنفار جميع القبائل للوقوف في وجههم، فبعث برسائل إلى شيوخ القبائل المجاورة لجبل نابلس يستنهض هممهم للقتال والجهاد.. ووصلت رسائله إلى مشايخ البلقاء وعجلون وإربد والكرك وجبل القدس والخليل فلبوا جميعاً، وأرسلت كل قبيلة مجموعة من فرسانها للمرابطة في مرج ابن عامر، وكان أول الملبين آل ماضي وعشيرة الشريدة وعرب الصقر وبني صخر.

أما آل ماضي فعندما بدأ زحف نابليون إلى عكا، انسحب الشيخ مسعود الماضي بجموعه من ناحية حيفا إلى جبل نابلس، ونزل في موقع قرب قلعة صانور بجوار سيلة الظهر، وزحف مع جموع جبل نابلس إلى مرج ابن عامر.. وما زال الموقع الذي نزل فيه بجوار سيلة الظهر يسمى إلى الآن بـ" المسعودية" [1].

أما عشيرة الشّريدة فقد حضر فرسانها معركة " المرج" واستشهد منهم اثنان ودفنا بعد المعركة في مغارة بجوار قلعة صانور، وكانت تعرف باسم " مغارة الشريدة"[2].

كما أن جموع القبائل الأخرى وصلت إلى مرج ابن عامر واشتركت في المعركة.

وضع خطة للقتال:

قام الشيخ يوسف باستشارة قادة الجبل ومشايخه في أسلوب القتال، حيث التقوا جميعاً في قلعة صانور.. وبعد استعراض تام لأسلحتهم وقدرتهم الحربية، ومقارنتها بأسلحة العدو الفرنساوي وقدرته قرروا وضع خطة تناسب الظرف والحال الذي يعيشونه، وتتمشى مع أقصى قدرة لهم على القتال.. لقد كان سلاحهم قديماً، فكان كل واحد منهم يحمل قرعة فيها بارود، ويلف على وسطه حبلين من الرصاص، ويحمل كيساً من الخرق البالية، فيعبئ البندقية بالبارود والرصاص

([1])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس،ج2، ص486.

([2]) عرفت هذه المعلومات من الشيخ عبد الله باشا الشريدة في مقابلة أجريتها معه في دير أبي سعيد في الشهر الثامن من عام 1984م.

والخرق ويقدح الزناد لتشتعل ويطلقها بعد كل هذه الصعوبة، ثم يهجمون بالسلاح الأبيض ـ من سيوف ورماح ونبال ـ فيصابون بخسارة كبيرة لا سيما إذا كان العدو مستحكماً ولديه المدافع والأسلحة الحديثة[1].

وبعد التوكل على الله وبذل أقصى ما استطاعوا من جهد وإعداد، وضعوا خطة لقتال العدو في أثناء تقدمه من يافا إلى عكا ومروره بجبل نابلس..

وتقوم الخطة على ثلاثة أمور:

الأول: التعرف على أخبار العدو وتحركاته حتى لا يأخذهم على غرة.. فأرسلوا العيون لاستطلاع أخبار الجيش الفرنسي منذ توجه من يافا إلى جبل نابلس وعكا. فقاموا برصد تحركاته وقدراته العسكرية.

الثاني: الاعتماد في القتال على:

1- أسلوب الكر والفر.. وهو أن يهجم المقاتلون بكل قوتهم على العدو فيضربون ويطعنون، وأن أحسوا بالضعف نكصوا ثم أعادوا تنظيمهم وكروا ، وهكذا يكرون ويفرون حتى يكتب لهم النصر أو الفشل.
2- الكمائن في شعاب الأودية والتلال، والانقضاض على جنود العدو.
3- الانسحاب أمام العدو إلى مداخل الأودية ثم الالتفاف عليه.
4- مفاجأة جيش العدو وهو متعب والإحاطة بالمنطقة التي يعسكر فيها، وحرق الأحراش المحيطة به..

ولتنفيذ هذه الخطة طلبوا من عريف كل مجموعة من المقاتلين الذين توجهوا إلى منطقة الأحراش في جبل نابلس، وأن يحضر معه مخلاة ويضع فيها قطعة وقارورة زيت وصرة من خرق القماش[2].

الثالث: الاعتماد على أبناء المنطقة في قتال الأعداء.. وحشد أبناء العشيرة الواحدة في فرقة أو مجموعة وجعل أميرهم شيخاً من

([1])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس،ج225.

([2])روى هذه الخطة عدد من كبار السن عن آبائهم وأجدادهم الذي حضروا معركة " عزون"، ومن هؤلاء الرواة: المرحوم علي محمد جرار من قرية جبع، وكامل مصطفى جرار من صانور.

شيوخهم، وهذا ما يزيدهم حماساً وثباتاً في القتال.. وهذا الأسلوب في القتال خطة قديمة استعملها المسلمون في كثير من المعارك، واستعملها خالد بن الوليد في معاركه مع الأعداء خاصة في معركة اليرموك.

حشد أبناء الجبل لقتال العدو:

بعد استنفار جميع القادرين على القتال من أبناء جبل نابلس عقد اجتماع لقادة المقاتلين في قلعة صانور وتم فيه تقسيم الجموع إلى جيشين:

الاول: يقوده الشيخ يوسف الجرار ومعه أحمد بك طوقان، وتسير معه معظم الجموع.. ويتجه هذا الجيش إلى جنين ثم إلى مرج ابن عامر ليقاوم الفرنسيين الذين توجهوا إلى تلك المنطقة، ثم يتابع سيره إلى عكا لإنقاذها من الحصار الذي
فرضه عليها نابليون، وقد بلغ عدد هذا الجيش من سبعة إلى ثمانية آلاف مقاتل[1].

والثاني: يقوده أحمد القاسم وأحمد الجابر ومحمد العثمان وحسن أغا النمر، ويتجه إلى المنطقة الغربية والجنوبية من جبل نابلس، والتي بدأت تتجه نحوها طلائع جيش نابليون بقيادة " دوماس".

وقام الشيخ يوسف الجرار بإرسال نجدة سريعة إلى عكا لمساعدة حاميتها في الدفاع عن المدينة، وأرسل مجموعة أخرى رابطت في اللجون لاستطلاع تحركات العدو كما تم إرسال نجدة سريعة أخرى إلى يافا بقيادة الشيخ يوسف الواكد الجيوسي والشيخ محمود أبو عودة الجيوسي والشيخ خليل البرقاوي والشيخ غازي البرقاوي ومعهم جموع بني صعب، وهاجموا الافرنسيين في يافا فردتهم ميمنة الجيش الفرنسي، فانسحبوا إلى وادي عزون[2]، فتعقبتهم القوات الفرنسية، فسارع الشيخ أحمد

([1]) دروزة، محمد عزة: العرب والعروبة..ج5، ص 59، والراميني: نابلس في القرن التاسع عشر،
ص 67.

([2]) النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس،ج1، ص217.

القاسم وحسن أغا النمر وإخوانهم إلى نجدتهم، وهناك وقع اشتباك بين الطرفين قتل العرب فيه بعض ضباط الافرنسيين وجنودهم، وقتل من العرب جماعة بالمقابلة، واضطر الفرنسيون إلى الانكفاء عن الوادي[1].

معارك جبل النّار

بعد احتلال نابليون لمدينة يافا، كلف أحد أتباعه بالسير إلى جبل نابلس وزوده بمناشير بليغة إلى شيوخه، خيرهم فيها بين الحرب والسلام، وإذا ما اختاروا السلام فعليهم أن يطردوا رجال الجزار، ولكن النابلسيين لم يستجيبوا لمحاولة نابليون[2]، والتي قصد منها خداع أهل الشام كما خدع أهل مصر من قبل..

معركة عزون.. وتسمية " جبل النار" :

عندما وصلت نجدة جبل نابلس إلى يافا بقيادة الجيوسي والبرقاوي، قامت بمهاجمة الافرنسيين، فردتهم ميمنة الجيش الفرنسي فانسحبوا إلى وادي عزون، فتبعتهم فرقة من القوات الفرنسية.. وكانت جموع جبل نابلس قد انتشرت في منطقة عزّون وزيتا وقاقون، فانقسم الفرنسيون إلى قسمين:

قسم انسحب إلى السهل توارى في أحراش وادي الرشا بجوار عزون[3]، وكان مرهقاً من شدة المتابعة والمسير، ووضع الفرنسيون ذخائرهم بين الأحراش وجلسوا بجوارها للراحة والنوم.. وكانت إحدى الفرق النابلسية قد أحاطت بوادي عزون من جميع جهاته، وكانت هذه الفرقة مقسمة إلى مجموعات كل مجموعة منها تتكون من ثمانية أفراد، ولهم عريف قد اصطحب معه مخلاة وضع فيها قطّة وصرة من القماش وقارورة زيت، وفي وقت واحد أخرج كل عريف من مخلاته صرة القماش

([1])دروزة، محمد عزة: العرب والعروبة..ج5، ص 59.

([2])الراميني، أكرم: ص 67.. عن بيير كربيتس: إبراهيم باشا، ص 204.

([3])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس،ج1، ص217،وتقع عزون إلى الشرق من قلقيلية وعلى مسيرة 24 كم من طولكرم.. أما وادي الرشا فيسمى أيضا بوادي " دحلة " حيث دحلت رؤوس الفرنسيين فيه.

وأفرغ الزيت عليها وربطها برجل القطة، ووجهها إلى الحرش وأشعل النيران فيها.

فانطلقت القطط تدخل خيام الجيش الفرنسي وتتسلق الأشجار، وبنفس الوقت أطلقوا النار على الذخائر والعتاد، فالتهب البارود واحترقت الأحراش واحترق من فيها من الفرنسيين، ومن حاول الهرب من النار لقي مصرعه برصاص المجاهدين.. وبعد هذه المعركة أُطلق على جبل نابلس تسمية "جبل النار" [1].

مصرع القائد دوماس:

بعد حرق الفرنسيين قام المقاتلون النابلسيون ومقاتلون من أعوان الجزار بمهاجمة مؤخرة الجيش الفرنسي وكبدوه خسائر بين قواته مما حدى بالجنرال " كليبر" إلى إرسال القائد دوماس لمطاردتهم وإخضاع جبل نابلس[2]، ولكن حملته لم تصادف نجاحاً.. وكان المجاهدون يحتلون الأماكن المنيعة وهم مختبئون وراء شجر العليق والصخور يقتلون رجاله وخيوله دون أن يستطيع القصاص منهم، غير أنه استولى مع ذلك على قرية ولكنه لم يقدر أن يبيت فيها ليلة واحدة، ورأى نفسه في الغد مضطراً لأن يخليها ويعود إلى حيث أتى[3].

هجم الفرنسيون بعد ذلك لمساعدة إخوانهم فاشتبكوا بالعرب.. وقد تضايق العرب من فارس فرنسي أظهر بطولة فائقة، فلجأ فرسانهم إلى مكيدة، فأركب اثنان كل منهما رديفاً، ولما تبعهم البطل الفرنسي رمى الرديفان بأنفسهما على الأرض، فصار الافرنسي بينهما وبين الفارسين فأطلقوا عليه النار من الأمام والخلف وقتلوه وبعد قتله ارتبك الفرنسيون، وبعد غروب ذلك اليوم وقف القتال..

وشاهد العرب في الليل حركة القائد دوماس أمام النار من نحاسة الخوذة التي على رأسه، وكان بينهم رجل مدرب على الرماية اسمه(عابد

([1])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس..،ج1، ص218،وج2، ص83.

([2])الكردي، فايز: عكا بين الماضي والحاضر، ص 95.

([3])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس،ج1، ص218..عن الكاتب الفرنسي " ادوارد لوكروا " في كتابه " الجزار قاهر نابليون".

المريحة الشبيطي" فصوب بندقيته على رأس القائد وقتله، فانسحب الفرنسيون مخذولين بعد أن أحرق النابلسيون جيشهم في عزون وقتلوا بطلهم وقائدهم.. وكان الجنرال كليبر بانتظارهم فراعه ما أصابهم[1].

وقد اعترف الكاتب الفرنسي المعروف " ادوارد لوكروا" في كتابه " الجزار قاهر نابليون " بفشل الفرنسيين في هذه المعركة وبإغاظة النابلسيين لنابليون.. فقد جاء في الكتاب اعترافات صريحة عن قلق القائد كليبر من تجمعات جبل نابلس حيث يقول: " وفي هذا الوقت بدأ كليبر يقلق على ما يجري في جبل نابلس وعلى شبه الجيوش التي تتألف هناك، وكلف دوماس أن يسير من هذه الجهة" ثم ذكر عن نتيجة فرقة دوماس فقال: " وكان كليبر في هذه الأثناء قد أرسل دوماس ليخضع نابلس والجبل بمناشيره لكن الحملة لم تصادف نجاحاً إذ لم تجد شخصاً يقوم بإيصال تلك الأوراق فضلاً عما تعرضت له من رصاص البنادق، وكان العربان يحتلون الأماكن المنيعة وهم مختبئون وراء العليق والصخور يقتلون رجاله وخيوله دون أن يستطيع القصاص منهم " ويقول في موضع آخر " أن دوماس نفسه قد قتل وعاد باقي رجاله يجرون أذيال الخيبة" [2].

ويقول المؤرخ إحسان النمر عن حرق الفرنسيين في عزون:

" وأما حرق الفرنسيين في وادي عزون فقد أيدها المؤرخ الافرنسي " ادوارد

([1])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس،ج1، ص219- 220..ومصطفى الدباغ: بلادنا فلسطين
ج3 – ق2، ص 389.

([2])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس،ج1، ص218..عن كتاب " الجزار قاهر نابليون" للكاتب " ادوارد لوكروا ".

لوكروا" في كتابه " الجزار قاهر نابليون " وأبرز عنها زينكو غراف للمرسوم الرسمي.. وكذلك أثبتتها روايات شيوخ بلاطة ومنهم الحاج أسمر السعيد النصار وعبد الجليل الحماد وحسن الجيعان، ومن شيوخ عزون الشيخ محمود سويدان"، ورواها المرحوم علي محمد جرار من جبع وكامل مصطفى جرار من صانور[1].

وقد نظم فيها الشاعر إبراهيم طوقان قصيدة قال فيها[2].

سائل بها " عزون" كيف تخضبت بدم الفرنجة عند جوف الوادي

دعت الرجال ولم تكد حتى مشت همم إلى الهيجاء كالأطواد

ثم التقوا تحت السيوف وبينهم كأس الحتوف تقول هل من صاد

كسروا من النسر الكبير جناحه ذي التاج والأعلام والأجناد

تركوه يجمع في الشعاب فلوله ويصب لعنته على القواد

رجع الأباة الظافرون وليس من متبجح فيهم يصيح: بلادي

معركة قاقون:

سار نابليون بعساكره من يافا قاصداً عكا عن طريق الجبال، ولما وصلوا أرض قاقون في 15 آذار من عام 1799 م، كان المقاتلون النابلسيون يكمنون في الوادي، وكان قد وصل إلى المنطقة عساكر للجزار

([1]) مذكرات إحسان النمر، ص 303.

([2]) ديوان إبراهيم طوقان، ص 1310

والعثمانيين أتوا لوقف تقدم نابليون نحو عكا.. وقد وصف الأمير حيدر الشهابي معركة قاقون هذه بقوله[1]:

"ثم إن أمير الجيوش سار بالعسكر قاصداً مدينة عكا عن طريق الجبل، ولما صاروا إلى أراضي قاقون فكانت عساكر الجزار والنوابلسة مكمنين في الوادي هناك وحينما بلغهم قدوم الفرنساوية أخرجوا من فم الوادي خمسماية مقاتل وبدروا يرمحون تجاه العسكر- ثم عادوا أمامهم إلى وادي الشعير- وكان قصدهم أن يجروهم إلى ذلك الوادي، فلما علم أمير الجيوش مرادهم قسم عساكره ثلاثة أقسام: القسم الأول سيره إلى فم الوادي، والقسمان أطلعهم إلى فم الجبل- للمحافظة على مؤخرة الجيش- وحينما اقتربوا إلى الوادي ضربوا المدافع وأطلقوا الرصاص، فانحدرت القوات الفرنساوية من أعالي الجبال وانتشب بينهم القتال، وكثر القيل والقال، وقد قتل من عسكر الإسلام أربعماية وانهزم الباقون".

ومن الغد سارت الحملة الفرنسية في اتجاه " زيتا " بقصد جذب النابلسيين إلى السهل وابادتهم، ولكن حملتهم هذه لم تنجح، لأن المجاهدين لم يبارحوا امكنتهم الواقعة في التلال العالية والمشرفة على السهل، وحينما توغل الفرنسيون بين الصخور والأخاديد وقعوا في كمين نصبه لهم أهل البلاد فانصبت عليهم النيران من كل جانب وكانت خسائرهم كبيرة، مما اضطر نابليون لأن يأمر جنده بأن يحاربوا متقهقرين، واكتفى بترتيب ما يضمن الدفاع عن مؤخرة جيشه.. وهكذا باءت حملته على هذه الديار كما باءت من قبلها حملة " عزون " بالفشل الذريع دون أن يتمكن من جذب النابلسيين إلى السهل.

وبعد هذه المعركة غادر الفرنسيون " زيتا" وأطرافها إلى أن بلغوا " صبارين" من أعمال حيفا، في طريقهم إلى عكا[2].

وقد ورد في كتاب " الجزار قاهر نابليون " للمؤرخ الفرنسي " ادوار

([1]) الشهابي، حيدر الغرر الحسان ج2، ص 261، 264.. نسخة رستم، ودروزة، محمد عزة: العرب والعروبة.. ج5، ص 59.

([2])الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج 3، ق 2، ص 331.

لوكروا" عن هذا المعركة[1]:

"وشبت المعركة بعد الظهر فلم تكن ناجحة لأن النابلسيين كانوا محتلين الأعالي
على ميمنة الجيش، بينما " بون وكليبر" ألفا مربعاً زحفا إلى الخيالة، وتناول " لان "
أمراً بقطع ميمنة العدو ورميه على عكا، ولكن المماليك ـ الذين كانوا في الجيش
الفرنسي ـ أبوا أن يشتركوا في المعركة، وهرب النابلسيون من جهتهم وتعقبتهم فرقة "لان"
بين الصخور والأخاديد، لكن المشاة الخفات الذين كانوا في طليعة الجند وقعوا في
حيص بيص، فأمرهم بونبارت عدة مرات أن يحاربوا متقهقرين، فجاءت الأوامر
متأخرة جداً لأن النابلسين توقفوا وكمنوا وأطلقوا بنادقهم على جيوشنا، فارتد هؤلاء بخسارة كبيرة واختفى النابلسيون في الأعالي دون أن يمكن جذبهم
إلى السهل ".

وواصل نابليون سيره نحو أسوار عكا، ولكن قوات جبل نابلس لم تكف عن مهاجمة الفرنسيين ومضايقتهم وإزعاجهم، وخشي نابليون أن تتحد المدن المحيطة بعكا فتطبق على قواته من الخلف..لذلك فقد عمد إلى استباق الحوادث وبعث ببعض وحداته لاحتلال الناصرة وصفد وطبريا[2].

معركة مرج بن عامر {16 نيسان 1799م}:

التقى الفرسان الذين خرجوا من كل ناحية من جبل نابلس بالقرب من قلعة صانور، وتحركت القوات التي بلغت من سبعة إلى ثمانية آلاف مجاهد بقيادة الشيخ يوسف الجرار ومعه الشيخ مسعود الماضي وأحمد

([1]) النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس،ج1، ص218..عن كتاب " الجزار قاهر نابليون" للكاتب " ادوارد لوكروا ".

([2])الكردي، فايز: عكا بين الماضي والحاضر، ص 95.

بك طوقان وعدد آخر من مشايخ الجبل، إلى مرج ابن عامر عن طريق جنين، وانضمت إليهم جموع عجلون والبلقاء[1].. والتقوا بعساكر الدولة التي قدمت من دمشق ـ من المغاربة والهوارة والعربان والغز ـ ورابطت في المرج قرب قرية الفولة، فأصبحت جموع المسلمين تزيد على 25 ألف فارس[2].

كان نابليون قد قسم جيشه إلى ثلاث فرق.. قاد الأولى بنفسه واستولى على حيفا سلماً ورابط فيها، ثم انتقل بعساكره إلى عكا ونصبوا المضارب والخيام في محل يقال له " أبو عتبة"، وبنوا المتاريس الحصينة ووضعوا فوقها المدافع، وسار القائد " منو" والجنرال " مورا" بالفرقة الثانية إلى صفد والناصرة، واستولى " منو" على الناصرة وتسلم" مورا" صفد، أما الفرقة الثالثة فسارت بقيادة " كليبر" ورابطت في مرج ابن عامر لتحول دون اتصال جبل نابلس بعكا.

ولما بلغ كليبر خبر وصول جموع جبل نابلس وقوات الدولة إلى المرج سار بعساكره إليهم، وحينما وصلوا وشاهدتهم تلك الجموع انهزموا أمامهم مكيدة لهم، ولم يزل الفرنسيون في أثرهم حتى وصلوا إلى أطراف المرج ومن هناك أحاطوا بالفرنسيين من كل جانب، ولما رآهم القائد كليبر قد أحاطوا بالعسكر قسم رجاله أربعة أقسام مع كل قسم منهم مدفع، واتجه كل قسم نحو جهة ووقف هو في الوسط ـ وكان من أبسل القواد، وعساكره مدربون أحسن تدريت ـ وظلوا مرابطين في أماكنهم والعرب تهاجمهم من كل صوب[3]. ولما شاهدهم العسكر الموجودون في الناصرة أرسلوا خبراً لأمير الجيوش " بونابرت " وأكدوا له حراجة موقف كليبر في المرج، فأحصر حالاً القائد "لترك " وأمره بتحضير

([1])الرامييني: ص 67.. عن نعمة الله، نوفل الطرابلسي: كشف اللثام..، ص 233..، ودروزة، محمد عزة: العرب والعروبة..ج5، ص 60.

([2])الدباغ: بلادنا فلسطين، ج 7ق2، ص44-45.

([3]) كرد علي، محمد: خطط الشام، ج3، ص 14.. وإحسان النمر: تاريخ جبل نابلس.. ج1،
ص 221.

ثلاثة آلاف عسكري وآخذوا معهم أربعة مدافع، وأمر الجنرال بونابرت أن يسيروا على وادي عبلين وبعد ثلاث ساعات من مسيرهم ركب أمير الجيوش وسار وراءهم طالباً أثرهم، ووصل في منتصف الليل بعسكره إلى بئر البدوية وعند الصباح سار بالعسكر إلى أن نفذ إلى مرج ابن عامر وصعد إلى تل عال فكشف أرض المرج ونظر إلى الجنرال كليبر في وسط البيداء وعساكر المسلمين محيطة به والهجوم به والهجوم من كل ناحية، ثم شاهد جبلاً بعيداً وعليه المضارب والخيام وكان هذا جيش الغز، فنزل أمير الجيوش وعزل خمساية مقاتل،وأمرهم إن يقصدوا ويكسبوا الجيش، وتوجه قسم منهم حتى صارت العساكر المحاربة في وسطهم وأحاطوا بهم، ولما وصل أمير الجيوش إليهم ضرب مدفعاً واحداً ثم أخذ يطلق نيراناً كثيفة من المدافع على الجموع المحيطة بفرقة كليبر، مما أربك القوات الإسلامية فتراجعت إلى جنين وأفلت كليبر من الحصار، بعد أن بلغ درجة كبيرة من الضيق واليأس وكاد يعلن الاستسلام.

ثم قام نابليون بتتبع أثرهم وأحرق جنين والقرى المجاورة لها أملا برجوع قواتهم للمقاومة، وعندها يمكنه القضاء عليهم أو استسلامهم، فلم ينل بغيته فعاد إلى الناصرة ثم إلى حيفا محطم الآمال[1].

وقد اخبرني السيد أحمد الشيخ كمال السعدي في مقابلة أجريتها معه بتاريخ 28/3/1990 ـ أن المرحوم الشيخ يوسف صالح الجمل السعدي ـ الذي عاش

120 عاماً في قرية المزار ـ شاهد معركة المرج وكان عمره يومها اثنا عشرة سنة، وصرح له بأنه شاهد المجاهدين وهم يلقون الصخور على الجيش الفرنسي من الجبال والهضاب.. وأنه جمع من مخلفات الجيش الفرنسي التي تركها في ساحة المعركة.

وبعد موقعة المرج ذهبت فصيلة من أبطال جبل نابلس ليلاً لإنجاد الجزار، ولما وصلوا جهة عكا لبّدوا حوافر الخيل{ أي لبسوا حوافرها لباداً

([1])نعمة الله، نوفل الطرابلسي: كشف اللثام..، ص 233..، ودروزة، محمد عزة: العرب والعروبة..ج5، ص 60. كرد علي، محمد: خطط الشام،ج3، ص 14-15.

لئلا يسمع وقعها على الأرض }، واجتازوا نطاق الفرنسيين ووصلوا القلعة، ففتح لهم الحراس ودخلوا جميعاً[1].

ويصف كريستوفر هيرولد في كتابه " بونابرت في مصر} موقعة المرج فيقول[2].

" وفي نيسان وبينما كان جند الدولة معسكراً في قرية " الفولة " خرج الجنرال كليبر على رأس ألفين من رجاله، ولما أشرف على أعدائه مقابل جبل طابور فوق قريتي اكسال ودبورية، انحدر إليهم ورتب جنده على شكل مربع، وما لبثت هذه المربعات أن طوقها 24 ألف فارس عثماني ـ فرسان جبل نابلس وقوات الدولة ـ وظل الفرنسيون عشر ساعات من السادسة صباحاً إلى الرابعة مساء يقاتلون دون توقف وبغير أمل كبير، وهم يصدون عنهم هجمات العدو، وأخذت ذخيرتهم من الرصاص تنضب، وقد كتب أحد الجنود عن هذه الموقعة يقول: {كنا نتمنى أن ننزل عمّا لدينا من خبز قليل لقاء بعض الطلقات والبارود. ولم يكن لدينا وقت للأكل، ولو وجد لما أخذنا منه، لأن الظمأ والإعياء قد أخذا منا كل مأخذ فلم نقو حتى على الكلام }.. وتأزم موقف الفرنسيين، وإذ رجال كليبر يسمعون من مرتفع جنوبي ساحة القتال دوي مدفع حكموا أنه صادر من مدفع فرنسي، وكان المدفع من مدافع فرقة الجنرال بون، التي قادها بونابرت بنفسه لإنقاذ كليبر، وكانت هذه المعركة التي شاء نابليون أن يسميها " جبل طابور" انتصاراً غير متوقع، وبعدها عاد بونابرت وكليبر إلى الناصرة وباتا هما وأركان حربهما الليل في دير الناصرة، وبينما كان نابليون في الناصرة كان جنوده يحرقون مدينة جنين".

([1]) النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس،ج1، ص222.

([2]) الدباغ: بلادنا فلسطين، ج 7ق2، ص44-45عن كريستوفر هيرولد: ص 398-401.

نابر

نابليون

وكان من الذين أصيبوا في معركة المرج الضابط " دروفيتي " الذي قطعت يده ونجا من القتل، وانسحب مع نابليون إلى مصر، وعينه نابليون قنصلاً في الإسكندرية، فقام بدور خطير حيث كلف الجاسوس الفرنسي " لاسكاريس" بمؤامرة خطيرة في سورية عام1800م، وهي تمهيد الطريق

أما حملة فرنسية محتملة، كانت ستنزل أيام مجد نابليون على الساحل السوري لتحتل دمشق فبغداد فالبصرة وتقطع طريق الهند البري..

يقول " دروفيتي " عن ذكرياته في معركة المرج والتي أطلق عليها "معركة طابور"، وعن سبب بقائه في مصر بعد رحيل نابليون إلى فرنسا:

"وفضلت البقاء في مصر ـ فساعدي يؤلمني وهو ذكرى معركة جبل طابور ولن يجد ضابط أقطع ـ وكانت يده قد قطعت في المعركة ـ أكتع برتبة زعيم مكانا له في رئاسة أركان " الكابورال الصغير" [1]، وجاء السلام أخيراً وعرض علي منصب قنصل مدينة الإسكندرية فقبلته، وتركني الانجليز أعيش بهدوء[2].. وبقي دورفيتي في الإسكندرية يقوم على تنفيذ المؤامرات التي تخطط في فرنسا ويقوم هو على تنفيذها في الشرق.

هزيمة نابليون ورحيله عن فلسطين

الأسباب المباشرة للهزيمة:

إن معظم الكتاب الذين كتبوا عن حملة نابليون على بلاد الشام وعن هزيمة تلك الحملة قد عزوا ذلك إلى ثبات عكا وفشل نابليون في احتلالها.. ولكن عدداً آخر من الكتاب والمؤرخين اعتبر هذا السبب غير كاف وحده للفشل الذريع والهزيمة النكراء التي مني بها نابليون ـ إذ أن الفرنسيين كان بإمكانهم تجاوز عكا والسير إلى ما بعدها لو كان الأمر يقف عند

([1]) كانوا يتهكمون بهذا اللقب على نابليون.

([2]) جان سوبلان: كتاب "لاسكاريس العرب" - ترجمة فريد حجا، ص 30.

دخول عكا فقط ـ وخاصة أن المهزوم ليس قائداً عادياً.. إنه " بونابرت " الذي لم تهزم له راية في مئة معركة، ولم يفلت من مكايده أحد.. فأشار بعضهم إلى دور جبل نابلس وما قام به قادة الجبل وفرسانه من الوقوف في وجه الفرنسيين بإيمان وصلابة، وقتالهم وإنهاك قوتهم منذ وصلوا يافا إلى أن انسلوا عن أسوار عكا مهزومين يائسين.. إن عدم كتابة تاريخ جبل نابلس في تلك الفترة بشكل واضح وأمانة تاريخية بعيدة عن الهوى، قد طمس كثيراً من الحقيقة..

وأمام هذا الموقف يمكن أن نوجز الأسباب المباشرة لهزيمة نابليون بما يلي:

أولاً: كان لثبات عكا دور كبير في الهزيمة، وكان للدور البطولي الذي قام به الجزار أثر واضح في هذا الثبات، وخاصة عندما تمكنت المدافع الفرنسية من فتح ثغرة في السور وأمر نابليون جنوده بالهجوم على الثغرة، فأنهار أتباع الجزار الذين كانوا يدافعون عن السور وهربوا، فخرج الجزار من قصره مسرعاً يحمل في يديه مسدسين، وهجم على الثغرة للدفاع عنها، فما كان من الحرس إلا أن تشجعوا وثبتوا وردوا الفرنسيين عنها.. وصحيح أن عكا لقيت مساعدة من جيش الدولة ومن جبل نابلس ومن الأسطول الانجليزي في البحر إلا أن وقفة رجالها كان له دور واضح في الثبات..

ثانياً: وكان لجبل نابلس دور أكبر في دفع عكا إلى الثبات.. وذلك بما قام به قادة الجبل وفرسانه من جهاد مبرور ووقوف في وجه الزحف الفرنسي، وهجوم على أجنحته ومؤخرة جيشه.. وكان للمعارك التي خاضوها في
مرج ابن عامر وقاقون وعزون أبلغ الأثر في إلحاق الهزيمة النفسية بجيش يعتبر نفسه أقوى جيوش أوروبا تدريباً وعتاداً.. وحتى نابليون ذاته أصابته الهزيمة النفسية عندما علم بحرق ميمنة جيشه في وادي عزون وقتل قائد الفرقة وبطلها، ويوم طلب من جنوده الانسحاب متقهقرين من منطقة قاقون، ومما زاد من هزيمته النفسية عندما رأى أبرز قواده وأقوى فرق جيشه يضيّق عليها

المجاهدون - من أبناء جبل نابلس - الخناق ولم يبق بينها وبين الاستسلام إلا لحظات..
يقول الأستاذ إحسان النمر في كتابه " تاريخ جبل نابلس والبلقاء"[1].

" لقد عاد نابليون إلى عكا بعد معركة المرج خائر العزيمة فاقد الأمل، لأنه كان يأمل أن يستسلم له جبل نابلس كما استسلمت الناصرة وصفد.. لقد كان الفشل الذي مني به حول جبل نابلس دليلاً واضحاً على استعداد البلاد للمقاومة بدلاً من التسليم، وأنّه لا محالة سيفقد بين جبالها أضعاف أضعاف ما فقد في سهول مصر وساحل فلسطين، ولا شك أن هذه الحقيقة تجلت أمام نابغة الفرنسيين فصدعت آماله وأضعفت هوسه فتوقف تحت أسوار عكا وقلبه يخبره أن القلعة الحقيقية هي جبل نابلس".

ثالثاً: كانت الفترة التي سبقت الحملة الفرنسية والفترة التي لحقتها، من أفضل الفترات في تاريخ جبل نابلس إيمانا وثباتاً ووحدة وتعاوناً وتماسكاً.. كان أبناء الجبل جميعاً مرابطون في سبيل الله للدفاع عن أرض الإسراء والمعراج، وقد تجلى هذا التعاون والثبات في عدد من المواقف..

لقد تجلى يوم أرسل نابليون مناشيره إلى الجبل يطلب منهم الاستسلام فلم يجد إنسانا واحداً يحمل هذه المناشير أو يستجيب لها..

وتجلّى يوم وجّه شيخ الجبل رسالته إلى العشائر وشيوخها يدعوهم إلى الاستعداد للقتال، فهب فرسان الجبل جميعاً إلى الجهاد ولم يتخلف منهم رجل واحد يقدر على حمل السلاح..

وتجلّى يوم طلبت عكا ويافا النجدة من أبناء الجبل فهبوا لنجدتها وتحملوا جميع النتائج التي ترتبت على هذه النجدة..

وتجلى يوم سجلوا الظفر على نابليون وجيشه المدرب على أحداث

([1]) النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس،ج1،ص223.

الأصول الحربية، والذي يحمل أحدث سلاح، ومعه المدافع التي لا يعرف العرب حربها.. ومع هذا خاضوا حرباً قال عنها الشيخ رباح الشريدة أحد شيوخ جبل نابلس: أنا ما أخوض جهنم بعصا" [1].

رابعاً: لقد بذل أهل فلسطين وسعهم في قتال الغزاة الفرنسيين.. ودعوا الله أن يكون عوناً لهم عليهم.. ولم يخيب الله ظنهم، فرمى الغزاة بالطاعون الذي بدت بوادره في جيشهم منذ دخل غزة، وازدادت حدته في أثناء حصار عكا يوم أعلن نابليون وعده لليهود بتسليمهم القدس وفلسطين بعد استيلائه عليها.. {وما يعلم جنود ربّك إلا هو}.

خطيئات نابليون في فلسطين:

خسرت بلاد الشام في أثناء حملة نابليون خسارة الضعيف مع القوي، كما أن فرنسا لم تستفد منها سوى قتل عدد كبير من أبنائها.. لقد ارتكب نابليون في أثناء حملته على فلسطين الكثير من الخطايا، أهمها:

- قتل حامية يافا البالغ عددها أربعة آلاف، وبعد أن استسلمت وأخذت الأمان فقد أصر نابليون على قتلهم جميعاً رمياً بالرصاص في 10 آذار 1799م، ولم يوارهم التراب فبقيت أجسامهم مكشوفة طعاماً للطيور[2].

- عندما دخل نابليون يافا عنوة سمح لرجاله بالتصرف والتمتع بمال المغلوب وأملاكه، وهذه هي المرة الأولى والأخيرة التي سمح فيها نابليون لرجاله بهذا التصرف.. قال الشهابي: إن العساكر الفرنسية حاصرت يافا ثلاثة أيام وملكوها بالسيف، وكان عسكر المسلمين فيها ينيف على اثني عشر ألفاً فما سلم منهم إلا القليل، وقتل كثير من النساء والأولاد حتى جرى الدم في أسواق يافا[3].

([1])النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس،ج1،ص224.

([2])كرد علي، محمد: خطط الشام،ج3، ص 16 عن مشاقة.

([3])كرد علي، محمد: خطط الشام،ج3، ص 17..عن الشهابي.

- ارتكب نابليون قبل مغادرته يافا إلى مصر أمراً شنيعاً لم يسبق في التاريخ وهو قتله الجرحى والمرضى من عساكره حتى لا يعوقوه في سيره، ووضعه السم لجنوده الذين أصيبوا بالطاعون[1].

رحيل نابليون عن فلسطين:

عندما أخفق نابليون في فتح عكا، وعلم بحرق فرقة من جيشه في جبل النار ومطاردة فلوله في شعاب أوديته، وإنهاك جيشه في معركة مرج ابن عامر حتى كاد يستسلم.. أحس بمرارة الهزيمة للمرة الأولى، وقرر الانسحاب من فلسطين مع من تبقى من جيشه.. بعد حصار لعكا دام شهرين، وخسارة تكبدها بلغت "1200" قتيل في الحرب "و(1000" ماتوا بالحمى والطاعون و "2300" مريض أو جريح جراحاً خطيرة، وكان الجنود الذين قادهم في الحملة صفوة جيشه..

وقبل الرحيل، أمر نابليون بقذف عكا بجميع ما يملك من مدافع ـ ولا سيما مقر الجزار ـ مدى أربعة أيام متوالية من 12-15 أيار، وقطعوا الماء عن عكا ودمروا الكثير من عماراتها " حتى أنه ما عاد عمار في عكا، إلا القليل جداً من ضرب المدافع والقنابر" [2].. وكان هدفه من ذلك:

أولاً: إخفاء استعداداته لرفع الحصار.

ثانياً: إصابة المدينة التي هزمته هزيمة شنعاء بأبلغ ما يستطيع من أضرار.

ثالثاً: ليستطيع أن يعلن على الملأ أنه دمر عكا..

ووقف نابليون بجوار السور وقذف بخوذته إلى أعاليه وهو يقول: " إن لم أدخل أنا فلتدخل خوذتي". .وأخذ يتأوه قائلاً لأحد ضباطه: " لو فتحت عكا أبوابها لبدلت وجه العالم، وجعلت التاريخ يسير حسب مشيئتي" [3].

([1])كرد علي، محمد: خطط الشام،ج3، ص 16.. عن المؤرخ نقولا الترك.

([2]) الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج 7، ق 2، ص 254..عن " تاريخ احمد باشا الجزار " للأمير حيدر الشهابي، ص 133.

([3]) نابليون بونابرت قاهر أوروبا، ص 34.

وفي الساعة الثامنة بعد هبوط الظلام، من يوم 20 أيار عام 1799م أخذ الفرنسيون بالتقهقر بعد حصار امتد "63" يوماً.

وفي صباح الغد صعد الجزار على السور وأمرّ رأسه فرأى أن معسكر الفرنسيين خلا ممن فيه وأن عكا محاطة بنطاق من الجثث البشرية..

وقد وصف هذا التقهقر أحد مشاهديه من الفرنسيين بقوله: " لم يكن لدينا وسائل للنقل، وكان علينا أن نحمل معنا ألفا أو ألفاً ومائتين من الجرحى والمرضى، فضلاً عن أربعين قطعة من المدفعية.. أما ما بقي كله من مدافع من جميع العيارات، ومدافع مورتر، وقذائف وقنابل، وبنادق وطلقات ـ أعني الذخيرة كلها تقريباً ـ فكان لا بد من دفنه في الحقول وعلى الساحل، ونسفنا البارود الذي تركناه، وكومنا كل صناديق الذخيرة وأحرقناها في السهل، وتمت جميع الاستعدادات لرحيلنا.. وإذا العدو يقوم بهجوم مضاد نشيط في 20 آيار، وقد دام اليوم كله تقريباً وكان إطلاق النار رهيباً وظل العدو يلقي بنفسه في خنادقنا، ولكن رجالنا ظلوا يدفعونه ويكبدونه خسائر فادحة[1].

ووصف أحد شهود العيان وصول الجيش الفرنسي المتقهقر من عكا إلى حيفا بقوله: " كنا نرجوا أن نعفى من منظر الموتى والمحتضرين البشع.. وإذ نحن نرى في دخولنا حيفا بالليل نحو مائة مريض وجريح تركوا وسط ميدان فسيح، وملأ هؤلاء المساكين اليائسون الجو بصراخهم ولعناتهم.. وكان بعضهم يمزقون أربطتهم ويتمرغون في التراب، وجمد الجيش لهذا المنظر، فوقفنا هنيهة، وعين في كل كتيبة رجال لحمل هؤلاء المرضى والجرحى بين أذرعهم إلى الطنطورة، ثم استأنفنا السير"[2].

وصل نابليون إلى يافا يوم 24 آيار، وكان أول أمر أصدره لقائد البلدة أن يرحل ومعه الرجال المصابون بجراح خفيفة وعدد من الأسرى، وقد وجد نابليون في يافا الكثير من جنوده مصابين بالطاعون وغيره من

([1]) الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج 7، ق 2، ص 255..عن بونابرت في مصر، ص 416.

([2]) هيرولد كريستوفر: بونابرت في مصر، ص 416.

الأمراض السارية، فكانت المستشفيات فيها تغص بالمرضى حيث كانت الحمى الوبيلة تحصدهم حصداً، فعادهم القائد الأكبر متفقداً أحوالهم، وكان بين المرضى مطعونون يبلغ عددهم ستين، وكان الوباء قد اشتد على ثمانية منهم، فحاروا فيما يجب أن يفعلوه بأولئك التاعسين. وشاور بونابرت أصحابه في الأمر، فقالوا له أن كثيرين منهم يطلبون الموت بإلحاح، وان مخالطتهم للجيش تكون وخيمة التبعة عليه، وأن الحكمة تقضي بتعجيل وفاتهم والاجهاز عليهم، ويحقق بعضهم أنهم جرعوهم شراباً عجل موتهم[1]. واقترح نابليون على الأطباء أن يجرعوا السم لباقي المرضى ليموتوا ولكن أطباءه رفضوا ذلك فسخر الأسرى في حمل هؤلاء المرضى إلى مصر على ألواح خشبية.

وفي 28 آيار أنهى نابليون احتلاله ليافا- الذي استمر أقل من ثلاثة شهور - وقبل رحيله عنها نسف حصونها ودفن ما فيها من مدافع وعتاد في الرمال، وألقى بأربعة آلاف بندقية - التي كانت قد غنمها - في البحر، وأحرق المراكب الراسية في الميناء[2].

ثم استأنف الجيش الفرنسي زحفه الطويل فوصل العريش في 2 حزيران من عام 1799 م أي بعد "13" يوماً من رحيله عن عكا، وكانت مدة إقامته في فلسطين نحو أربعة شهور من شباط إلى آيار 1799م.

وهكذا فشل نابليون - القائد الأسطوري الذي دوخ العالم - في حملته على فلسطين، وتبخرت أحلامه بتأسيس إمبراطورية نابليونية تمتد من مصر والشام وشمال الجزيرة، إلى العراق وإيران والهند.

([1])الحويك، الياس طنوس: تاريخ نابليون الاول – المجلد الاول، ص 133.

([2])الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج4-ق2، ص 159-160.

المصادر والمراجع

مراجع عامة:

1. ابن منظور: لسان العرب، 15 مجلد، (بيروت: دار صادر)،1956م.
2. ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج2، ج3، القاهرة، 1952م.
3. ابن دريد الاشتقاق.
4. أبو شقرا، يوسف خطار: الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية، بيروت 1952م
5. ابكاريوس: عزتلو اسكندر بك، المناقب الإبراهيمية والمآثر الخديوية، حمص 1910م
6. الأسود: عزتلو إبراهيم بك: كتاب ذخائر لبنان، 1896م.
7. باز، رستم، مذكرات رستم باز، 1955م.
8. برامكي، وديمتري، آثار الضفة الشرقية.
9. البرغوثي، عمر صالح تاريخ فلسطين، القدس 1923.
10. البيطار، الشيخ عبد الرزاق: حلية البشر تاريخ القرن الثالث عشر جزءان ـ تحقيق بهجة البيطار، دمشق 1961.
11. بيركهارت: رحلة في سورية الجنوبية ـ ترجمة أنور عرفات، عمان 1969م.
12. بيك باشا، فردريك: تاريخ شرق الأردن وقبائلها ـ تعريب بهاء الدين طوقان، القدس 1934م.
13. التجاني عامر: السلالات العربية السودانية في النيل الأبيض، (الخرطوم دار الفكر).

14.التونسي، محمد بن عمر: تشحيذ الأذهان بصرة بلاد العرب والسودان (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة)، 1965م.
15.جرار، عبد الهادي: تاريخ ما أهمله التاريخ، (عمان: دار الجليل)، ط1، 1988م.
16.جرار، وليد صادق: شاعران من جبل النار (عمان: شركة الشرق الأوسط للطباعة)، ط1، 1985م.
17.الحموي، ياقوت: معجم البلدان، م 5 (بيروت: دار صادر)، 1957م
18.الحويّك، الياس طنوس: تاريخ نابليون الاول، م1، (بيروت: دار مكتبة الهلال).
19.الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج2، 3، 4، 7، ط1، رابطة الجامعين بمحافظة الخليل 1974م.
20.الدباغ، مصطفى: القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطين، (بيروت: دار الطليعة).
21.الدباغ، مصطفى: الموجز في تاريخ الدول الإسلامية وعهودها في بلادنا فلسطين، ج2، (بيروت: دار الطليعة)، 1982.
22.الدبس، المطران يوسف: تاريخ سورية، 8 مجلدات، بيوت، 1905م.
23.دروزة، محمد عزة: العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي من القرن الثالث إلى القرن الرابع عشر الهجري ـ في سورية الوسطى، م2ـ ج5 (بيروت: المكتبة العصرية) 1981م.
24.الدمشقي: ميخائيل: تاريخ حوادث الشام ولبنان،1912م، مجلة المشرق عدد 15 سنة 1912.
25.الرافعي، عبد الرحمن: عصر محمد علي، القاهرة، 1951م.
26.الراميني، أكرم: نابلس في القرن التاسع عشر (دراسة مستخلصة من سجلات المحكمة الشرعية بنابلس)، عمان: مطابع دار الشعب)، 1979م.
27.رستم، أسد: الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا (بيروت: المطبعة الأمريكانية)، 1933م.
28.رستم، أسد: لبنان في عهد المتصرفية.

29.رستم، أسد: بشير بين السلطان والعزيز (1804-1840)، بيروت 1956م.
30.زكريا، وصفي: عشائر الشام، دمشق، 1945م.
31.سوبلان،جان: كتاب _ "لاسكاريس العرب" - ترجمة فريد جحا، (دمشق: دار طلاس)، 1987م.
32.السويدي: سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب.
33.شبيكة، مكي: تاريخ شعوب وادي النيل في القرن التاسع عشر (بيروت: دار الثقافة) ط2، 1980م.
34.الشقطا، الشيخ عبد الله: رسالة رابطة آل الأشقر، ج3،ط2، (بيروت)، 1966م.
35.شقير، نعوم: جغرافية وتاريخ السودان، (بيروت: دار الثقافة)، 1972م.
36.الشدياق، طنوس: أخبار الأعيان في جبل لبنان، جزءان، بيروت، 1970.
37.الشهابي، الأمير حيدر: لبنان في عهد الأمراء الشهابين ـ ق 2، تعليق أسد رستم، بيروت 1969م.
38.الشهابي، الأمير حيدر: تاريخ احمد باشا الجزار، مكتبة أنطوان.
39.الشهابي، الأمير حيدر: الغرر الحسان في تاريخ حوادث الأزمان { بيروت: دار الآثار }،1980م.
40.طوقان، إبراهيم: ديوان إبراهيم طوقان، {بيروت: دار القدس }، 1975م.
41.العابدي، محمود: أوابد من التاريخ، عمان، 1978م.
42.العارف، عارف: المفصل في تاريخ القدس،ج1، القدس، 1961م.
43.العطار، نادر: سورية في العصور الحديثة، ج1، دمشق.
44.العورا، إبراهيم: تاريخ ولاية سليمان باشا العادل،(صيدا: قسطنطين الباشا)، 1936م.
45.عبود، أسعد: تاريخ الناصرة.
46.غانم إبراهيم أبو سمرا: المصريون في لبنان وسورية قبل مائة سنة، مجلة المشرق عدد 30، 1932م.

47.غرايبة، عبد الكريم: سورية في القرن التاسع عشر 1840- 1876م، (مصر: دار الجيل).
48.القاري، رسلان بن يحيى: الوزراء الذين حكموا دمشق ـ تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق 1949م.
49.القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، (القاهرة: الشركة العربية) 1959م.
50.كربيتس، بيير: إبراهيم باشا، ترجمة محمد بدران، القاهرة 1937م.
51.كرد علي، محمد: خطط الشام ج2، ج3، (بيروت: دار العلم للملايين)ط2، 1969م.
52.الكردي، فايز: عكا بين الماضي والحاضر، (عكا: دار البشير)، 1971.
53.كنغليك: كنغليك إلى المشرق، 1834-1835م- ترجمة محمود العابدي، عمان1971م.
54.لوكروا، ادوار: الجزار قاهر نابليون،(بيروت: دار الثقافة).
55.الماضي منيب، والموسى سليمان: تاريخ الأردن في القرن العشرين، عمان، 1959م.
56.مخول، ناجي حبيب: عكا وقراها، ج1، 2 (عكا: مكتب الأسوار)، 1979م.
57.مشاقة: مشهد الأعيان بحوادث سورية ولبنان.
58.المعلوف، عيسى اسكندر: تاريخ فخر الدين المعني الثاني بيروت 1966م.
59.مناع، عادل: أعلام فلسطين في أواخر العهد العثماني 1800-1918م، القدس، جمعية الدراسات 1986م.
60.الموسوعة العسكرية، ج1، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر) 1977م.
61.النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس والبلقاء 4أجزاء، (نابلس: مطبعة جمعية عمال المطابع)، 1975م.

62.النمر، إحسان: مذكرات إحسان النمر، (نابلس: مطبعة الفرج)، 1978م.
63.نعمة الله، نوفل الطرابلسي: كشف اللثام عن محيا الحكومة والحكام، مخطوط رقم 1341 بمكتبة الجامعة الأردنية.
64.نابليون بونابرت قاهر أوروبا (بيروت: دار العلم للملايين)، ط 10، 1978م.
65.هيرولد كريستوفر: بونابرت في مصر ترجمة دار الكاتب العربي، القاهرة 1967م.

الدوريات:

1. جريدة الرأي الأردنية في 23/10/1985م – مقال مترجم للكاتب سليمان الموسى.
2. جريدة صوت الشعب الأردنية 16/12/1984.
3. جريدة شيحان الأردنية – العدد 13، سنة 1984م.
4. حولية الثقافة العربية – السنة الأولى.
5. مجلة الآثار – السنة الرابعة،ج1.
6. مجلة المقتطف: تاريخ الجزار – عدد 31، سنة 1906م.
7. مجلة الرسالة القاهرية – العدد 161، في 3/8/1936م.

مقابلات شخصية:

تم إجراء مقابلات شخصية مع كل من:

1. الشيخ إبراهيم الزاهري ـ من شيوخ عشائر الحجايا ـ وصلتني منه قصيدة من القصائد المنتشرة في البادية الأردنية للشيخ " ابن جرار".
2. الشيخ عبد الله باشا الشريدة ـ مقابلة في دير أبي سعيد سنة 1984م.
3. الشيخ عبد الله الشقطا ـ مقابلة أجراها معه مؤلف رسالة رابطة آل الأشقر سنة 1931م.. والشيخ عبد الله من قبيلة الصويصات في الفحيص، وهو معروف عند القبائل بقوة حافظته وثقة روايته، ويعتبر من أكبر رواة الأردن واعرفهم بأنساب العشائر.

4. أبو حنا ميخائيل سلامة الصويص من الفحيص، توفي عام 1986م عن عمر يناهز مئة عام.. واستمعت إلى شريط مسجل بصوته في 15/5/1989م.
5. معلومات عن تاريخ جبل نابلس كان يتداولها كبار السن، وقد سمعتها من كامل مصطفى جرار وفريد الحاج محمود وادهم الحاج محمود في صانور، ومن علي المحمد جرار من جبع.
6. الشيخ أمام مسجد أبو علندا- قابلته في بيته عام 1973م وسجلت ما يحفظ من تاريخ وأشعار.
7. الشيخ فريز جرار - مقابلة في عمان سنة 1985م.
8. حنا جريس السماوي - مقابلة في الفحيص في 30/7/1987م.
9. سلطي الصايغ - مقابلة في ارميمين عام 1988م.
10. السيد أحمد الشيخ كمال السعدي - مقابلة في الدوحة بتاريخ 28/3/1990م.

كتب المؤلف:

1. شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث 10 أجزاء.
2. أناشيد الدعوة الإسلامية - أربع مجموعات.. والكتابات بالاشتراك مع الأستاذ احمد الجذع.
3. الأخوة والحب في الله.
4. الدعوى إلى الإسلام.. مفاهيم ومنهاج وواجبات.
5. القدوة الصالحة.. أخلاق قرآنية ونماذج ربانية.
6. ديوان شعر الدكتور يوسف القرضاوي - جمع وتقديم وتحقيق.
7. الحاج أمين الحسيني.. رائد جهاد وبطل قضية- من سلسلة " أعلام الجهاد في فلسطين".
8. الشيخ عز الدين القسام.. قائد حركة وشهيد قضية - من سلسلة " أعلام الجهاد في فلسطين".
9. الشيخ فرحان السعدي - الشيخ فريز جرار - الشيخ عبد القادر المظفر - من سلسلة " أعلام الجهاد في فلسطين".

10.قصائد إلى الأم والأسرة.. من سلسلة " المرأة في الشعر الإسلامي المعاصر".
11.قصائد إلى المرأة.. من سلسلة " المرأة في الشعر الإسلامي المعاصر".
12.قصائد وأناشيد للفتاة.. من سلسلة " المرأة في الشعر الإسلامي المعاصر ".
13.أسرار حملة نابليون على مصر والشام.

كتب تالية:

1. الشهيد عبد الله عزام.
2. الشهيد عبد القادر الحسيني.
3. الشهيد عبد الرحيم الحاج محمد

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

مقدمة الكتاب..... 7
نبذة تاريخية..... 11
المفهوم الجغرافي لجبل نابلس في العهد العثماني.....14
الفصل الاول 17
الأحوال العامة لجبل نابلس
- الأحوال الإدارية..... 18
• تبعية نابلس الإدارية 18
• التنظيم الإداري في نابلس 20
• نواحي جبل نابلس والتنظيم الإداري فيها: 24
- قضاء نابلس 26
- قضاء جنين 32
- قضاء طولكرم 37
• خرائط نواحي جبل نابلس 42
- الأحوال الثقافية والاجتماعية:.....54
• التعليم 54
• المجتمع النابلسي 54
- الأحوال الاقتصادية:.....57
• ملكية الأرض في الدولة العثمانية 57
• الإقطاع في جبل نابلس 59

الموضوع الصفحة

- الضرائب والرسوم 60
- الزراعة والصناعة والتجارة 60

الفصل الثاني 63

الحكم الوطني في جبل نابلس 63

-حكام جبل نابلس في القرن الثامن عشر والتاسع عشر..... 64
- متسلميّة اللّجّون.....65
-متسلميّة نابلس.....67
-سياستهم الداخلية.....71
-سياستهم الخارجية.....76
-جبل نابلس.. والولاة العثمانيون.....78
- وقوف جبل نابلس في وجه الطامعين..... 80
- جبل نابلس.. وظاهر العمر 80
- جبل نابلس.. وعثمان باشا الكرجي 83
- جبل نابلس... واحمد باشا الجزار 86
- جبل نابلس.. وعبد الله باشا 87
- جبل نابلس.. وإبراهيم باشا ابن محمد علي 94
- ثمار الحكم الوطني.....102

الفصل الثالث 107

الإمارة في جبل نابلس..... 108
- جبل نابلس بين الارتباط والإستقلال.....109
- مظاهر الإمارة في جبل نابلس.....114
- اللباس والسلاح 114
- القصور 115
- القلاع 115
- الجيش 121
- الفتوة والفروسية 122

الموضوع الصفحة

• القدوة الحربية123
- تقاليد الأمراء وصفاتهم النبيلة..... 124
- مكانتهم الشعبية..... 127
الفصل الرابع 129
مشيخة جبل نابلس..... 129
- الشيخ يوسف الجرار.. " شيخ الجبل "..... 130
• نسبه وإمارته 130
• العوامل التي ساهمت في بناء شخصيته 130
• أبرز صفاته 131
• أبرز أعماله 133
• الوقوف في وجه الحملة الفرنسية 140
• وفاة سلطان البر 140
- قلعة صانور.. " قلعة الجبل" 142
• بنو جرار من اليمن إلى البلقاء 142
• بنو جرار من القسطل إلى جبل نابلس 149
• بناء القلعة 151
• شيوخ القلعة في العهد العثماني (1720-1840) 159
• شيوخ القلعة في كتب التاريخ 165
• شيوخ آل جرار بعد العهد المصري 171
• شيوخ آل جرار في أواخر العهد العثماني 175
- ملاحق الفصل الرابع 177
1. وثيقة تاريخية 177
2. قصيدة هزمت نابليون 179
3. كتاب من والي الشام إلى متسلم نابلس 181
4. مرسوم والي الشام للشيخ احمد أغا الجرار182
5. مرسوم الوالي بتعيين الشيخ عبد الله الجرار 184
الموضوع الصفحة
6. شجرة نسب 185

الفصل الخامس 187
دور جبل نابلس في مواجهة الحملة الفرنسية.....188
-طلب النجدة من جبل نابلس.....
188
• رسالة الجزار ـ والي عكا ـ إلى الشيخ يوسف الجرار.....
188
• مراسيم الدولة إلى الولاة والمتسلمين.....
189
• رسالة حامية يافا إلى مشايخ جبل نابلس.....
190
-استعداد جبل نابلس.....
190
• رسالة شيخ الجبل إلى مشايخ جبل نابلس.....
190
• رسائل شيخ الجبل إلى مشايخ البلدان المجاورة.....
191
• وضع خطة للقتال.....
192
- حشد أبناء الجبل لقتال العدو 193
- معارك جبل النار 194
• معركة عزون.. وتسمية " جبل النار" 194
• معركة قاقون 197
• معركة مرج ابن عامر 199
- هزيمة نابليون ورحيله عن فلسطين..... 205
• الأسباب المباشرة للهزيمة 205
• خطيئات نابليون في فلسطين 207
• رحيل نابليون عن فلسطين 208